إيمانويل ميفسود

ترجمة: الحسين خضيري

جُوتَه هَايِم

رواية

مصر العربية للنشر والتوزيع

العنوان : يوتا هايم – رواية
المؤلف : إيمانويل ميفسود
المترجم : الحسين خضيري
مراجعة وتحرير : رفعت فرج
الطبعة : الأولى 2018
الناشر : مصر العربية للنشر والتوزيع
19 ش إسلام - حمامات القبة - الزيتون - القاهرة
تليفاكس 22562268
masrelarabia@hotmail.com
رقم الإيداع : 2017/22199
I.S.B.N : 978-977-428-116-7
تصميم الغلاف : عبد الرحمن الصواف
© جميع الحقوق محفوظة. Immanuel Mifsud © 2018
تمت الترجمة عن النسخة الإنجليزية (ترجمة: ألبرت جات)
نشرت في مالطة عن Klabb Kotba Maltin
العنوان الأصلي : Jutta Heim - رواية لـ (إيمانويل ميفسود)

تمت ترجمة هذا الكتاب بدعم من المجلس الوطني للكتاب في مالطة

This translation was subsidized by the National book council of Malta

جوته هايم

رواية

إيمانويل ميفسود

ترجمة: الحُسين خضيري

2018

مصر العربية للنشر والتوزيع

مقدمة المترجم

بدأ مانويل ميفسود مشروعَه الأدبي واستهلَّه بكتابَةِ الشِّعرِ منذ السادسةِ عشرة من عُمرِه، وكوَّنَ جماعةً أدبية، وراحَ يَكتُبُ المسرحياتِ ويُخرِجُها كما أخرَجَ لتشيكوف وهارولد بنتر وغيرِهما من الكتَّابِ العالميين الكِبار.

نَشَرَ إيمانويل ميفسود عددًا من الأعمالِ تراوحَتْ ما بين الشِّعرِ والنَّثرِ وأدبِ الطِّفلِ واستهلَّ كتاباتِه بمجموعةٍ قصصيةٍ بعنوان "قِصَصُ أُناسٍ قبيحة" عام 1991، أتبَعَها بمجموعتين شعريتين هما "عند كلارا" و"كتابُ الريحِ والزهرة".

ولأنَّه متقنٌ للغتين المالطية والإنجليزية فقد أهلَّ علينا بكتابِه "بولسكا سلوفينسكو" الذي كَتَبَه بمزيجٍ من اللغتين المالطيةِ والإنجليزية عام 2004، ولعلَّه أرادَ أن يعبِّرَ بِحَقٍّ عن عِشقِهِ للُّغةِ الإنجليزية التي يتحدثُها بطلاقةٍ.

لم تقفْ موهبةُ إيمانويل ميفسود عند كتابتِه للقصَّةِ والشِّعرِ والنَّثرِ والرِّوايَة بل امتدَتْ إلى الترجمة، لقد كان طبيعيًا لمن يملك ناصيتي هاتين اللغتين أن يُطلَّ علينا بترجماتٍ رائعةٍ مثلَ ترجمتِه لموليير عام 2013 والتي نُشِرَتْ في مهرجان فاليتّا الدولي للباروك.

كما تَرجَمَ "كابيلان مالطة" لنيكولاس مونسارات 2014.

لم تَقِفْ موهبةُ إيمانويل عند هذا الحدِّ، لكنَّها امتَدَّتْ للكتابةِ للمسرحِ بل والترجمة له أيضًا.

فقد كَتَبَ إيمانويل مسرحيةَ "إيمان، أمل وبر" التي قُدِمَتْ في مهرجانِ مالطة للفنونِ عام 2015.

وقامَ بترجمةِ "لامبيدوزا" 2016.

وقد قدَّمَ لنا في أدبِ الأطفالِ كتابَه "قِصَصٌ نَمَتْ على الأرض".

وكتبَ للأطفالِ أيضًا "أُرقد قلبيَ أُرقد" وهي عبارةٌ عن تهويدات وأغان.

من الواضِحِ أنَّ الرَّجُلَ ذو ثقافةٍ وسيعة، متفتحةٍ على جميعِ الآفاقِ والمناهلِ الأدبية، يَستَقي منها كيفَ شاءَ ويصيغُ منها ما يريد.

وتُرجَمَ العديدَ من أعمالِ إيمانويل ميفسود إلى لغاتٍ أوربية عدة.

وفي هذه الرواية جوته هايم التي تدورُ أحداثُها ما بين مالطة وبرلين، نعيشُ مع بطلِها الممثلِ المسرحي الشهير ذاك الذي يعشقُ المستحيل، تتعدَّدُ علاقاتُه الغرامية لكنَّ قلبَه المعتَل يتعلقُ جوته هايم تلكَ التي منحتَه حبَّها وعشقَها ذات ليلةٍ ويغادر فراشَها، لكنَّ قلبَه المعتل لم يعِ ساعتَها أنَّه لن يغادرَ مع صاحبِه يتجولُ ما بين عشيقاتِه وأحضانِهن مثلما كان يفعل، ولم يدركْ بأنَّه لن يعود برفقتِه أبدا.

ما الذي ستكشفُ الأحداثُ من مجازفاتِه وقلقِه المتواصلِ وبحثِه الدؤوب عن الحُبِّ، وعن جوته هايم، فها هو يبحرُ في ذاكرته بحثًا عن طمأنينتِه، ينشدُ امرأةً عشقتْه لليلةٍ وعشقَها إلى النِّهاية، وظلَّ يبحثُ عنها وينشدُها طيلةَ ما تبقى من حياتِه.

جوته هايم التي تعيشُ في برلين، برلين التي أفلحَتْ في هدمِ سورِها والالتئام بنصفِها الآخر، هل ألهمَتْ بطلَ روايتِنا أن يهدِمَ ما يحولُ بينَه وبينَ حبيبته؟

هذا ما ستجيب عنه أحداثُ روايةِ "جوته هايم".

الحسين خضيري

الأقصر 17/ أكتوبر/ 2017.

•

شعبُ طيبة، ومواطنوها، يتطلّعون إلى هذا الأوديب الذي حلَّ لغزَ أبي الهول، الرجلِ الذي أضحى أقوى رجلٍ في العالم.

أيٌّ من الرجالِ شهد عظمتَه دونَ أن يغبِطَه؟ لكنَّ رعبَ البحرِ يغمرُه الآن.

وهكذا وأنت تنتظرُ يومَك النهائي، وتحسبُ أنّ ما من إنسانٍ سعيد- لا أحد، لا أحد- إلى أن يُغادر، في النهايةِ، حُرًّا من الألم.

تنتهي المسرحية. وتسودُ فترةُ صمتٍ قصيرة. ثمَّ تصفيقٌ حادٌّ يَصُمُّ الآذانَ بينما يَعِنُّ الملكُ ويسيرُ نحوَ المنتصف، يدًا بيدٍ مع جوكاستا، يقتربُ من أضواءِ المسرح، وقد تبلَّلَ وجهُه بالعرق، ولمَعَت عيناه وهو يَمُدُّ نظرةً كاسحة.

ثم تتركُ جوكاستا يدَه وتخطو خطوتين للوراءِ ويتكاثفُ التصفيقُ، ويَضحى أكثر صخبًا.

هناك، في المنتصف، تتألقُ الأضواءُ على حبّاتِ العَرَقِ المتَصَبِّبِ على وجهِه، الملكُ القوي الذي ألَمَّت به سقطةٌ، وهلةً قصيرة، شخصُه الملكيُّ تطلَّعَ نحو هؤلاء الذين من خَلفَه وأولئك الذين من أمامِه، ثم ينحني شاكِرًا ويَنصَرِفُ ثم يُقبِلُ، ثُمَّ ينصرفُ مرةً أُخرى.

يصحو باهتزازةٍ صغيرةٍ مفاجِئة، ثم يكتشفُ أنه تَرَكَ المصابيحَ مُضاءةً والسَّاعةُ الصغيرةُ فوق المنضدةِ المجاورةِ الفِراشَ، تدعوه لأن ينهضَ، وتُقلَّه سيارةٌ أُجرة إلى المطار.

ثمةَ رنينٌ مفاجئ من الهاتف البُنِّي بالقرب من رأسِه.

- إنَّها الخامسةُ صباحًا، سيدي.

من نافذتِه بوسعِه مُراقبة الرجل مُمسكًا المصابيحَ البرتقالية مُصطَحِبًا الطيَّار إلى حيث يجبُ أن تَحُطَّ الطائرة.

ثمةَ أُناسٌ قليلون يَشهدونَ هبوطَ الطائرة.

لقد استغرقوا وقتًا طويلاً حتى جاؤوا بالسلالِمِ المتَحَرِّكةِ إلى الطائرة.

في غضون ذلك كان إيريك شيري قد حلَّ حِزام مَقعدِه، والتقطَ حقيبةً صغيرةً من مقصورةِ فوقَ رأسِه، وطوى سِترتَه والتقطَ نَفَسًا عميقًا.

حطَّت الطائرةُ على الجزيرة.

ليس ثمةَ ما يمكن فعلُه، كلُّ بدايةٍ جديدة لابُدَّ لها من نهاية.

كان قليلٌ من السِّياح يُسائِلُ بعضُهم بعضًا أو يسائلون جيرانَهم، لِمَ استغرق البابُ طويلاً حتى يُفتحَ حتى يترجّلوا.

يجلسُ إيريك شيري وينظرُ عبر النافذةِ؛ ليرى إن كان بوسعِه رؤيتَهم ينتظرونَه في رواقِ الانتظار.

بوسعِه رؤية بعضِ النَّاسِ، لكنهم ليسوا هم.

إنه يرى الأعلام تخفقُ فجأةً، هي ليست قذرةً اليوم، ولا ألوانُها باهتة.

ثم يصلُ السُلَّم ويبدأ المسافرون في الاصطفاف.

وعند بابِ الطائرة، في ترحابٍ، لفحَه نسيمٌ دافئ.

بدأ المسافرون خَلعَ سَتراتِهم وهم يمشون نحو شُبَّاك الوصول.

أقبل ضبَّاطٌ مع كلابٍ بوليسية تقفُ على أرجلِها الخلفية، وقد تَدَلَّت ألسنتُها.

لونُ جوازِ السَّفر في لونِ الحشائشِ في فولكسبارك في برلين.

ختم الجوازات يُحدث ضجةً وهو يهوي إلى صفحةٍ عشوائيةٍ لتحديد الوصول 30 مارس 1980.

– إذن كم من النقودِ قد أنفقت؟

ماذا لنخبرَ ضابط الجمرك ذا النظرةِ القاسيةِ والشاربِ الرفيعِ للغاية؟

– ماذا هنالك للبيع؟ لا شيء.

– ما الذي اشتريتَه؟

– لا شيء.

– لا شيء؟

– لا شيء على الإطلاق.

– تذكارات؟

– أتمزح؟ تذكارات!

إلى جوارِه رجلٌ أصلعُ يشعرُ بالحَرِّ تحت ياقةِ قميصِه بينما الضابطُ الآخر يقومُ بتفتيش حقيبتِه وقد راحت قوالبُ الشيكولاته تتساقطُ من أكمامِ الملابسِ المطويةِ داخلَ الحقيبة.

– ألم تشترِ أيَّ شيكولاته؟

– لِمَ أقوم بشرائها؟

– ألا تحبُّها؟

– ماذا؟

– وماذا عن التذكارات؟

– لا شيء، قلتُ لك بالفعل، ألم أفعل؟

– افتح إذن، دعنا نُلقِ نظرة.

يرفعُ حقيبتَه الملأى بالملابسِ القذرةِ وبينما هو يفتحُها يلمحُ الضابطَ على الجانبِ الآخر يأمرُ سيدةً طويلةَ القامةِ بإزالةِ ملابسِها الداخليةِ المتسخةِ من على سطحِ حقيبتها ليمكِنَه رؤيةَ ما تحتَها.

– أتذكارٌ هذا؟

– إنه دبٌّ دمية لابنتي، ليس تذكارًا.

– دبٌّ دمية؟

– دبٌّ دمية لابنتي كي تلهوَ به.

– إذن فقد اشتريتَ شيئًا.

– اشتريتُ دبًّا دميةً لابنتي.

– هل اشتريتَ شيئًا لزوجتِك؟

– ابتعتُ لها كتابًا.

– كتابًا؟ السيدة تُحِبُّ القراءةَ إذن؟

– هل تريدُ أن تُلقيَ نظرة؟

– كريستا وولف، أنماط الطفولة.

– أهي ألمانية؟

– مَن، كريستا وولف؟

– زوجتُك.

سُمِعَ الرجلُ الأصلعُ يصيحُ. وشُوهِدَ زوجُ السَّيدةِ يُمرِّرُ ورقةً من فئة الخمسةِ جنيهات بينما يخبرُها الضابطُ أن تُغلقَ حقيبتَها.

راحَت زوجةُ الرجلِ الأصلعِ تنقِّبُ في حقيبةِ يدِها وتُخرِجُ كيسَ نقودِها.

مَرحبًا في مالطا.

ينظرُ شيري إلى الضابطِ الذي أمامَه ويتذكّرُ الرجلَ ذا البزَّةِ الرمادية.

انتصَبَ الرجلُ ذو البزَّة الرمادية طويلَ القامةِ للغايةِ مستقيمًا.

راحَ ينظرُ إلى السَّائح الذي جلسَ إلى جوارِه على مَتنِ الطائرة.وقد عَبَرَه ناظرًا نحو طريقِه وهو يَحملُ حقيبةً صغيرةً ويُلوِّحُ له.

سألَته على مَتنِ الطائرة أين يُمكنُها الذهابَ لقضاءِ إجازتِها الأسبوعية، لاسيما في الأمسية.

لم يَعْتَدْ شيري النظرَ على أيّ حال، لقد كان عقلُه مشغولاً بالرجلِ ذي البزَّة الرَّمادية الذي تفحَّصَه في مقهى موكابا.

سألته إن كان قد عاش في فاليتا، وماذا فعل في حياتِه، وعمّا إن كان قد تَزَوَّجَ، وهلْ له أطفال.

ثُمَّ لاذَت بالصَّمتِ حين رأته أخرجَ مجموعةَ إبسن المسرحية وراحَ يقرأ.

الرجلُ ذو البزَّة الرَّمادية جلسَ في الصَّباحِ إلى نَفْسِ المِنضَدَةِ التي جَلَسَ إليها أوَّل البارحة، في اليومِ الذي التقى فيه جوته هايم أوَّل مَرَّة.

احتسى الرجلُ ذو البزَّة الرَّماديةِ فنجاناً من القهوةِ أمامه وتناولَ ساندوتشًا أو فطيرةً أو شَيئًا ما.

لقد وَصَلَ بعده بفترةٍ قصيرة، وجَلَسَ على بُعد منضدتين، وَضَعَ مشروبَه وصوَّبَ ناظريه نحوَه.

لم يلحظْه في بدايةِ الأمر؛ لأنَّه أرادَ أن يرى أين كانَت جوته هايم، وحينَ رآها أخيرًا، ابتسمَ لكنَّها في التَّوِّ، نَظَرَت نحو البعيد.

لم يَعِ.

منذ سُويعاتٍ قليلة، كانا معًا في الفِراش، في الشَّقةِ ذات الحُجرَتين بالطابقِ الثامنِ من البنايَة الرَّمادية في مارزان، برلين الشرقية.

منذ سويعاتٍ قليلةٍ كان يتملَّى بالنظرِ إلى شَعرِها الطويلِ الناعِمِ الأشقر.

– حسنًا إذن؟

يُغلِقُ إبريك شيري حقيبتَه.

– لا تنسَ دميتَك الدُبّ.

وبينما هو يَخرُجُ من نُقطةِ الجَمارِكِ كان الرجلُ الأصلعُ لا يزالُ يَمشي على طِنٍ من الشيكولاته، لاعِنًا الحكومةَ بينما ضابطُ الجمركِ وشُرطيٌّ يراقبانِه ببرودٍ ووجهُ زوجتِه تغمرُه الدموع، ويَدُها ترتعشُ، وكيسُ نقودِها مَفتوح.

نَظَرَ إلى الجندي الذي يصطَحبُ كلبًا، ولسانُ الكلبِ مُتدليًا لا يزال.

ثمَّ نَظَرَ نَحْو البابِ الذي سيخرجُ منه في النهاية.

ثم نَظَرَ نَحو ابنتِه، وهي تَعدو نَحْوَه، بوجهِها المُشرقِ، صائحةً مُبتهِجَة.

•

ينظر وهو جالسٌ على مقهى موكابا إلى الخارجِ، ويُلقي نظرةً على الساحة الخاوية.

إنّه مارس، لكنَّ الطَّقس لا يزال شَتَويًّا.

رجالُ البوليس يروحون جيئةً وذهابًا في أزيائهم الخضراء، يتوقّفون عند نافورةِ ماءٍ لا طعمَ لها حيث شخصان يقرآن شيئًا ما، يُحدِّقان عبر المسافة وينفخان دُخانَ سجائرِهما سيجارةً تلو سيجارة.

أحيانًا ما كانت تخرجُ بَعضُ النسوةِ من مستودعٍ مركزي ويعبرنَ حاملاتٍ حقائبَ فارغةً وقد قام أصحابُ الزيّ الأخضر بتفحّصهنّ عن قربٍ إلى أن يفقدوا اهتمامَهم بهنّ وتمضي النسوةُ في طريقهنّ، ميدان ألكساندر.

يُخرجُ إيريك شيري حافظةَ نقودِه؛ ليتفحّصَ نقودَه، ويُدركُ أن بوسعِه شراءَ أكثرَ ممّا في قائمةِ المعروضاتِ من الأطعمة.

تدنو امرأةٌ شابّةٌ ذاتُ شَعرٍ أشقرَ وتسألُه عمّا يُريد.

– عصيرَ برتقال وكوبًا من الماء.

تشبه عيناها تمثالَين مهجورَين في باحةٍ مفتوحة، لهما ذاتُ النظرةِ التي رآها في المترو قبل أن يرتفعَ إلى السَّطحِ ويجدَ نفسَه في الميدان، حين حيَّاه بردٌ لطيفٌ وامتدادُ السَّماء الرمادي.

أبصر، عِندَ نُقطةِ تفتيش تشارلي الحدودية، النظرةَ ذاتَها في عيون الجنودِ الذين تَفَحَّصوا جوازَ سفرِه وهناك كانَت السماءُ رَماديةً أيضًا، وكان الصمت استثنائيًا.

– متى تَفرُغينَ من عَمَلِك؟

واصلَت العيونُ النظرَ قُدُمًا فابتسمَ لها.

– بوسعي اصطحابُك للبيتِ إذا أردتِ.

– مَنْ قال إني أعيشُ بمفردي؟

– لو لم تَكوني، فبوسعِك المجيءُ إلى فندقي. إنَّه الفُندقُ الذي هناك، خطواتٌ قليلة فَحَسب. لكنّي أعتقد بأن مكانك سيكونُ أفضل، سيشهدُنا هناك عددٌ من الناس أقلّ، لا؟

– السابعة.

– سأخرج إلى هنا في السابعة.

إنّه لا يُحبُهم، ضبّاط البوليس، والرجالُ الذين يرتدون الأزياءَ الرسميَّة. بينما هو يراقبُ الرَّجلَ الأصلعَ يحتجُّ ويمشي مشيةً مدويةً على قوالب الشيكولاته، يمدُّ نظرةً نحو الجندي الواقفِ في المدْخَلِ الذي يقودُ إلى الصَّالة الخارجيةِ مُسلَّحًا ببندقيةٍ ويَعَضُّ على شفتِه السُّفلى. بينما هو يبدو في الصَّالة يرى ميلدريد تتقافزُ وتحاول ألكساندرا إسكاتَها.

بهجةُ الطفلة، ووجهُها المبتسم.

– لقد استغرقوا منك وقتًا.

– استغرقَ الأمرُ منهم زَمَنًا كي يُحضِروا السُلَّمَ لنَهبِطَ من الطَّائرة.

– ثمّ؟

– ثمَّ كان هناك طابورٌ طويل لأنَّ رجلاً واحدًا كان يقومُ بختمِ جوازاتِ السفر.

– واستغرقَت الحقائبُ وقتًا طويلاً أيضًا، أليس كذلك؟

– حسنًا، نعم، استغرقت الحقائبُ وقتًا.

– هل فتَّشوا حقائبَك؟

– بالطبع!

كانت ميلدريد تلهو بدبِّها الدمية. وألكساندرا تنظر نحوَه وتبتسم.

يقوم إيريك بإعداد القهوة ويتذكرُ ثانيةً نظرةَ الرجلِ ذي البزَّة الرماديَّة واللونِ البنّي الداكن، وتمنحُ القهوة خيطًا سميكًا من بخار ورائحةً مبهجةً للغاية.

درس الرجلُ ذو البزَّة الرمادية وهو جالسٌ على مسافةِ منضدتين من أمامِه، وفنجانه إلى جوار طَبَقِه، كُلَّ حَرَكَةٍ صدرَت. وما إن بدت المرأة الشَّابة ذاتُ الشعر الأشقر، التي تقطنُ في شَقَّةٍ صغيرةٍ في الطابق الثامن في شارع مارزان،

التي كانت محافظةً للغاية، حتى تحرَّكَ الرجل ذو البزَّة الرَّمادية بخفّةٍ متناهيةٍ في مقعدِه.

حتى إيريك شيري يتحركُ، بثقة أكثر نوعًا ما.

لكنَّ عيونَ الفتاةِ لم تَرمِش، لقد استقرَّت على الأرضية.

كان هناك كثيرٌ من الانفعالِ في تلك العيون، بالكاد منذ ساعاتٍ قليلة.

حتى عندما كانت نصفَ مغلقةٍ إثرَ البهجة، أشرقَت حماسةً وحفَّزَت إيريك حتى يواصلَ ويمضيَ أبعد.

وقد أصغى لأنفاسِها العميقةِ وتأوّهاتِها، وتخيَّلها مبتسمةً وعابسةً في الآن ذاتِه.

في تلك الشَّقة ذات الحجرتين، أعاد إيريك شيري اكتشافَ الحُبِّ وفَقَدَ كُلَّ إحساسَه بالزمن والمدَّة، وفَقَدَ حتى شعوره بالمكانِ لحظاتٍ عِدَّة، ولأنَّه كان منفعلاً نسيَ أنه كان في أرضٍ أجنبية.

ممارسةُ الحبّ في بلدٍ أجنبيٍ مختلفةٌ عن ممارسةِ الحُبِّ في الوطن، حيث إن الصمتَ يُشعِرُ بالاختلاف، أو رائحةِ البطاطين.

حتى بدت الظُّلمَةُ مختلفةً. لقد أرادَت أن تُطفِئَ الأضواءَ قبل أن يتمكَّنَ من أن يدنوَ منها، وما إن فعلت، بدلاً من الانزعاجِ المعتادِ كونَه انغمسَ في الظُّلمة، شَعَرَ بالفضولِ مثلما الأطفال الذين يتساءلونَ ماذا تحوي الطرودُ الملفوفةُ التي في أياديهم.

حتى المذاق، كان مختلفًا، مختلفًا عن مذاق ألكساندرا، ومذاق ليزا، ومذاقِ الشيكولاته التي استمتعَ بمذاقِها ثانيةً، وعن مذاقِ القهوة.

كُلُّ شيء كان مُختلفًا، كلُّ شيءٍ كان أفضل.

– أتعتقدين أننا سنلتقي ثانيةً؟

– عليَّ الذهاب إلى العملِ مُبَكرًا صباحَ الغد.

– مبكرًا متى؟

– عليَّ اللحاق بالباص في السادسة. امكث هنا الآن. الوقتُ متأخرٌ ولن تدركَ طريقَ العودةِ بمفردِك، لكن عليك الاستيقاظ مبكّرًا للغاية غدًا صباحًا. دعني أنهض وأُعِدّ بعض القهوة، هل لي ذلك؟

– انتظري، دعيني أُعِدّها. كيف تُحبينها؟

وبينما هو يخرجُ من تَحتِ البطاطينِ انتابته قشعريرةٌ.

التقطَ علبةَ قهوةٍ نصفَ فارغةٍ، ووضعَ الغلايَة، وانتظرَ، استدارَ بعيدًا عن المرأةِ الشقراءِ الشَّابة التي اصطدمَت عيناها بِظهرِه.

– إنه مكانٌ حزين، أليس كذلك؟

– هل تشعرين بالحزن؟

– إنني أتحدّثُ عنك، لا عني.

– لقد التقيتُك، لذا فليس بوسعي أن أشكوَ.

– هل تستمتع بهذا؟

– نعم، بالطبع، وأنتِ؟

– هل لديك بيتٌ جميل؟

– ليس أجمل ما رأيت، لكنه ليس أقبحها أيضًا. كان بيتُ أُمّي أسوأ كثيرًا. لقد كان قبيحًا بالفعل.

– هل تعجبُك الإقامةُ هنا؟

– كان بوسعنا الذهاب إلى فندقي، لكنّني تصوّرتُ أنّك ما أحببتِ ذلك. خشيةَ العيون المتَلَصِّصَةِ ربّما؟

– لا، لم أُرد ذلك.

– لا أعتقد بأنك تنهضين وتغادرين، أليس كذلك؟

– أُغادر؟ أتريدني أن أُقتل؟

– أهكذا يفعلون حقًّا؟

– بالطبع، منذ عامين، شخصٌ ما عرفته.

– أراد الذهاب إلى الجانب الآخر؟

– ليس لي أن أتحدّث في هذه الأشياء.

– من كان؟

– لا يهمّ.

– هل عرفته جيدًّا؟

– أرجوك.

– ماذا عن هذا المكان الذي يثير كآبتَك؟

– أشياء عدة.

– مثل ماذا؟

– أشياء عدة. ثمة عالمٌ آخر فيما وراء الحائط. هل رأيتَ الحائط؟

– رأيته، لقد أتيتُ من الجانب الآخر، ألم أفعل؟

– إذن فبوسعك معرفة لماذا هو مكان حزين. لا حاجةَ بي لأن أُخبرَك.

ما من أحدٍ تُطلق عليه النار في الجانِبِ الآخَرِ، لأنه ما من أحد يُريدُ المجيءَ إلى هنا. وأنت مغادرٌ بعد غد.

– بوسعي العودَةُ إذا ما أردتِ.

– تعودُ إلى هنا؟

– إلى مكانِك، إن أردتِ.

– هل تبقَّى بعضُ السكر؟

– هل تنتظرينني؟

– إذا لم يتبقَ فثمَّ حقيبةٌ صغيرة من الحلوى المغلية، ألقِ واحدةً في كل فنجان فحسب. ولا تمكُثْ طويلاً وإلا أصابَكَ برد.

وجد زوجًا من الحلوى وألقى واحدةً في كلّ فنجان.

– أخبريني، هل لديك أُسرة؟

– هناك شقيقتي، في الخامسة عشرة، وأُمي. طُلِّقت أُمي من أبي بعد ولادة أُختي، ولم تتغلبْ أُمي على حزنِها. إن عقلَها لا يعملُ على نحوٍ ملائم. إنهم يعيشون خارج برلين، على مسافة ساعتين بالسَّيارة. لا أدري أين يعيشُ أبي، رأيته مصادفةً منذ ما يقاربُ عامًا، أو ربَّما لم يكن هو، كان شخصًا يشبِهُه. إنني أزورُهم مرةً كلَّ ثلاثةِ أسابيع. وأنت؟

– ماذا عني؟

– أنت متزوج، أظنّ ذلك، لديك أطفال؟

– ابنة.

– ما اسمُها؟

– ميلدريد، إنها في السادسة من عمرها.

– ألم يأتوا معك؟

– لا، لقد جئتُ بمفردي.

– ألا تُحِبُّهم؟

وفي الصَّمتِ الذي شَعروا به، سَمعوا صِياحًا قادِمًا من الشَّارِعِ أوَّل مَرَّةٍ، ربَّما كان رَجُلاً مُملاً للغاية.

وأمكن بعضهما سماعَ بعضٍ يفكّران فيما سيُقدِمان عليه.

لا يفكّرُ إيريك شيري في الحُبِّ، لاسيما مؤخَّرًا.

تعلَّمَ في عَمَلِه أن يتوقفَ عند اللَّحظةِ ويعيشَها قَدرَ استطاعتِه.

مثلما الموسِم المسرحي تتغيّر الأشياء: يُقام المشهدُ ثم يَتِمُّ تفكيكُه مَرَّةً أُخرى لتحضيرِ المشهَدِ للعرضِ القادم: يَرتَفِعُ ستارٌ ويَنسَدِلُ آخر، يَنْسَدِلُ ليرتفعَ ثانيةً ويوحَ بمشهدٍ جديد.

جميلة وسهلة.

أضحت الأشياءُ أكثر يُسرًا.

حتى غزوته لهذه الشَّقة، هذا الجُحر الأسمنتيّ، ذو المطبخِ البرتقالي من الألمونيوم وأريكة فِراش تُفتحُ وتُطوى حَسبِ الحاجة، الأمرُ الذي كان سَهلاً للغاية أيضًا.

السابعة، سأخرجُ من هنا في السابعة. بعد الثامنةِ بقليل، كانوا هنا. بعد التاسعة بقليل كانا في الفراش.

– أخبرني عن بلدِك. لابُدَّ أنَّها جميلة، أليس كذلك؟ البحرُ، الشَّمسُ، جميلةٌ هي الشمس.

– جميلةٌ مثلُك هي الشَّمس.

تَبتَسِمُ جوته، وتُقَبِّله وتمدُّ ذراعًا باحِثةً عن عُلبَة سجائِرِها.

يُضيءُ عودُ الثِّقابِ وجهَها ويراها في الظُّلمَة تَزفرُ الدُّخان، بينما راحَ يلاطفُ كتفَها البدينةَ العارية.

– نحتاج لأن نستيقظَ مبكرين غدًا.

– سأعود، ربَّما في أكتوبر تقريبًا، ما رأيُك؟

– ما من أحدٍ يعودُ إلى هنا.

– سأعودُ كي أراكِ.

– في أكتوبر؟

– سأُحاولُ في أكتوبر، بلى.

– بعيدٌ للغاية هو أكتوبر، إنَّه في الشِّتاء ثانيةً.

– خريف.

– إنه شهرٌ جَدُّ غريب، أكتوبر. قد يكون الخريفُ لطيفًا، لأوراقِ الأشجار ألوانٌ جميلة.

– جميلة مثلك.

– بعد العَمَلِ سأذهبُ لشراءِ بعضِ الأشياء، حَسبَ احتياجاتي، وحين أكونُ في عُطلتي الأحد أذهب للتريُّضِ في الحديقةِ وأحيانًا ما أجلسُ على أريكةٍ وأقرأ.

– تقرئين؟

– أقرأ أو أُفكِّر. أحيانًا ما أُغنّي لنفسي.

– حين أعودُ في أكتوبر يُمكننا الذهاب إلى هناك. سنجدُ الأريكة التي اعتدتِ الجلوسَ عليها للغناء. سنجلسُ على أريكَتِك.

– ليست لديّ أريكة. إنني أجلسُ حيثما اتفق. وأحيانًا لا أستطيع ذلك لأن الطقسَ يُوغِلُ في البرودة.

– أكتوبر. أظنك ستكونين أكثرَ جمالاً في أكتوبر أيضًا.

– أين وَضَعنا مِنفضةَ السجائر؟

جميلٌ وعاديٌ كُلُّ ذلك. الأسلوبُ الذي نعست به وقتًا قصيرًا بعد أن أطفأت سيجارتَها، رأسُها إليه، الأسلوبُ الذي واصَلَ به التحديقَ في الظُّلمَةِ التي تُحيطُ به، الأسلوبُ الذي استدارَت به للجانِبِ الآخَر، وكانت بالفعل مُستغرقةً في نومٍ عميق، الأسلوبُ الذي نامَ به إلى أن دقَّ جَرسُ المنبّه في الخامسةِ صباحًا وفَتَحَ عينيه ليجدَها قد ارتدَت ملابسَها بالفعل.

تَمطّى وعيناه مغمضتان وراحَ يَنهَضُ ليغسلَ وجهَه لدى الحوضِ الذي في الرُّكن.

الماءُ الذي يَتَجَمَّدُ برودةً جعلَه يَفيقُ مُرتعدًا وما إن نظرَ إلى البعيدِ حتى رأى ملابِسَه على أحد المقعدين إلى المنضدةِ، حيث فنجانٌ من القهوةِ وقِطعَةُ شِيكولاته في انتظارِه.

أخبرَته أن يُسرِعَ بينما هي تقومُ بتحريك البطاطين وطَيّ الأريكةِ الفِراش.

لم يَتبادَلا كلمةً في الباص. لم يبُحْ أحدُ الوجهين اللذَين كانا ينظران إلى الأسفل بكلمة.

حيَّاهم المترو برائحةِ الوقودِ الدافئِ المحتَرِق.

– ماذا ستَفْعَل؟

– سآتي إلى المقهى مَعَك.

– لا، إننا لم نفتحْ للزبائنِ بعد.

– سيظنّون أنّي لم أكنْ هنا الليلةَ الفائتة.

– لقد ظنّوا ذلك منذ وقتٍ طويلٍ مضى، لا تَقْلَقْ. هل تعرفُ كيف تَصِلُ إلى فُندُقِك؟

– نَعَم، إنه عَبْرَ الميدان، أليسَ كذلك؟ سأعودُ لاحقاً، ربَّما حوالي العاشرة. هل ستمكثينَ إلى السّابعة اليومَ أيضًا؟

– لا تأتِ في العاشِرَة. ليس من أحدٍ حينئذ.

– سآتي متأخّرًا قليلاً.

– كان اسمه ديتمار.

– ديتمار؟

– ديتمار شوايتزر. من عامين.

– حقًّا، ولكن هل عرفتِه؟

– انس ذلك، انس ذلك، إنني سأتأخر.

نام في غرفته في الفندق، واستيقظَ ليدركَ أنه كان في الخارجِ فترة. حوالي الثالثة بعد الظهر يذهب إلى هناك وبعد فترة كان رجلٌ يمشي في سترةٍ رَماديةٍ، وحين أتت له بمشروبِه لم تتحدثْ إليه ولم تنظرْ نحوه.

•

– ماذا سَنُسمّي الدُبَّ الدميةَ يا بابا؟

– همم، دعينا نفكّر..هل تدعينه إيريك؟

– مثلك؟ لا.

– أو ربما أونيكر.

– لا.

– كارل إذن؟

– كارل؟

– نعم، ادعه كارل. أو ألكسندر. ادعه ألكسندر.

– ألكسندر سيجعله يشبه ماما. وهو اسمٌ طويل للغاية.

– كارل إذن.

– كارل، نعم.

خمس دقائق أُخرى وانطفأت الأنوار.

– ها قد انطفأت ثانيةً.

– هل لدينا أيَّ شُموع، يا ألكسندرا؟

– لا أعتقد، كان هناك انقطاعٌ آخَرُ للكهرباءِ بالأمس، لقد استهلكتهم جميعًا.

– أحسنت.

– ماذا توقّعتَ أن أفعل؟

– ألا تعلمين أن هناك انقطاعًا كلَّ يومين؟

– لم يكن لدينا إمداداتٌ حتى من الماءِ بالأمس.

راحت ألكسندرا تَستَفِزُّه حيث إنَّه أحضرها إلى هذه الشريحةِ الصَّخريَّة حيثُ يقومُ الهاتف بالاتصال بأُناس لم تَطلب أرقامَهم، حيث إمداداتُ الكهرباء والماءُ تنضبُ كُلَّ يومين، حيث لا مكتبةَ مناسبة هناك، حيث يُقسِمُ سائقو الحافلةِ لك ويُغالونَ في أسعارِهم لأنَّك لا تتحدثُ لغتَهم، حيث تُلقى القمامَةُ في الخلاءِ بدلاً من أن تذهبَ إلى حيثُ يَجِبُ أن تَذْهَب.

بدأَت ألكسندرا تكون مُحَقَّةً.

قضيا الوقتَ يُحَدِّقانِ في الظُّلمَةِ الفارغةِ التي تُحيطُ بهم.

– كيف حالُ برلين الشرقية؟

– قبيحة، مع بعضِ بقايا الجَمالِ السَّابق. هي رَمادية عامَّةً. هادِئَةٌ. ليسَت صامِتَةً تَمامًا.

– اجتماعية، بمعنًى آخرَ.

– حقًّا.

– مُظلمة؟

– مُظلمةٌ في الأَمسية. في الأصباح.. حَسنًا الطَّقسُ لم يَكُن جَيِّدًا، لذا كانت مُظلمةً.

– هل يعانون انقطاعَ الكهرباء هناك؟

– لستُ أدري. لم يحدث انقطاعٌ وأنا هناك، على أيَّ حال.

– ليست مثلَ هنا. لتعثرْ لي على سجائري، يا إيريك.

يتوهَّجُ الكبريتُ قبالةَ وجهِها ويَسمعُها تنفثُ الدُّخانَ خَارجًا.

يَمتَدُّ أمامَه فراغُ ميدان ألكسندر[1]، كما لو أنَّه جاءَ به مَعَه إلى وطنِه.

---

1 ميدانٌ عامٌّ كبيرٌ في برلين (المترجم).

الصمتُ الذي هَبَطَ معَ الظُّلمةِ كالصمتِ الذي يَحجِبُ الحائِطَ الذي عَبَرَه في رحلتِه عَبْرَ الشَّوارعِ الرَمادية، حين عَبَرَ واستدارَ في أيِّ طريق، وقتَما كان لديه الحافز.

ألكساندرا في مكانٍ ما بجانبِه لكنَّ وجهَها يكادُ يُرى في أثناءَ تلك اللحظاتِ حين تَدفَعُ سيجارتَها بين شفتَيها وتَتَوهَّجُ الجمرةُ وهلَةً.

لو أنَّ الكهرباءَ تأتي قبل أن ينام، فسيكتبُ لجوته.

ما إن غادرا شَقَّتَها، حتى دوَّن رقمَها واسمَ الشَّارعِ.

سيكتبُ لها ليقولَ بأنَّه ليسَ يعي لِمَ لَمْ تُدوِّنْ معلوماتٍ عنه وبدلاً من أن تمشي نحوَه في السَّابعة، وتَعرِفُ أنَّه ينتظرُها خارجَ المقهى، هرولت بِكُلِّ ما أُوتيت من قوةٍ مع صديقةٍ نحو مَدخلِ المترو واختفت بين السِّتراتِ والمِظَلاتِ المغلَقَة.

جوته هايم.

– إنني ذاهبٌ لأنام.

– سأستيقظُ سريعًا. ربما تأتي الكهرباء وسأنجح في فعل شيء.

– لا تسهرْ كثيرًا إذا ما أردتَ الاستيقاظَ غدًا مُبكّرًا. أنتَ تعمل، أليس كذلك؟

– إنها عُطلة عامّةٌ غدًا.

تتلَمَّسُ ألكساندرا طريقَها إلى الفِراش وتَمكثُ إيريك من خَلفِها يُحدِّقُ في الظُّلمَة التي تُشعره بضخامتِها والضِّيق.

يدٌ على سَطحِ المنضدة، وأُخرى تَتلَمَّسُ ورقةً صغيرةً في جَيبِه عليها عنوانُ جوته هايم، على عجلٍ دوَّنه عليها.

مُتَرَقِّبًا عودةَ الكهرباء، حتى يذهبَ ويَكتُبَ إليها.

عزيزتي جوته: لستُ أدري ماذا حدث لكِ. أردتُ قضاءَ ليلتي السابقة معكِ في برلين. أترى نسيتِ؟ لقد نسيتِ كُلَّ شيء عني بسرعة.

اعتقدَت بأننا سنلتقي ثانيةً. أردتُ رؤيَتَك. سآتي لرؤيتِك في أكتوبر.

ربما أمكنَك أخذَ إجازةٍ عدة أيّام حتى نَقضيَ مَعًا أطولَ وقتٍ مُمكن.

ما رأيُك؟ ظننتُ أن بوسعِنا النزولَ إلى روستوك لرؤيةِ البَحْر. أو المشي في الغابات. فاتنةٌ ستكون أوراقُ الأشجارِ في أكتوبر. مازلتُ أتذكّر الليلةَ التي قضيناها مَعًا. ثمة أشياءُ عِدَّة ودِدتُ ذكرها لكِ لكن لم يكنْ لدينا مُتَّسَعٌ من الوقت.

أترى لديكِ فكرةٌ كم يُضجِرُني هذا حين يَحدُثُ، حين يتحتّم عليَّ الذهابُ في عَجلةٍ؟ وإنني انتظرتُك لكنَّكِ غادرتِ مُندفعةً ولم أستطعِ اللحاقَ بك، ثم افتقدتُك في المترو.

عُدتُ إلى الفندق وحاولت إيجادَ وسيلةً للاتصال بك، لكن لم أعرفْ من أينَ أبدأ البحثَ عن رَقْمِ هاتفِك.

طلبتُ دليلَ الهاتفِ لكنَّهم في الفُندُقِ قالوا إنَّ ذلك غيرُ ممكن.

لا أدري لماذا، لكن هذا ما قالوه لي. لذا فقدتُك.

جوته، لقد وقعتُ في حُبِّك، أعلمُ أنَّه لا ينبغي لي أن أقولَ ذلك، لكنَّ هذا ما حَدَث. مذ رأيتُكِ تختفين في مَيدان ألكسندر لم أستطعِ التَّوقُّفَ عن التفكيرِ فيكِ.

سنلتقي ثانيةً في أكتوبر.

قلتِ إنَّ أكتوبر بعيدٌ للغاية. هذا حقّ، لكنَّه أخيرًا سيُقبِل. في غضونِ ذلك سأواصلُ الكتابةَ إليكِ. دوِّني عنواني. أكتبي إليَّ. جوته، أُحِبُّك. إيريك.

أبريل.

مايو.

يونيو.

يوليو.

أغسطس.

سبتمبر.

نوفمبر.

هوى على الأريكةِ إيريك، وراحَ يَتَصَفَّحُ القنواتِ التليفزيونية بحثًا عن نشرةِ أخبارٍ جديدة.

ثمةَ مِذياعٌ ومفكِّرةٌ صغيرةٌ إلى جانبِه، يُدوِّنُ فيها بَعْضَ الملاحظات.

وكوبان زجاجيان نصفُ ممتلئين، أسفل أنفه، سِيجارَةٌ تَحْتَرِقُ بَعيدًا في مِنفضَةِ السجائِرِ التي تَفيضُ بالرَّماد وأعقابِ السجائِر.

– بابا، لقد فرغت.

– الآن؟

– نعم، ذاهبةٌ إلى العمل. لماذا؟ هل ستأخذني بالسيارة؟

– ليس اليوم يا ميلدريد.

– ليس بوسعِك الابتعاد عن التلفاز.

– نعم، ليس بوسعي الابتعادُ عن التلفازِ اليوم. كيف مضى يومُ أمس؟

– أين؟

– في المطعَم. ألم تكوني هناك بالأمس، أيضًا؟ هل مَنَحوكِ نوباتِ عملِ اليوم؟

– كثيرٌ جدًّا. تَعلَمُ أنَّ أُمي لم تكُن سعيدةً بشأنِ عَملي هناك؟

– لِمَ أخبرتِها؟

– أوه، كيف لي أن أعرِف؟ هناك مَطعم ماكدونالدز ليسَ بَعيدًا عن مَسكَنِها، واقترحت الدخولَ ولن تُصَدِّقَ أنتَ التعبيرَ الذي اعتلى وجهَها. ثم أخبرتُها أنني أعملُ في مَطعم، وكان التعبيرُ الذي اعتلى وجهها أسوأ.

– هل تحدثتما عنّي؟

– بماذا تنصحُ؟ لقد سألتِني إذا ما كان لديك صديقة.

– وبماذا أخبرتِها؟

– قلتُ إنّ والدي دائمًا ما يكونُ مشغولاً.

– ميل، إذا ما أردتِ الذهابَ فافعلي؛ لأنني لن آخذَكِ معي.

– كم لطيف منك هذا. اسمع، سأخرجُ لاحقًا.

– هل أُعدُّ لك شيئًا تأكلينَه؟

– لا، وربما أبيتُ لدى صديقتي.

– كما تحبّين.

– أبي، هذا ليس صحيحًا، أنَّ أُمي سألتني عمَّا إذا كان لديكَ صديقة، كنتُ أجترُّ مِنكَ اعترافًا. لكننا بالفعلِ تحدَّثنا عنك بينما كانَت تقودُ بنا إلى المطار.

– ماذا؟ أسبوعٌ كاملٌ وسألَت عنّي في آخِر لحظة؟

– أبي، أُمي لا تُحِبُّك، تَعلمُ أنَّها لا تُحِبُّك. كما أنَّها لم تَعُدْ بمفردِها.

– أعرف هذا.

– لِمَ تَظَلُّ وحيدًا يا أبي؟

– ميلدريد، أهذا هو الوقتُ المناسبُ لمِثلِ هذا النِّقاش؟

– لا، حسنٌ، إنّني ذاهبة، لا تنسَ أنّني لن أعودَ بعد العمل.

– ربَّما لا تفعلين.

– لا، مِنَ المؤكَّدِ أنّني لن أفعلَ لأنّني قرّرتُ أن أمكثَ لدى صديقتي.

– لكن لديكِ دراسة غدًا، أليس كذلك؟

– سأذهب إلى هناك مباشرةً. سأعود في المساء.

برقةٍ توصد البابَ ابنتُه. الصور في التلفاز لا تُصدَّق. ثمَّ أُناسٌ أمامَ حائِطٍ رآه منذ سنواتٍ مَضَت ويقومون بتفكيكه.

هناك أُناسٌ يتعلّقون به، يتسلقونَه ليعتلوه.

هناك حشدٌ كبيرٌ أمامَ بوابةِ براندبرج ذوو وجوهٍ مُشرِقة لأُناسٍ يبتسمونَ ويتعانقون ويحتسون الشمبانيا.

كان ذلك حينما يتذكرُ جوته هايم، ذاتَ الشَّعرِ الأشقرِ المرأة التي كان يجب أن يعودَ لزيارتِها في أكتوبر منذ تسعِ سنوات، لكن هذا الأكتوبر لم يأتِ قطّ.

وفي خلالِ شهرٍ كتب لها ستةَ خطابات.

انتظر شهرًا، ستةَ أسابيع، حتى، لكن جوته هايم لم تَرُدّ قطّ.

خطاباتُه لم تَعُدْ، أيضًا.

تفرَّسَ في كُلِّ الوجوه التي تريثت عليها الكاميرا؛ ليرى إذا ما كان سيرى الفتاةَ التي مارَسَ الحبَّ معها على الأريكةِ الفِراشِ في شَقَّةٍ في الطابقِ الثامنِ في البناية الرَّمادية في مارزان، برلين الشرقية.

تخيَّل لو أنَّه كان مثل يوري زيفاجو في الترام وأمكنَه رؤيةَ لارا تَعبُرُ الشارعَ، جميلةً، وشعرُها الأشقرُ مشدود إلى الوراء؟

وماذا لو أنَّه رآها في التلفاز؟ أكان سيُصابُ بأزمةٍ قلبيةٍ إثرَ الفرحةِ العارمة؟ على كُلٍ، فإنَّ قصَّة جوته هايم تَتَكَرَّرُ عِدَّةَ مَرَّات، في أقطارٍ أُخرى حيثُ لا أنظمةٌ سياسية ولا رجال بأزياء رمادية يجلسون على مسافةٍ منضدتين لتستقرَّ عيونُهم عليك، لماذا فشلَ هذا الأكتوبر في الوصول؟ ربما لأنَّه قبل أن يأتي أكتوبر، رأى ألكساندرا تَحزمُ حقائبَها وتُغادِرُ وتُركَ مع ابنةٍ وعِدَّةِ قِصَصٍ دامت طيلَة أيام.

حينئذٍ رأى القوّاتِ الخاصّة ترتدي الأسود، يحملون الدروعَ والهَراواتِ والقنابلَ المسيِّلة للدموع تمتدُّ عَبْرَ الحشود. مبانيَ وبيوتًا مُدَمَّرةً، المطارَ وقد تمَّ نَهْبُه من القِمَّةِ إلى القاع.

رأى أُناسًا مَشقُوقَةً جباهُهم بعد قتال.

درابزين سُلَّم وقعَ على الأرض، شاحناتٍ أوحَت بالرُّعب.

الظلمةُ طيلَةَ ليالٍ بلا كهرباء.

صورةُ شابٍّ في بِركةٍ من دِمائِه، شهيدٍ، كما أطلقوا عليه، بَطلٍ للأُمَّة– لنصفِ الأُمَّة على الأقل.

وقفَ في الشُّرفةِ ذاتَ ليلةٍ ونَظَرَ إلى أسفلِ حيثُ العرباتُ تَمُرُّ مُسرعةً، الأبواقُ تدوِّي، أُناسٌ يلوِّحون بالأعلامِ ويؤرجِحونَ الأرانبَ الميِّتة قبل أن يَسلخوها ويقوموا بطهيها، بينما الجيرانُ في الشَّوارعِ يَحتضنُ بعضُهم بعضًا ويغنون.

أبصرَهم يتبادلون نظراتِ عدمِ التصديق.

رأى حمَّاماتِ الدم: دماءً على الجدران، دماءً على الآجُرِّ الأبيض، ملابسَ ملطخةً بالدماء، دماءً على أبوابِ السيارات، أسنانًا مُلطخةً بالدماء، دماءً في قدورِ الطهوِ والاسباجتي، دماء.

في السادسة والنصف مساءً، في هدوءِ غَسَقِ ميدان ألكساندر، وَقَفَ مُنتظرًا، يقشعِرُّ حتّى العظام، عيناه على موكابا.

كان ينظرُ نحوَ ساعتِه كُلَّ فترة.

شَعَرَ في ذلك اليوم كما لو أنَّه صبيٌّ في الخامسةِ عشرة من عُمره ينتظرُ فتاتَه تأتي من المدرسةِ لتقابِلَه.

وفي السابعةِ والنصف، رأى امرأتين شابَّتين مُسرِعتين وشَعَرَ بارتياح.

كان هناك رجلٌ في مِعطفٍ، واعتقدَ أنَّه رآه مبكّرًا في ذلك الصباح، لكنَّه لم يلحظْه.

راح يقتربُ من الشابَّتين اللتين كانتا مُتَّشِحَتين ضِدَّ البَرد، لكنَّهما كانتا تسيران ورأساهما إلى أسفل، مسرعتين نحو مدخلِ المترو.

وقد كان مندهشًا.

كان هناك رجالُ البوليس، حوالي أربعة منهم يروحون جيئةً وذهابًا كعادتِهم، ومجموعةٌ من المراهقين شعورُهم كالمسامير يشبهون الحيواناتِ البحرية، يتسكّعون ويتحدّثون بأصواتٍ صاخبة.

كان الضوءُ منسكبًا عدةَ أمتارٍ من فُندقٍ برلينشتات إلى عدةِ أمتار في ساحةِ ألكسندر.

والساعةُ العالميةُ تُذَكِّرُه أنّ عالما خارجَ هذا المكان، ثمةَ عالمٌ وراءَ الحائِط.

بوسعِه رؤيةُ كُلِّ هذا وهو ينظرُ نحو هاتين الشَّابَّتين، وجوته هائم مُسرعة نحو مدخلِ المترو بكُلِّ ما أُوتيَت من سُرعةٍ.

كان يسرعُ أيضًا ومن خَلفِه رجلٌ يرتدي معطفًا،يخطو قُدُمًا برفقٍ ولم يلحظْه.

مُرتبكًا، راحَ قلبُه يَخفُقُ بسرعةٍ، يرى المشاكسين يضحكون ويُدخّنون، وضبّاطُ البوليس ينظرون نحوَه، يستوقفُه أحدُهم، يسألُه إذا ما كان ضلَّ طريقَه، وهو يوضّحُ له أنَّه في طريقِه ليلحقَ بالمترو ويسألُه ضابطُ البوليس عن وجهتِه وهو يبتسمُ في عَصبيةٍ مُرتَبِكًا ويُجيبُ بأنَّه في طريقِه نحو المسرح.

– يجدرُ بِك أن تقلَّك سيارةُ أُجرة يا سيدي، المترو مُزدحمٌ للغايةِ في هذا الوقت.

السُّياح دائمًا ما يُفضّلون سياراتِ الأُجرة. أفضلُ سيارات الأجرة التي ترغبُ فيها توجد ها هنا.

وهو يُحدِّقُ في الفراغِ العظيمِ لميدانِ ألكساندر، في الظُّلمة، في الآثارِ المتوارية لجوته هايم.

ويسمعُ وقعَ أقدامِ شخصٍ هاديءٍ يمشي على عقبيه ويرى هذا الرجل، يرتدي الآن مِعطفًا جِلديًا، ويُدهَشُ للمصادفةِ أنه يرى الرجلَ الذي جلسَ على مسافةٍ منضدتين منه، في ذلك الصباح، واتَّخذَ سبيلَه نحو محطةِ القطارِ أيضًا.

مُستلقيًا في حُجرته بالفندق، يَخطرُ له أن تُقِلَّه سيارةُ أُجرة إلى شقَّتِها.

ونَدِمَ أن الفكرةَ لم تواتِه من قبل، وما الذي سيفعلُه إن لم يَجدْها في بيتِها؟

– هذا العنوان.

يُحدِّق السائق فيه. يحدِّقُ فيه ثانيةً، وما إن يصلا إلى مارزان، حتى يطلبَ منه أن ينتظره.

ويُحدِّقُ فيه حين يراه ثانيةً بعد خمسِ دقائق، عائدًا إلى السيارة الترابانت بمفرده، سَائلاً السائقَ العودةَ به إلى الفندق.

كانت تلك آخِرُ مَرَّةٍ رأى فيها جوته هايم: بينما تندفعُ عَبْرَ مدخل المترو، ألكسندر، ذراعًا بذراع مع امرأةٍ شابّة أُخرى.

حين دقَّ جرس الباب رأى امرأةً في حوالي الخمسين من عُمرها تتطلّعُ نحوَه من مَدخَلٍ بابِها ثم تدخلُ وتوصِدُ البابَ خلفَها.

كان مرآها مألوفًا: ذاتُ المرأى الذي لاحظَه خلالَ إقامَتِه هناك، والذي دارَ في الميادين، وفي الحوانيتِ المفعمةِ بالنظام الاشتراكي، ملمحُ هذا الجيل الجديد، الشمسُ التي أشرقت أكثرَ سُطوعًا الآن من ذي قبل.

لقد أبصرَ هذا الملمحَ مراتٍ عديدةً مذ عَبَرَ الحدودَ بجوازِ سفرِه وتأشيرته في يدِه، مذ انسلَّ عَبرَ الحدود التي يقومُ على حراستِها جنودٌ ذوو أسلحةٍ نصفِ آلية.

بعد أن دقَّ جرس الباب ثلاث مراتٍ دون جدوى، أحسَّ بأنَّ الظُّلمةَ تهوي عليه واقتيدَ إلى حيث فندقه.

أمامَ التلفاز، وبينما تذيع نشرةُ الأخبار الصور المجيدة ذاتها، يقومُ هو بتفرُّسِ الوجوه ليرى إذا ما كان بوسعِه رؤية المرأة التي مارسَ الحُبَّ معها في شقّةٍ في الطابقِ الثامن، وتارةً أُخرى يلوحُ ميدانُ ألكساندر، مُظلِمًا وأسود، باردًا وصامِتًا، أخرسَ، يَحرسُه أصحابُ الزيّ الأخضر.

ميدان ألكساندر. برلين الشرقية. خلاءُ الميدان، والشوارعُ التي مشى خلالها، وقادَته خلالها جوته هايم ليلاً من قبل.

ليس ثمّةَ ما يستطيع فعلَه.

يمشي ويتلفّتُ من حولِه، ولا يرى شَيئًا، ولا يَشعرُ بشيء.

عادي، عادي للغاية، عمّا قريب ستقعُ عيناه على ألكساندرا، وعلى ميلدريد، ستقعُ عيناه على الصغيراتِ وعلى الشَّمسِ التي طلعَت من الشَّرق.

أمّا عن البقية، فليسَ ثمّةَ شيء، تمامًا كما أنّ ما من شيءٍ في عيونِ هذين الضابطين اللذين نصحاه بأن تقلَّه سيارةُ أُجرَة إلى المسرح.

لا شيء. والصمتُ الذي يُحيطُ به كالصمتِ الذي يكمنُ في عيني جوته هايم حينَ أتَت تخدمُه ذلك الصباح.

كانت عيناه مثقلتين بالنومِ وقدماه متعبتين للغايةِ إثر مشيه على غير هدًى في اتساعِ الميدان الكبير.

وكان الجوُّ يوغلُ في البرودةِ، حتى الصقيع.

كُلُّ شيء كان لا اسمَ له.

حتى جوته هايم بلا اسم. حتّى إيريك، بدا أنّ الضوءَ المنبعِثَ من الفندق ونظرة موظّفة الاستقبال من خلفِ الطاولة الخشبية تبعثان بعضَ الراحة.

على أيّ حال، فإن ميدانَ ألكساندر كان لا يزالُ جميلاً لغموضِه وللذين يُحدِّقون في النافورة.

– سيدي؟

– أُريدُ مكالمةً لإيقاظي صباحَ الغد، من فضلك؟

– متى يا سيدي؟

– حوالي الخامسة. إذن أخبريني، متى تفرغين من عملِك اليوم؟

لعينيها لونُ ميدان ألكساندر الخفيف، ولصوتِها رنينُ أجراس ميدان ألكساندر.

– السابعة.

– السابعة صباحًا؟

– نعم، يا سيدي، هل ثمّةَ ما أفعلُه لأجلِك يا سيدي؟ .

– إنها ليلتي الأخيرة ها هنا.

– نعم، رأيتُ ذلك مُحدّدًا هنا، يا سيدي. أتمنى أنّك قضيتَ وقتًا للتجوّلِ في المدينة ممّا سيجعلُك تحملُ ذكرياتٍ طيبةً عنّا تعودُ بها إلى وطنِك.

– لذا أسألك متى تفرغين من عملك، يا آنسة.

الآن تبتسمُ وتتغيّرُ نظرتُها.

– آسفة لا يمكنني تركُ مكاني هنا. لكن بوسعي تدبيرَ شيء ما لك إذا ما أردت.

لا نريدُك أن تغادرَ من هنا مُحبطًا.

– لا، لا. أيقظيني في الخامسةِ غدًا. إذا ما حدث وفرغتِ لبعضِ الوقت، تعرفين في أيِّ حجرةٍ أُقيم.

عاذي. في المصعد الصاعد إلى الطابق الثاني عشر، كانت هذه المرأةُ ذاتُ الشَّعرِ البُنِّي، لا تزال سترتُها مقفلة، وحقيبتُها تتدلّى من فوق كتفها، تُحدِّقُ فيه.

تتفحّصُ قطعةَ الورقِ الصغيرةَ في يدها وتترجّلُ عن المصعدِ في الطابق الثامن.

ينغلق بابُ المصعد ويُفتحُ ثانيةً في الطابق الأعلى، حيث تدخلُ امرأةٌ أُخرى، مطابقةٌ تقريبًا للمرأة التي خرجَت. تضغطُ زرًّا لتَهبِطَ إلى أسفل.

يصعدُ المصعدُ إلى أعلى ويتوقّفُ في الطابق الثاني عشر.

في الخامسة صباحًا، يدقّ جرسُ الهاتف، لكنه مستيقظٌ بالفعل.

– إنها الخامسة صباحًا يا سيدي.

لم يعنِ ذلك الكثير، بعد كلّ ذلك. إن ذلك لم يعنِ شيئًا.

كان اليوم الذي غادرتُ فيه ألكساندرا حارًّا ومُشمِسًا.

أراد أن يقلّها بالسيارة إلى المطار، لكنها أصرّت على أن تقلّه سيارةُ أُجرة، ولم تشأ أن يُودِّعَها أحد.

لأنها فقدَت شيئًا ما، راحت ميلدريد تنتحب.

– علينا أن نأتيَ إلى المطار معكِ. الفتاة تريدُ المجيء، ألا تَرَين؟

إنني أُفكّرُ فيكِ. لقد تَيَّمتِني. وأرغبُ فيكِ. إنني بالفعل أُريدُك. أحلمُ بكِ عاريةً، تتوقين إليّ.

أحلم بكِ تتأوّهين وتتوسّلين المزيد. ترجونني ألاّ أتوقّف. وكلانا فعل وصِحنا لأنه لم يكُن ثمّة من يسمعنا.

أحلم برؤيتكِ عاريةً تمامًا، تتّجهين نحوي بظهرك، وأنا أتأمّل مؤخّرَتَك مستمتعًا. أُريدُك بشدّة. أريدك للغاية. لا أدري لماذا أتخيّل ذلك لأنّني لم أرك حقًّا بعد ذلك.

أطفأتِ المصباح وجلستِ وأوليتني ظهرَك. شعرتُ أنكِ تخلعين ملابسَك، لكنّني لم أرك.

شعرتُ بصورتك. مثلما رأيتني، حين استيقظتِ صباحًا. أتخيّلُ. لكنّني لم أرك. لم أرَكِ عاريةً من قبلُ. وعليَّ أن أسأل: من أنتِ؟ أعرف اسمَكِ، أعرف شعورَك، أعرف عينيك وذراعيك، أعرفُكِ من الداخل، لكنّي لا أعرف كيف تبدين.

كان اسمها جوته هلم.

كنتُ أقرأُ هذه القصةَ عن امرأةٍ كانت متزوجةً طيلةَ أربعة أيامٍ ونصف.

في يوم السبت أقلَّتها صديقتُها من المكتب في سيارة فولكس فاجن التي اشترتها واتَّخذتا طريقَهما إلى مكتب الحكومة المحلّي.

وجَدَتاه مُنتظرًا هناك مع ولدِه وخطيبةِ ولده.

كان ابنُها هناك أيضًا مع صديقه، ووالدها والآنسة التي تقضي وقتًا طويلاً عنده كلَّ يوم، تقريبًا.

لقد ارتدى بدلةً داكنةً في هذه المناسبة وهذَّب لحيته.

ارتدَت هي فستانًا أرجوانيًّا فاتحًا وأحضرَت لها صديقتُها باقةَ ورد- زهورًا بيضاء ووردية.

الزهورُ الوردية لم تتّسقْ مع الثوب الأُرجواني، لكن فيمَ كان يهمُّ ذلك؟

وقفَت ظهيرةُ الأربعاء إلى جوارِه في قسم الحالات الحرجة.

كان مُحاطًا بالأنابيب والآلاتِ ذات الأرقام المضيئة

أزالت الممرضة هناك في الظهيرة، كُلَّ الأنابيب، وقد أطفأَتِ الآلاتِ أولاً وطلبت إليها الانتظارَ خارجًا في الممَر إلى أن يجهزوه.

أقلَّتها صديقتُها، صباحَ الجمعة في سيّارتها، الفولكس فاجن التي اشترتها من فورها، من المكتب واتخذتا طريقَهما إلى المحْرَقة.

كان ابنُه منتظرًا هناك مع خطيبته. وابنُها هي مع صديقه، ووالدُها مع آنستِه.

ارتدت في تلك الليلة فستانَها الأُرجواني مرةً أُخرى وأمسكت باقةَ وردٍ حمراء لم تتسقْ مع فستانِها، لكن ما الذي كان يَهُمّ؟

وصلتُ إلى نهاية القِصَّة وأُفكِّرُ فيكِ ثانيةً. أفكِّرُ في جَسَدِكِ وهو يتعرَّى، كيف أرغبُه، كيف أريدُه، وأضغطُه إليّ، في رقصةٍ معي، راغبًا في الاستسلام لرغبتي المِلحَّة فيكِ.

ذكَّرني ذلك أيامَ كنت لا أزالُ أذهبُ إلى الكنيسةِ ورأيتُ بيللا في حذائِها العالي ذي الكعوب الرفيعة وشعرِها في كتلةٍ هائلةٍ مرتفعٍ فوق رأسِها.

أردتُ الاستمرار في الكتابة. إنني أُفكِّر فيكِ. في يديكِ، أصابِعِكِ ممسكةً بفنجانٍ من القهوة وقطعة حلوى مغلية تذوبُ في قاعِ الفنجان.

أُفكِّرُ في هذه الأصابع تزحفُ عبر جسدي. بيللا دائمًا ما كان الماكياج يُغطّيها. كان وجهُها لوحةً تشكيليةً: ألوان مائية في شتَّى الألوان.

قالوا إنَّها عملت في المدينة. اعتدتُ رؤيتَها حين عودتِها في الصباح الباكر، وفي المساء. لذا فقد قالوا. قالوا الكثير عن بيللا. لقد فعلت كُلَّ شيء على نحوٍ مختلف، فعلت، من الواضح أنها فعلت كل شيء على نحوٍ خاطئ تقريبًا.

كانت تصلُ البيتَ صباحًا، بدلاً من أن تغادِرَه، كانت تغادرُ في الوقت الذي كان يجب أن تأوي فيه إلى البيت.

من ناحيةٍ أُخرى، فإن ماريون ابنة مسز آجنيس غادرت البيت في الصباح وبيدها ورقةٌ ملفوفةٌ في أنبوبة، وتحت ذراعِها كومةٌ من دفاترِ التمارين وكومةٌ أُخرى تُرى من حقيبتِها البُنِّية المفتوحة.

كانت مسز آجنيس تتريثُ خلفَ البوابة ترقبُها وهي تُغادرُ وتُلوِّحُ لها قبيل أن تتوارى ماريون حول الرُّكنِ الأخير في الشارع.

كانت بيللا غالبًا ما تَظهر في هذه اللحظة الدقيقة، على مَهَلٍ تتخذ طريقَها للبيت وحين اقتربت، دخلت مسز آجنيس إلى الداخل.

ربَّما لم تلحظْ مسز آجنيس قط أن جيما تتطلّعُ من الشُّرفة فوقها، مترقبةً.

وهي أيضًا كانت تَلجُ إلى الداخلِ حين تأتي ابنتُها بيللا، كانت تذهبُ لصنعِ بعضِ القهوة.

اعتدتُ رؤية كلِّ ذلك بينا أُمي توزِّعُ الزبدةَ المالِحة على شريحتين من الخبز، وبيضتين مسلوقتين وبعضَ اللحمِ البقري المهروس.

بيللا وماريون، كان لماريون وجهٌ جميل. أحيانًا ما تخيّلتُ أنه يشبه وجهَ الدميةِ الكبيرة لشقيقتي.

لم يكُن لبيللا وجهٌ جميل لكن ... من العنق إلى أسفل... وكذلك الأسلوب الذي تمشي به أيضًا: ذلك التمايل الكسول للأرداف. ماريون كانت دائمًا في عجلة، تذهب إلى المدرسة في الصباح، وتعود إلى البيت في الظهيرة، تغدو إلى القدَّاسِ في المساء، ثم تعودُ إلى البيت، ثم إلى الحركة الكاثوليكية، ثُمَّ إلى البيت ثانية.

وفي صباح السبت، قبل أن تظهرَ بيللا، تَأتي هي عند بابِها الأمامي حاملةً دلوين ومقعدًا صغيرًا وفرشاةً لتنظيف السقفِ وتعملُ في تنظيفِ الواجهة.

في أيام السبتِ ارتدَت طاقمَ ملابسَ داكنةً وتنورةً بُنِّية.

بعد تنظيفِ البابِ الأمامي والنافذةِ النصف دائرية التي فوق الباب بفرشاة، تقفُ على المقعدِ الصغيرِ لغسلِ النافذة التي تعتلي الباب، والباب، ثُمَّ فتحاتِ التهوية.

تصعدُ وتهبطُ فوق ذلك المقعد الصغير.

ارتدت خُفَّين ورديين، لونِ ستراتِ شقيقتي نفسه.

ثم تقومُ بغسلِ الرصيف، الجزءِ الأمامي لبابهم الأمامي وفتحاتِ التهوية.

في تلك اللحظة، ظهرت بيللا، وسيجارةٌ بين أصابعها، تمشي على مهلٍ.

تنجحُ ماريون في إعادة كلِّ شيء إلى داخل البيتِ ثم توارِبُ الباب.

تدخلُ بيللا، تُغلقُ البابَ خلفَها.

ثم تنبثق بعد نصف ساعةٍ جيمّا حاملةً سلّةَ مشترياتِها وتشُقُّ طريقَها نحو بقالة ماري.

ماريون وبيللا وجوته هايم.

لم يكُن هنالك الكثير من السيارات في شارِعِنا.

أحيانًا ما كانت تأتي سيارةٌ صفراء، وفي ظهيرةِ الأحد، تتوقّفُ ويدوّي صوتُها، تخرجُ بيللا وتُقلُّها السيارةُ للبعيد.

أحيانًا بدلاً من أن تُقلّها السيارةُ للبعيد، تتوقّف السيارةُ وتدخلُ بيللا وتجلسُ هناك مع رجلٍ ذي شَعرٍ رماديٍ ورجلٍ آخرَ يشبهه يجلسُ في المقعدِ الخلفي.

وبعد ساعةٍ، تمتلئُ المنطقةُ المحيطة بالسيارة بأعقاب السجائر.

في أيامِ الآحاد، كنتُ أذهبُ إلى قُدّاسِ الساعةِ الثامنة. أجلسُ تحت سقف الكنيسةِ إلى اليمين، حيث بالكاد بوسعك أن ترى القَسّ. لكن بوسعِك أن ترى ماريون رؤيةً جيدةً بما يكفي، وهي تُغنّي من قلبِها في جوقة المرتّلين في الكنيسة مع الفتيات من الحركة الكاثوليكة وفتيان المذبح.

أهيمُ بالخبز المقدّس.

تمشي لتنالَ العشَاءَ الربَّاني، ثم تعودُ إلى مكانِها وقد ضمَّت يديها، ورأسُها منحنٍ ثم تركعُ وعيناها مغمضتان.

وبعد آخر مرّة من عبورها، فإن ماريون والفتيات الأُخريات وفتيان المذبح، يغنون: في شهر مايو الجميل

ماريون، في الخارجِ في الجزء المفتوح من المبنى، برفقة مدام دياسكويل والآنسة جريما والآنسة جامينزولي.

ثم يدنو دون فيكتور وتبدو ماريون غير راغبةٍ في الحديث بعض الشيء، وهي تنظرُ إلى أسفل.

ثُمَّ، بعد الحديث عن أشياء مختلفة، تمضي مودعةً وتزورُ تشكيلة فيرونكا.

أطلبُ أنا قطعةَ حلوى مارس وتشتري ماريون مطبوخة كانوللي وسنيتزا أو حلوى ملفوفة ترشح كريمةً بيضاء من شريحةٍ أسفلَ المنتصف.

تبتسم لي أحيانًا، عند فيرونكا.

ثم تعبرُ الميدان، مهرولةً إلى البيت.

وأحيانًا ما تتوقّفُ في الميدان.

ميدان ألكساندر: الجنودُ والقشعريرةُ والفراغُ والرَّماديَّة والفندق والساعة والنافورة والناسُ ناظرون إليك بالطريقة ذاتها التي ينظرُ إليك بها ضبَّاطُ البوليس وأنت تعبرُ من فندقِك إلى الجانبِ الآخر، وأنت في طريقِك نحو المترو.

ميدان ألكساندر والنادلون.

هذه الجوته هايم. أُجبِرت على التوقّفِ عرضيًّا. لأنّ السيد ماجري، الذي اعتاد أن يقومَ بتدريس ابن عمي، يأتي من جانبِ الميدان الآخر.

تبتسم جوته هايم بترحاب، وكذلك ماريون. ويبتسمُ السيد ماجري أيضًا.

وهي أحيانًا ما تنظرُ إلى الأسفل وتبتسمُ أكثرَ ثم تنظرُ نحو ماريون.

هو لا ينظرُ من حولِه. بل ينظرُ إلى الأمام نحوها، ونحو ماريون، إلى وجهِها، أظنُّ أنَّه وجهُها ذاك الذي ينظرُ هو إليه، أراه ينظر نحو وجهِها. يبتسم لها. تبتسم له. أنا الوحيد الذي لستُ مبتسمًا.

كل ما يفعله أن يبتسمَ ثم يتسامران. تنزل بيللا من الباص وتعبرُ الميدان وينظرُ السيد ماجري نحوها وتنظر ماريون نحوه وهو ينظر نحو بيللا التي لا تتطلّعُ نحو أحد.

ولكن في الخارج في شرفة كازينو ستار، ثمّة شخصٌ ينظر ممسكًا بكوبٍ من الشاي في يده وبيده الأُخرى قفصٌ صغيرٌ به طائرٌ مفعمٌ بالحياة.

وحينئذٍ تندفعُ من الداخل بعضُ الجموع وبأيديهم كؤوسُ البيرة.

تدورُ بيللا حول الركنِ ثم تتوارى.

وتبتسمُ ماريون في صحبةِ السيد ماجري وهي واقفةٌ في منتصفِ الميدان، تقريبًا.

ماريون والسيد ماجري، ماريون مع ماجري.

حين توفيت مسز آجنيس، حضرَ جنازتَها أُناسٌ كثيرون في شارعِنا.

كانت جيمّا هناك مع ابنتَي أختِها وأُمِّهما بيللا، كانت مدام دياساكويل هناك أيضًا، منحنيةً فوق عصاها المصقولة، والسيد ماجري، ذهب قُدُمًا مع مدام ماجري، التي اعتادت أن تُعلِّمَ شقيقتَها قبل أن تتزوج.

لا تزال ماريون تمرول نحو المدرسة، لا تزالُ تعتلي مقعدَها الصغير وأنفُها إلى البابِ الأمامي صباحَ كلِّ سبت، لا تزال تذهب إلى قدَّاسِ الثامنة، لا تزال تُغنّي، كلّ أحد.

كانت لا تزالُ جميلةً.

في حين كان والدي يطوي صحيفته "التحرير" أربعَ طيَّاتٍ ويضعُها في جيب سترته.

دخلتُ إلى المرحاض كثيرًا، خاصةً أيام السبت والأحد: أيام السبت قبلَ وجبة غداء رافيولي[1] بصلصة الطماطم فحسب، وأيام الآحاد لدى وجبة المعكرونة المطبوخة التي كانت تُدفع إلى داخل الفرن.

على أطراف أصابعي مشيت، أوصدتُ البابَ من خلفي وأخذتُ ماريون وبيللا معي، إلى الداخل.

ابتسمتُ لماريون، وابتسمتُ لبيللا أيضًا.

جذبتُ رأسَ بيللا وأحنيتُها أرضًا، ثم أخذت رأس ماريون ولويتُها إلى جيدِ بيللا.

وعانقتُها ودفنتُ رأسي بين ثدييها وفركتُ بأنفي جِيدَها الذي تعلَّقت فيه سلاسلُ ذهبية.

---

1 من الأكلات القديمة في المطبخ الإيطالي وتكون على شكل عجين مربّع وتُصنع أشكال أخرى منها على شكل نصف دائري مثل الميزيلون وتورتيليني والتورتيلوني، وهي نوع من المعجنات النشوية مع الباستا الشحينة الطحينية ويتم إضافة الصلصة أو المرق. (المترجم).

وشَدَدْتُ أصابعي ولاطفتُهما إلى أن صارتا لزجتين وكنتُ ألهثُ تقريبًا.

وبدلاً من أن تمرول ماريون، رأيتُها على مهلٍ تتهادى مرتديةً حذاءها ذا الكعبين الرفيعين الطويلين، بدلاً من خفَّيها الورديين، ممسكةً بسيجارةٍ بدلاً من فرشاة السقف.

التقتني في الميدان، شفتاها ملطختان من أثر الكانولي المطبوخة، وابتسمت لي.

أحيانًا ما كانت تسير بدلالٍ حتى إنني كنتُ ألهثُ حقًا وأُصبحُ لَزِجًا قبيل أن تصل إليّ.

ماريون وبيللا، السبت والأحد.

أيام العطلات أيضًا، أحيانًا. أحيانًا كلّ يوم من الأحد إلى السبت.

كان هنالك عالمٌ آخر خلف الحائط.

هل رأيتَ الحائِط؟

ما إن ولجا إلى الفِراش، في اللحظة الحاسمةِ حين شعرت بملاطفتِه بيدِه الرقيقة على ظهرِها، أطفأت المصباح.

سمعَها تخلع عنها سترتَها، تنزعُ عنها حمَّالة صدرِها وبدا أنَّها تميل إلى الأمام لتُعلِّقَها على الكرسي قُربَ الأريكة الفِراش.

حدث كل ذلك في الظلام. كل شيء. لم ير شيئًا.

على الطائرة، قضى الوقتَ يفكّر فيها.

مستذكرًا المؤامرةَ مرةً أُخرى، وحيدًا بمفرده.

فندق شتات برلين، الميدان، نقطة تفتيش تشارلي، الجنود المسلّحون يراقبون يلتقطون لك لقطاتٍ بأعينهم كُلَّ لحظة، وهم نصف مختبئين تحت حَوافِّ قبعاتِهم.

جواز سفر، خروج، دخول إلى العالم الحُر.

برلين تيجيل[1] الثامنة وأربعون دقيقة صباحًا- أُفكِّرُ فيكِ. لقد أثَّرتِني. إنِّي أُريدُك. أُريدُك للغاية.

ميدان ألكساندر، برلين الشرقية، لم يتبق شيءٌ بداخلي وأنا أبدأ في التفكير في بيتي، الشارع، والمدينة التي أعيش فيها، البلدة.

كان لدى جوته هايم قصصٌ تحكيها لكنَّها احتفظت بها لنفسها. ليست لدي فكرةٌ عمَّا كان على جوته هايم أن تجتازَه كي تعرفَ هذه القصص.

---

1 مطارٌ دُوَلِيّ في العاصمة الألمانية برلين وبالتحديد تيجيل، يعدُّ أكبر مطارات برلين السبع والرابع بين مطارات ألمانيا. أُفتتح سنة 1948 وتبلغ مساحته 466 هكتار، يبعد 8 كم عن برلين، سعتُه السنوية 12 مليون راكب (المترجم).

ما من أحدٍ يعرف هذه القصص.

باردًا لا يزال ميدان ألكساندر.

في الصباح يترقّبُ الناسُ الباصَ أو المترو- مازالت عيونُهم تتقلّبُ وتدور تحت البطاطين.

نصف مغلقةٍ عيونُهم، لكنَّما يسودُ الصمتُ هناك، الفراغ، الميدان الرمادي، هؤلاء الناس يحملون الميدانَ في عيونِهم.

ميدان ألكساندر في عيون جوته هايم بينا تُديرُ أصابعَها حول حافَّة فنجان القهوة.

عيونُهم تحوي ظلمةَ ما بعد الظهيرة.

كالظلمة التي تسقط في البيت، حتى اليوم، حين تنقطعُ الكهرباء.

والآن، وزوجتُه تنامُ في ركنٍ من الفِراش، ابنتُه في حجرةِ نومِها، يَشعرُ كما لو أنَّه قد عادَ بحملِ العبء والظلمة معه.

ربما حين كان نائمًا فَتَحَت جوته هايم جرابَه وأدخلتهم خلسةً بسرعةٍ ولم يلحظْ قط، ربَّما طوتهم بعيدًا لذا لم يلفتا كثيرًا من الانتباه، ومن الواضِحِ أنه حملهما.

في غضون ذلك كان يحاول النسيانَ وبدلاً من أن ينسى راح يتذكّر على نحو واضح- حتى على متن الطائرة، فكَّرتُ فيكِ. في جسدِك الذي أُريدُه للغاية، أُريد أن أحوزَه، أضُمَّه إليّ، أُراقِصُه، أن يستسلمَ لي.

لدى هذه الذروةِ حلمتُ بكِ تتأوّهين، حلمتُ بكِ تجفلين، منفعلةً حين أدفنُ وجهي في خِصرِك.

أريد دفأك على وجهي، رطوبتَك، أريدُك أن تعطّري وجهي برائحتِك، الرائحة التي تكمنُ بالداخل.

- إيريك.

– ماذا.

– هل عادت الكهرباء؟

– عادت لكنها انقطعت ثانيةً.

– ماذا تفعل؟

– قادم. اخلدي للنوم. الوقت تأخَّر.

أُفكِّرُ فيكِ وأُشفقُ عليكِ. قصَّتُك ليست سعيدة. وأنتِ تعانين. هذي الرغبة العظيمة التي لدي، الرغبة فيكِ، وفي جسدك.

ألكساندرا، والظُّلمة.

كنتُ في الظُّلمة منذ يومين. وفي صمتٍ. ونائمًا إلى جوار امرأةٍ أيضًا. جوته هايم. لابد وأن الوقتَ كان متأخِّرًا للغاية.

ذلك ما أعتقد. ما إن نزلنا من الباص حتى هرولنا عبر شوارع مستقيمة معتمة في مارزان، وعيونُنا إلى الأرض، إلى أن وصلنا الشَّقةَ، المصعدَ، الطابقَ، والجحرَ الصغيرَ لشقَّة جوته هايم. لم نتحدثْ كثيرًا. طالعتُ المجلّات التي على طاولة القهوةِ إلى البابِ الأمامي، بينا فتحت هي الأريكة الفِراش البرتقالية الداكنة.

لم نأخذ حمّامًا حتى. رقدنا. ثم كانت الظُّلمة. ثم أصبحت فوقي، تتصبَّبُ عرقًا، وسمعتُها تستمتعُ، وهي تصعدُ نحو ذروتِها.

وراحت تصرخُ وأنا أُغلِقُ فمَها بيدي لكنَّها تدفعُها بعيدًا، بخشونةٍ وقوة.

أثناء متعتِها راحت تطلقُ صيحاتِ الألم، من خيبةِ الأمل، الفراغ، وميدان ألكساندر وسيع للغاية ورمادي. وفقير. وجميل؛ لأنه يدعو للرثاء.

الرجل في البزَّة الرَّمادية.

كُلُّ هذه الأسطح وأنا أنظرُ في الفَراغِ الذي خلَّفته الظُّلمة. وأشعرُ بالوحدة.

يبدو الأمر كما لو أنّني أحضرتُ ميدان ألكساندر معي، ميدان ألكساندر حيث أعادوني حين رأيتُ ضابطي بوليس يقتربان مني يسألاني إلى أين كنتُ أتجّه.

أو الميدان بعد السادسةِ صباحًا فحسب، يخبراني أن أبتعد، يذكّراني بوعدي بالعودة في أكتوبر.

لكن أكتوبرَ بعيدٌ للغاية! بعيدٌ جدًّا! بعيدٌ للغاية. ذلك الصمت. هذا الصمت. اللحظة التي انسابت في جَيبِ سترتي والتي أعدتُّها معي دونما وعيٍ منّي.

أخيرًا يخلُدُ للنوم. ميلدريد نائمة ودُبُّها بين ذراعيها.

تنامُ ألكساندرا متكوّرةً في جانب الفِراش. ثم يرقدُ هو ويُغمِضُ عينيه. وعلى الفور ينعسُ، بأسهلِ ما يكون. ولا، إنه لا يحلمُ حتى الصباح.

كانت إيما ماهرةً في الحياكة. صنعت ملابس لأجل زبائن. كانت حجرةُ الجلوس كاستوديو تقيسُ فيها النساءُ الملابس.

تردَّدَ نوعان من الزبائن على إيما، رأتهم في أيامٍ مختلفة، بحسبِ نوعِهم.

الأغنياء الذين جاؤوا من سليما أو شارع التجار الأعلى في المدينة، بين الثكنتين..ذهبوا للتجهيز أيام الاثنين والثلاثاء والأربعاء، وأيام الجمعة كانت للنسوة اللائي عملن في الشارع الآخر في المدينة.

وكانت أيام الثلاثاء للفقيرات.

زوج إيما تركها بمفردها مع ثلاثِ فتياتٍ صغيرات.

حين بلغت أصغرُهنّ السادسةَ عشرة، بلغت إيما الأنباء بأن لديها أشهرًا قليلةً كي تعيش.

لذا، فإن إيما وبناتِها غادرنَ إلى شارعِ التجّار صباح يومِ سبت، لشراء أقمشة، أمتارٍ من قماشٍ أسود- أغلى قماش أسود يمكن شراؤه- واشترين بطانةً أيضًا، وأزرارًا وخيطًا أسود.

وفي الأسابيعِ التي مضت فيها، صنعت إيما أربعَ فساتين، واحدًا للكبرى، وواحدًا للوسطى، وواحدًا للصغرى.

وواحدًا لها كي تُدفَن فيه.

وذات أسبوع، بعد أن حاكت آخر هُدبٍ في فستان ابنتِها الصغرى، جرَّبت إيما فستانَها الأسود.

ومثلها فعلت بناتُها، في اليوم التالي.

ليزا.

عرفها طيلةَ سنوات. مذ كانوا أطفالاً تقريبًا، حسنٌ إنه أسلوبٌ في الحديث فحسب. لقد كانت تكبرُه بعامين. حين أدركَ الطائرةَ ليذهبَ لرؤيةِ الحائط،

ورأى الحائط، ورأى جوته هايم، كانت زوجةٌ ولها ابنةٌ تبلغ من العمر عشر سنوات، وابنٌ وزوجٌ لم يُحبها.

– ماما تهيمُ بِك. تعتقد بأنَّك أحد أفضل ممثلي جيلنا.

كانت تلك هي أول جملة تحدثت بها إليه.

– شكرًا على الإطراء. والدتك جميلة، هل تعرفين ذلك؟

ذلك اليوم، ارتدت بلوزةً بيضاء وجونلةً بُنيَّة قصيرة، وحذاؤها ذو كعبين عاليين رفيعين وشعرُها معقودٌ في كتلةٍ إلى الوراء.

ونظر إلى شفاهِها فلاحظَ أنها مُلطَّخةٌ بالأحمر.

في ذلك اليوم، ذُرِفَت دموعٌ كثيرةٌ في البيت؛ لأن القَسَّ رفضَ أن يدخلَ ويباركَ بيتَهم؛ لأن الأبَ ارتكبَ خطيئةً مُهلكة.

لم يأبه والدُه، لكنَّ والدتَه كانت تنتحبُ لأنَّها اعتقدت أنَّه دون ماءٍ مُقدَّسٍ ستنصَبُّ لعنةُ الرَّبِّ على البيت وعلى جميع من عاش بالبيت.

وفكَّرت فيما سيقوله الجيرانُ، لاسيما مسز آجنيس.

تركَ البيتَ في حنقٍ عظيم، وذهب ليرى إذا ما كان سيلقى أحدًا.

لم يلتقِ أحدًا، ووصل إلى فاليتّا، وانتهى إلى آخرين من طبقته،شخصٌ ما قدَّمهم إليه.

اسمُها ليزا. داوما على اللقاءِ فترةً، يذهبان إلى نادٍ ليلي في فاليتّا.

غادر والدُها المنزل، وقالوا أنه ذهبَ مع امرأةٍ أُخرى، كانت أُمُّها متحرِّرةً تمامًا، وحاكت الملابِسَ لجميع أنواع الزبائن، وذهبت إلى المسرحِ ومذ غادرَ زوجُها، كانت تذهب أحيانًا إلى الحفلاتِ الرَّاقصة.

ظلا يتقابلان وقتًا طويلاً، يتحادثان، يضحكان، يمارسان الحب– في فراشِ والدتِها الوسيع، في فيلا جدتِها الصغيرة.

كان ذلك قبل ميدان ألكساندر بسنوات، ليس طويلاً في الواقع.

حين تزوجت رجلاً أشقرَ من الشمال، غَضِبَ.

غَضِبَ للغاية، ثم التقاها ولاحظَ أنَّها ارتَدَت خَاتَمَ زفافٍ وبالكاد قال لها كلمةً واحدة.

وحين تزوَّجَ شقراءَ من الشَمال، غضبت.

– ألم تقلْ أنَّك لن تتزوّج؟

– سنُرزَق بطفل.

– كاذب. ليس هذا سبب زواجِك منها. تعتقد أنّي لستُ أعرفُ القصّة؟ لندن، الهيبِز، الدُّخانُ والحبُّ.

– كانت بمفردها.

– لذا تزوجتَها؟ هل هذا سهل بالنسبة لك؟

– نعم. أعتقد بأنه لم يكُن في وسعي ما أفعله.

– كما لو أنَّك مناسبٌ للزواج.

– هل أنتِ مناسبة للزواج؟

– ما رأيك؟

– أتريدينني بحقٍ أن أُخبرك؟

– لا. لا تقل شيئًا فحسب. ليس هذا من شأني، ولا آبه لما تعتقد على أيَّة حال. تمنَّتي، إذن.

وسنوات الصمتِ توالت ولم يلتقيا إلى أن التقيا في اليوم الذي اقتربت منه بعد أن دسَّت كلوديا له السُمَّ على المسرح وابتسمَ لها وابتسمت له وسألَها عن حالها فلم تُجِبْ، حينئذٍ، عَبْرَ الألعابِ الصغيرةِ والابتساماتِ والنظراتِ والنِّكاتِ، أطلَّت ذكرياتٌ، ذكرياتُ فِراشِ أُمِّها وفيللا جدَّتِها، التي تخصُّها هي الآن.

وهناك كان ميدان ألكساندر وجوته هايم والخطاباتُ التي استمرت في صنعِ طريقِهما إلى المدينة ذاتِ الحائط، رغم أنهم لو وصلوا وجهتَهم فإن أحدًا لا يعرف.

وألكساندرا وميلدريد و- بعيدًا عن الدُّبِّ الدُّمية والكتاب- الهدية التي خُبِّأت بعيدًا بين الملابس الداخلية، خُبِّأت جيدًا حتى إن ضابط الجمرك لم يلحظْها.

- أجميلةٌ برلين؟

- إنني حتّى لا أعرف. أعتقد أنَّها كذلك. نعم. لكن من المؤكّد أنَّك لن تُحِبَّها.

- هناك الحائط، أليس كذلك؟

- نعم، إنه طويلٌ للغاية.

- عالٍ؟

- بينَ بينَ.

حائطٌ طويلٌ يدورُ حولَ الفِراش. لم يشعرْ بذلك في هذا اليوم، لكنَّها شعرت.

أرادت رائحةَ دفءِ عَرَقِه حين كان يعيدُ التفكيرَ في الحلوى المغلية التي تذوبُ في القهوة، النظرة من أسفل، النظرة الأولى في مقهى موكابا وميدان ألكساندر- متسعٌ باردٌ وصامت.

ضغطته إليها مثلما اعتادت حينما كانوا صغارًا، قبل لندن، هكذا الأمر.

أضحت عدوانيةً والتوى وجهُها وضغطت على أسنانِها.

- لقد أحضرتُ لك شيئًا من ألمانيا.

لكنها أخذته إلى الفِراش وأخبرته أنها افتقدته، وجسدُها إلى جسدها، لقد كان بعيدًا لمدةٍ طويلة. ثم أضحى لديه الحافز كي يتحدّث عن الحراسة

المسلّحة في أبراج المراقبة عبر الحائط، وكان لديه الحافز كي يتحدث عن الصَّمت، والناسِ الذين يُحدِّقون في المترو دونما التركيز على شيء، والطقس البارد الرمادي.

لقد أرادت حتى ذكر الكتلةِ السَّكنية الرُّمادية والشَّقة التي في الطابقِ الثَّامِن.

أرادَ التحدثَ عن جوته هايم: عن شعرِها الأشقرِ الطويل، أصابِعِها وذراعيها، شفاهِها، صوتِها الأجَشِّ الهادئ والحلوى المغلية التي أسقطَتها في قهوتِها بدلاً من السُكَّر (وعلى الأغلب أنها سَرَقَت هذه الحلوى من المقهى).

عِوضًا عن ذلك، فإنه سَمَحَ لها أن تُفسِحَ ما بين ساقيه، وبينما عيونُها تنظرُ في عينيه مباشرةً، تَرَكَها تَأكُلُه إلى أن راحت تلهثُ وتدمع.

يومٌ مطابق، كل شيء حدث مثلما كان يحدثُ مِن قبل، عدا الهدية.

غادرَ رئيسُها في العمل في الثامنة والنصف، علمت أن ألكساندرا غادرت في العاشرة إلا ربعًا. لقد تحدّثت في العاشرة، ووضعت إصبَعًا على الاستعداد لإغلاق الهاتف إذا ما كانت ألكساندرا هناك.

وإذا ما التَقَطَ الهاتِفُ هو-كما اعتاد دومًا- فإنها ستهمسُ له بأن ليس ثمةَ من يراهما، وأن بوسعِه أن يقودَ السيارةَ إلى خلفيةِ بنايةِ المكتب ثم يذهبان إلى المنزل الذي شاركت فيه زوجَها، إلى الفيلا التي تخصُّ الجِدَّة، رَحِمَها الله رحمةً أبديَّة.

دخلت هي أولاً لتتأكَّدَ أن زوجها قد غادر إلى العمل.

كانت تتذمر إذا ما ترك جواربَه وملابِسَه الداخلية على الأرضية قرب الفراش.

ثم يتبعها إلى الداخل، يلعبان بعض الألعاب السارّة ويؤديان بعض الأعمال، يرفعان صوتيهما قليلاً، يلهثان، يهدآن، يندفعان إلى الحمَّام، يرتديان في عجلةٍ ملابسهما، ويعودان إلى العمل.

لكن الآن، ما إن التقطت ملابس زوجها الداخلية وجواربه من الأرضية، دخلت معها جوته هايم وخلعت ملابسها قبل أن تفعل هي.

ورقدت على الفراش قبل أن ترقد هي عليه.

وربما لهثت قبل أن تلهث هي أيضًا.

لكنها لم تلحظ قط. وربما لاحظت.

وفي السيارة أيضًا في طريقهما إلى المكتب سألته أيَّ جزءٍ من جسدها أحبَّه أكثر، ثم سألته أيَّ جزءٍ من جسدها لم يحبّه، ولم تصدِّقه حين قال إنّه أحبَّ كل جزءٍ فيه.

– هيا أخبرني.

– لقد أخبرتك بالفعل، ألم أفعل؟

– حسنًا. أخبرني الآن ما اسمها؟

– جوته هايم.

– ما لون شعرها؟

– أشقر.

– طويل؟ قصير؟

– طويل.

– هل هي طويلة؟ قصيرة؟

– متوسطة.

– ممتلئة؟ نحيفة؟

– عريضة، ممتلئةٌ تقريبًا.

– أنت وغدٌ قاسٍ. أنت خنزير!

أشهرٌ من الصمت، صمتٌ طويل، حتى جاء أُكتوبر، مكالمةٌ تليفونيةٌ، أليكساندرا مغادِرةٌ ولن تعود، ثمَّ ابتسامةٌ على وجهها.

– لا، بوسعنا أن نلتقيَ عندك، هكذا.

– من المؤكَّد.

قبل ذلك الوقت أضحت مشوَّشةُ جوته هايم– راحت تتلاشى بعيدًا في مملكة التيه، مثلما ذابَت كثيرًا في زحامِ المترو بعد اندفاعِها عبر ميدان ألكسندر برفقةِ صديقِها بينا بزةٌ رماديةٌ تعقبت سائحةً في أعقابِها.

هناك تابعت سلسلةً طويلةً من الألعاب على الأريكة، في الحمَّام، في المطبخ، في حجرة الغسيل على السطح وفي الفناء الخلفي.

كانت كلَّما لفظت أنفاسَها، بكت وقالت أُحبُك وأنَّها لن تتوقفَ عن حُبِّه منذ ذلك اليومَ الذي ارتدت فيه تلك التنورة البُنِّيَةَ القصيرةَ والبلوزةَ البيضاء.

مُشَتَّتَةُ العقل ليزا. ولكن أيضاً لو أنَّها لم تكُن مُشَتَّتَةَ العقلِ لما استمَر في خيانَتِها طيلةَ سنواتٍ عدة.

حين ذهبَ إلى مكانِها، وفراشُها ما يزال دافئًا من زوجِها، ابتسمت وثرثرت عن الكتبِ التي لم يقرأها قط ولن يقرأها أبدًا.

حين غادرت أليكساندرا وبدأت الذهابَ إلى مكانه بدلاً من مكانها، فعلت أشياءَ جعلته يوقن كم كانت شاردةَ الذهن.

أليكساندرا لن تحلم حتى بمثل هذه الأشياء. أحيانًا– نادرة للغاية– لم يفعلا شيئًا على الإطلاقِ وتسكَّعا في الفناءِ الخلفي وهما يتناولان ثمارَ اليوسفي ويحتسيانِ الشاي الصيني.

كان لها هيئةٌ مثالية، لليزا، هيئة مثاليةٌ ولا ريب. حتى بعد حملها الثاني، أمكنها أن تحافظ على هيئتِها.

ذات يومٍ كان لديها المهاراتُ الفائقةُ للعنايةِ بجسدِها، في اليومِ التالي صفَّفَت شعرَها، اشترت أثمنَ العُطورِ في المطارات.

في كُلِّ مرة خلعت فيها ملابِسَها، هبطت عيناه على أصابعِ قدميها، ذاتِ الأظافر المستديرة، مثالية وحمراء وامضة، ثم على صدرها الرشيقِ وشعرِها، الأنيقِ دائمًا والطبيعي مع ذلك.

– نحتاج لأن نتحدَّث.

لكنَّه ذلك اليوم لم يشعر برغبةٍ في التَحدُّثِ عن أيِّ شيء عدا أحداثِ الأمس: المكالمات التي ذهبت إلى المدينة لتحطيم الحائط.

جالسًا إلى التلفاز متسعَ العينين: ربَّما كانت جوته هايم هناك.

– ثمة شيء عليَّ أن أُخبرك إيّاه. إنه خطيرٌ بحقّ. هل تمانعين؟

تقريرًا إثر تقرير في التلفاز، مئاتٌ من البشر يتسلقون جدارًا لم يَبْدُ أعلى من سورٍ يتمايلُ ويكادُ يسقطُ تحتَ وطأةِ ثِقَلِ هؤلاءِ الذين يَتَسَلَّقونَه، ويجلسون عليه منفرجي السيقان، أو يضغطونه.

وسَطَ كُلِّ ذلك الزحام، ربما هناك امرأةٌ في قهوتِها أسقطت حلوى مغلّية لأن ما لديها من السكر قد نفد.

ربَّما كانت هناك، برفقةِ ذكرياتِها، بلا ذكرياتِها، مع كُلِّ الخطاباتِ الطويلة التي لم تَرُدْ عليها قطّ.

ربما كانت هناك بفمِها المليء بالشمبانيا، والأحضان والابتسام والضحك والبكاء سعادةً. الحائط.

– مدهشٌ، أليس كذلك؟ هذا غيرُ متوَقَّعٍ على الإطلاقِ. حتى هم لم يتوقّعوه.

– أتمانع في إطفاء هذا؟ ثَمَّ شيء أُريد إخبارَك عنه.

إنه شيء خطير. أرجوك؟

خفَّض إريك الصوت.

– لا، أطفئه يا إريك، هنالك شيء خطير أريد إخبارك عنه!

– ماذا هناك إذن؟

– زرتُ الطبيبَ منذ يومين، وأخبرني شيئًا خطيرًا للغاية.

لديَّ ورمٌ في الثدي.

في أحد الخطابات التي أرسلها "دون أن يتلقّى ردًّا" كتب:

كلما أقلّتني طائرةٌ فكرتُ فيكِ. أُريدُك للغاية. عند هذا الارتفاع الهائل أحلُم بك تتأوهين، أحلُم بك تجفلين وتقلقين حين أدفنُ وجهي في وَسَطِك. أُريد دفأك على وجهي، بللك، أُريدُك لتعطّري وجهي برائحتِك، الرائحةِ التي تتغلغل فيّ.

متأخّرًا كان الوقت حين التقيتُك، متأخرًا للغاية.

كُلُّ شيءٍ كان من المفترض أن يكونَ مُحاطًا بالسِرِّيّة. كلُّ شيءٍ؟ لكن ما هو هذا الكلُّ شيءٌ؟

هذي الرغبة العظمى إليك: أن نمشيَ معًا، نعبرُ الميدان آن رأيتُكِ آخِرَ مَرّة. كي نمشيَ فيظلُّ الحائط، نشاهد الجنود يرقبوننا نمشي يدًا بيد متعانقين.

لم لا تَرُدّينَ على خطاباتي أبدًا؟

وعلى كارتٍ بوستال ذي زهورٍ حمراءَ وقلوبٍ كتب:

إنني أُفكّر فيكِ وأشعرُ بالأسى نحوكِ.

لم تكُن قصتُك قصةً سارّة. وأنتِ تعانين. هذه الرغبة العظيمة التي لديّ، رغبتي فيكِ، في جسدك، إنّما لا تَدَعُني أُفكّر على نحوٍ قويم. أودُّ رؤيَتَكِ ثانيةً في الفراش، في تلك التنورة ذات الفتحاتِ الطويلة بطول الجانبين، ردفاكِ الأبيضان الممتلئان العاريان، جميلان.

أودُّ رؤيَتكِ تتعرّين، عاريةً، راقدةً في الفراش تنتظرينني.

أودُّ رؤيَتكِ لاهثةَ الأنفاسِ تباعدين ما بين ساقيك لي، تتصبّبين عَرقًا، مذهولاً بما أرى بما تبيحين لي. هكذا: دونما خوفٍ دونما خجلٍ. تصرخين بملء رئتيكِ، تبوحين بالألم، بالخيبة، بالحزن.

تَلَقَّى مكالمةً تليفونيةً بعد هذا الكارت: تعالَ من أجلي الآن.

المدخل المعتاد. أنت تقودني للجنون حين تكتب لي بهذا الأسلوب. أنت تعرفُ ذلك، أليس كذلك؟ تعالَ.

صمتٌ.

الصمتُ حين لا يتحدّثُ أحد. يتذكَّرُ أنها أخبرته كم تشعر أنَّها تافهة، وكم هي صغيرة على أيِّ حال، كم هي صغيرة جدًّا. قالت: الألمانية كبيرةٌ. لكن في الخارج، إنها أكبر، رغم ذلك إنها أصغر من ألمانية.

ما إن رآها تمرع عبر الميدان مع صديقتِها وما إن اقتربَ منه ضبَّاط البوليس ليسألوه إلى أين يتجه، حتى عَرَفَ حينها أنه فقدها، هو أيضًا شَعَرَ أنَّه صغيرٌ جدًا، بالضآلة القصوى.

هو الشعور ذاتُه الذي تملَّكه عند نقطةِ تفتيش تشارلي وفي المطار وهو يفتح حقائبه، واحدةً تلوَ الأُخرى، هؤلاء الناس في المترو، في ذلك الفجرِ المظلمِ البارد، وقد أخبروه أنَّه ليس لديهم ما يخبرونَه به: ما من أحدٍ ها هنا يتحدَّثُ، كُلُّهم صامتون، في المترو.

لكنْ ماذا عن البيت؟ ليس بوسعِهم البقاءُ صامتين حتى في بيوتِهم. ليس بوسعِهم أن يكونوا مثلَه حيث كانوا مختلفين عنه كثيرًا.

الصمتُ في البيت، إلا من نحيبِ ميلدريد، أو جهازِ التسجيل الذي أخرس كلَّ شيء.

الصمتُ في كُلِّ ركنٍ من البيت، وكُلِّ جزءٍ منه، يتدلَّى مِن إطارِ كُلِّ صورةٍ، وكُلِّ مرآةٍ، من فمه هو وفمِ أليكساندرا.

يومًا من هذه الأيام سنذهبُ إلى الساحل، أو للتريُّض. لكنَّ شيئًا ما يحدثُ حين تريد شيئًا ما، تمطرُ أو تَهُبُّ الريحُ أو تنخفِضُ درجةُ الحرارةِ فجأةً، أو نَشعُرُ بالبردِ في الخارجِ، وفي الداخل.

مثل السكون في بيت أُمِّهِ وأبيه، في الكوخ الذي اعتادوا العيش فيه. السكون في البيت في ذلك اليوم حيث سباقٌ سياسي كان مخطَّطًا له وليس بعيدًا عن مكانهم.

في الخارجِ كان الصَّخَبُ، القائدُ يُلقي خُطبةً وأجراس الكنيسة تَضِجُّ في برج الكنيسة.

وكانوا هادئين في انتظار عودة الرَّجُل المسنّ ليبدأ قصَّ ما سَمِعَه عليهم، ورئيسُ الأساقفة ذاك غاضبٌ، وكاهنُ الأبرشيَّة، والبابا.

حينئذٍ وبعد الصياح، ورنينِ الأجراس الذي لم يتوقفْ طيلَة ساعاتٍ وساعات، بعد ما أبلغه الأب، ثانيةً هبط السكون.

بَعضُ الأشياءِ معلومةٌ جيدًا، لكنها لم تُناقشْ قط.

ومَرَّ وقتٌ أطول، وظلَّت أشياءُ أكثر بالصمتِ مغلَّفةً.

كان هناك كثيرٌ من هذه الأشياء.

أشياءُ كثيرةٌ للغاية.

لكنَّ الصمتَ كان سَهلاً بما فيه الكفاية.

طالما وجدَه إريك شيري سَهلاً واعتادَ عليه.

لقد اعتادَ عليه بحيث لم يعد لِمَ احتاجت ليزا أن تثرثرَ بينا كانا يمارسان الحُبَّ.

أليكساندرا: نحتاج لأن نتحدّث يا إريك.

الأم: نحتاج أن نتحدّث، يا إريك.

ميلديريد: هنالك شيءٌ أودُّ إخبارَك إياه، يا أبي، شيءٌ خطير.

من ناحيةٍ أُخرى كان والدُها هادئًا حين سقط السِّتارُ على رئيسِ الأساقفة، لا مزيدَ من الصياح، لا مزيدَ من التلويحِ بنسخةٍ من جريدة الحرية[1]" في وجه زوجتِه وفي وجوه الجميع.

لقد سقط في ركنٍ وكان هادئًا، وفي هذا الهدوء، مات.

والآن حتى ليزا كان لديها شيءٌ مهمٌّ كي تناقشَه. وكان على إريك أن يظلّ هادئًا.

الصمت، جمعت ليزا الصمتَ في حِجرِها، زرَّرت سِترَتَها الصوفيةَ وغادرت.

عَرِفَ أن ليزا مُشَتَّتَةَ العقل. لكن الآن- وهو يُحدِّقُ في التلفاز وعيناه تتفحصان كلَّ تفصيلةٍ، إنه يخبرُ نفسه بأن ليزا سَريعًا سوف ترحل، ويُخبرُ نفسَه بأنَّه يَجِبُ أن يساعدَها، على نحوٍ ما، لكنَّ لديها زوجًا، أليس كذلك؟

كان هناك أطفالُها وإخوتُها. وتُقبِلُ ابنتُه ثانيةً حينئذٍ وبسخريةٍ تسألُه لِمَ هو جالسٌ أمام التلفاز.

لكنه يواصل التحديقَ في تيّارِ البَشَرِ الذين يتعانقون ويلتقطون بأيديهم أجزاءً من الحائط من أمامِهم.

يقول لنفسه إنّ عليه التزامًا لابدّ أن يؤدّيَه. يقول لابنته إنّه يتمنّى لو كان هناك. ويفكّر في جميع الخطابات التي مضت دونما ردود، ومنها على سبيل المثال، هذا الخطاب:

في هذه اللحظة، أتخيّل أنّك بالفعل راقدةٌ على أريكتك. تقرئين مجلةً أو تُعدين للغد. أم أنّك تعيدين قراءة الخطاب الذي أرسلتُه إليكِ؟

أردتُ رؤيَتَكِ راقدةً نائمة. أغمضتُ عينيَّ وحاولتُ أن أتخيلك. بذلتُ جهدًا شخصٌ ما فتح باب المبنى. بدا ذلك من الصوت، حاول أن يكون

---

1 جريدةُ الحرية كانت جريدةً للمقاومة وتمّ منعُها (المترجم).

حكيمًا لكنَّه فشل. أراكِ راقدةً، واستُثيرتُ حين رأيتُ شعرَكِ الأسودَ مُنبسِطًا عليكِ كشرائطِ مزخرفة، يكشف عن جسدك.

أيُّ رائحةٍ لديكِ؟ دعيني ألمسُك، دعيني على الأقلِّ أُجري إصبعي على الشَّقِ الذي فجأةً يتوارى في الجزء الخلفي الصغير من مؤخرتك.

هذا الصباح عَدَت ابنتي بمظروفٍ وردي شاحب. لن أقول بأن قلبي راح يخفق بسرعةٍ، لكنني أحسست بسعادةٍ غامرة.

رغم ذلك لم تكن الطوابع ألمانيةً وحين فتحته وجدتُ أشياءَ لم تُثر اهتمامي.

لذا يفتحُ عينيه أكثر قليلاً. كان هذا خطؤه. منذ تِسع سنوات، تعالْ يا أكتوبر، كان عليه أن يغادر ثانيةً ويعبرَ الحدودَ ويعبرَ ميدان ألكسندر ويجلسَ إلى أوَّل منضدةٍ يجدُها في كافيتيريا موكابا ويَعُدُّ ذاتَ النَّظرة حولَه التي مدَّها من قبل، نصفُ الابتسامة نفسها. لكن ذلك الـ أكتوبر لم يأتِ. ولا أتت أشهرُ أكتوبر التالية.

نَهَضَ على قدميه ليتصلَ بها لكنَّه أدرك أن زوجَها قد يكونُ اقترب مجيئُه في هذه السَّاعة.

لم يستغرقِ الأمرُ أكثرَ من عَشرٍ إلى خمس عشرة دقيقة لتخبرَه بما أخبرَها به الطبيب، وأنها قد لا تراه وقتًا طويلاً.

إذا ما رأته ثانيةً، لو أنَّه سَمِعَ منها ثانيةً. لو أنه سمع عنها ثانيةً.

ما الذي فعلته بتلك الكروتِ البريديةِ التي كتبَها إليها؟ وماذا عن الخطاباتِ إلى ألمانيا إلى أين انتهى أمرُها؟

هناك هذا البرنامج في التلفاز ونقاشٌ حول الحائط وهذا الشخص الذي يبدو مفكِّرًا ويذكر دورَ جهازِ المخابرات.

ذلك اليوم في كافيتيريا موكابا، كان ذلك الرجل ذا البدلة الرمادية.

اليوم الذي رآها فيه مع صديقتِها، ينظران إلى أسفل، يتخفَّيان ليتأكَّدا من أنه لم يرهما ويعبران ميدان ألكسندر دون أن يعيراه نظرةً واحدة.

منذ أربعٍ وعشرين ساعةً شاطرته ميدان ألكسندر.

جوته هايم. هذا الاسم لازمه طيلة عشر سنواتٍ تقريبًا.

هذا الجسد أيضًا، لازمه زمنًا طويلاً. المشكلة ليست هو الآن. ربما ستعيدُ اكتشاف زوجِها الآن ثانيةً.

بالنسبة لي، فإن إريك شيري بدأ يفكِّر، سأُعيدُ اكتشافَ نفسي. كان الوقتُ قد حان، على أيَّة حال. حيث جعلَ من حولَه وراء ظهره ومضى قُدُمًا بحياته، بينما شاهد ابنته التي أضحت امرأةً شابّةً الآن.

ما الذي أفلح في أن يَهَبَها إياه؟ ربما رائحة الجثامين التي يرقدُ معها كُلَّ ليلة. والدتُها المرأةُ التي حزمت متاعَها وعادت إلى بلدتِها. حتى ليزا كادت أن تتحوَّلَ إلى جثمان، الآن.

وقائمةُ الأسماءِ الطويلة التي كثيرًا ما أخفاها بعنايةٍ فائقة. لم تعرفْها. ولم تسمعْ عنهم قط.

هناك القصة الجميلة عن امرأةٍ أحبَّته عن بُعد.

في مايو عام1987 بعد أن أدلى بصوتِه في الاقتراع، تَرَكَ ابنتَه مع عمَّتِها وواصلَ طريقَه إلى المطار.

منذ سبع سنواتٍ دخل وحيدًا إلى مقهًى في وسَطِ ميدانٍ كبير وغادر مع شقراء ذاتِ شَعْرٍ طويل.

استقلا المترو ثم تاكسي إلى أن وصلا فتحةً صغيرة في الحائِطِ وهناك تغيَّرت حياتُه.

الآن، في ليلِ الانتظارِ هذا، يجلسُ في مطعم البيتزا، يشاهدُ هذه السمراء حاملةً أطباقًا وزجاجاتٍ من النبيذ برزت من المنتصف، يبتسمُ كُلَّما به عبرت.

ثم جلست إلى مِنضَدَتِه تُدَخِّنُ سيجارةً، الدُّخان الكثيفُ الذي تقيأتَه عبر شفاهِها وأنفِها أفسَدَ عليه شهيتَه للبيتزا.

– كنتُ في بلدِك من وقتٍ ليس بطويل. قضيتُ أسبوعًا هناك.

– إني هنا مدّةَ أسبوع.

– إذن سنراكَ ثانيةً على العشاء.

– بلا شَكّ، إن لم أرك قبلها.

– لا عليك. تعرف.. هذه سيراكوسا[1].

كانت الجدران مرسومةً برسومٍ صغيرةٍ على نحوٍ عبثي .

وانسابت من النافذة موسيقى صاخبة.

تندفعُ درَّاجةٌ بخاريةٌ على مقربةٍ.

---

1 مدينةٌ شاطئيةٌ في إيطاليا (المترجم).

تعلنُ جريدةُ كوريير ديلا سيرا الإيطالية تغييرًا حكوميًا كان مُتَوَقَّعًا منذ فترةٍ طويلة.

يعبق السوقُ برائحةِ السَّمكِ الطازجِ وطعامِ البحر.

لم يستطعْ خداعَ نفسِه بأنَّه يعرفُهم جيدًا، هؤلاء الباعة المتجولين، والناس الذين يمشون الهوينى من بائعٍ إلى آخر.

رائحةُ البحر. أفلَحَ والدُه في تَجَنُّبِ الدَّفنِ في الجزءِ غير المبارك، من قِبَل الكنيسة، من المقبرة. التي أُطلق عليها اسم "النفايات"

كان برفقته على الشاطئ، حين شَعَرَ بالإعياء، كان إلى جانب فراشِه حين غادر.

سُرعان ما أدارَ مقلتَيه واختنقَ آخرُ أنفاسِه، وأقاموا عليه الشعائِرَ الأخيرةَ ولاحظَ أنّ شفتَيه تُتَمْتِمان بشيء. وقبَّلَ الأبُ الصليبَ الذي احتفظ به راهبُ مستشفى الفرنسيسكان من أجلِه.

كانا في برج إكسجارا حين شَعَرَ والدُه بالإعياء، شاهدا رَجُلاً خَارِجًا مِنَ البَحرِ مُمسِكًا بأُخطبوطٍ ذي أرجلٍ طويلة.

كانا ينظران إلى البحر. في ذلك اليوم تحدَّثَ والدُه إليه عن الأُمّ. أخبَرَه كيفَ أنَّه جَعَلَها تُعاني.

ثم لمحا الغَوَّاصَ قادِمًا بالأُخطبوطِ وطَلَبَ منه والدُه أن يأخذَه إلى البيتِ لأنَّه يَشعُرُ بالتَّعَب.

وبينا هو يقرأ التقريرَ في جريدة كوريير ديلا سيرا، وروائحُ تفوحُ من الفوَّهات، رأى والدَه ثانيةً بشاربِه الكَثِّ، يتمشَّى داخل البيتِ لاعنًا رئيسَ الأساقفة مُخبِرًا إيَّاهم كيفَ أنَّ الأجراسَ لم تتوقفِ عن الرنينِ للحظةٍ واحدة.

ماتَ والدُه قبل أن تأتي أيامُ المجد. ومات قبلَ الحريق، القنابل، وإلقاء القنابل عشوائيًا، قبل أحداثِ الشَّغب، والقنابل المسيِّلة للدموع، قبل إطلاقِ النَّار العشوائي.

حين نجح أن يمرّ، من كشك تليفون تتناثرُ فيه صورُ نسوةٍ عاريات، قالت شقيقتُه في الهاتف أنَّ الشلال لم يتوقفْ منذ الليلة الفائتة.

وقد قالت إنّه سيكون هناك كثيرٌ من البطالة الآن وأنّ الأثرياءَ فحسب، هم مَنْ سيفيدُ، وأنَّهم قد يصبحون أكثرَ ثراءً الآن.

وقالت أيضًا إنّه قد يكون هناك الكثيرُ من الوظائفِ يتمُّ تغييرُها.

وقريبًا أو مؤخَّرًا قد يكون كلُّ شيء تحت إمرَةِ رئيس الأساقفة مرةً ثانية.

مازال رئيسُ الأساقفةِ يَتَرَدَّدُ على منزل والدِه ووالدتِه، حيث تعيشُ شقيقتُه الآن.

في ذلك البيت، كان رئيسُ الأساقفة أعظمَ الضحايا جميعًا، حتى إنَّه قد وُجِّه إليه اللومُ على وفاةِ الأب، ووجِّه اللومُ إليه على وفاة والدتِهم أيضًا.

في اليوم التالي عاد إلى مَطعم البيتزا وطريقُه هناك يمرُّ عَبْرَ السُّوق الذي تفوحُ منه رائحةُ البحر كما أنّ الأخطبوطاتِ ملقاةٌ هناك في صناديق.

وقد رأى والدُه ذات مرّةٍ، في منتصف الليل، في السيَّارة، بينا يقودُ عبر الميدان، قُبالة الكنيسة بالتحديد، رأى النادي يغمرُه اللَّهب.

كانت هناك رائحةٌ كريهة لبترولٍ يحترقُ تغلُبُ على المكان، ومشهدٌ من الكراهية.

قبل سنوات، كان ذلك الميدان يصيبُ بالصَّمم بسببِ ضوضاء أجراسِ الكنيسة، ها هو الآن يحترق.

علَّقَ شخصٌ ما إشارةً ذلك اليوم:

"اللَّهبُ من الشُّعلة سيحرقُ روحَك".

ما الذي قاله الرَّجُلُ المسنّ، هل رأى كُلَّ هذا؟

بطريقةٍ أو بأُخرى، رئيس الأساقفة كان سيُذكر.

كان هناك حريقٌ كبير، وكان رجالُ الإطفاء يرشُّون الماءَ، وكانت الأجراسُ صامتةً تمامًا.

ألكساندرا مُحقَّة: هذه البلدةُ ليست للكائناتِ الإنسانية.

لقد اعتقدَ أنَّ حياتَه ستتحوّلُ على نحوٍ مُختلفٍ للغاية.

اعتقدت هي ذلك أيضًا.

حين طلب إليها الذهابَ معه إلى بلده، لم تَهَبْ هذه الفكرةَ لحظةَ تفكير.

لكنْ كانت هناك التفاتةٌ قبيحةٌ مُفاجِئَة للموضوع.

كثيرٌ من النيران، قليلٌ من الماء.

كانت هناك ثانيةً، في مطعم البيتزا، ابتسمت له ثانيةً، ابتسامةً عريضةً وجلست إلى المنضدةِ لتُدَخِّنَ سيجارةً.

– البارحة لم أسأل حتى عن اسمك.

– فالنتينا.

– فالنتينا. لي عمَّةٌ اسمها فالنتينا، دائمًا ما عرفتُها امرأةً مُسِنَّة.

كان لها وجهٌ أحمر وكان شعرُها مَسحوبًا إلى الوراءِ في كتلةٍ سميكة.

زوجُها عمّي، كان إسكافيًا. وكان لهما أربعة عشر طفلاً.

تبتسم فالنتينا لدى سماعِها قصَّة العمَّة فالنتينا.

تسألُه فالنتينا عن الحكومة الجديدة ما إن تَذَكَّرَ الأنباءَ عن كوربير ديلا سيرا.

لكنَّ إيريك شيري أراد التحدّث عن ذلك المساء، بينا واصلت فالنتينا ابتسامَها ووقفت على قدميها حيثُ هناك شخصٌ ما لدى الباب.

في تلك الليلة، تحت قمرِ مايو المتكّر، بينا يسيرُ في ظُلمة سرقوسة Siracusa برفقة فالنتينا، فكَّرَ في جوته هايم وميدان ألكسندر.

جوته هايم لم ترد.

أحيانًا ما فكَّرَ فيها وهو يكتبُ خطاباتِه إليها، لكنَّ وجهَها راحَ يذوبُ ويتلاشى.

بينا هما يجتازا ساحةَ دومو بذل مجهودًا آخر ليُلقيَ نظرةً على ملامِحِ تلك السَّيدة الألمانية، حاول يصوِّر ويَعُدَّ طوابقَ فندق مدينة برلين.

أثناءَ تلك الليلة في بدايات مايو، حاول النسيمُ وعطرُ فالنتينا التغلبَ على آثارِ جوته هايم.

– ما رأيُك لو ذهبنا إلى شاطئ البحر؟ بوسعِنا الذهاب سيرًا على الأقدام، إنَّه ليس بعيدًا، أليس كذلك؟

– الوقتُ مبكّرٌ للغاية للتمشية على شاطئ البحر، سنشعرُ بالبرد لو مضينا إلى هناك.

– أتعتقدين ذلك؟

على المنضدة، وعاءٌ فاكهةٍ به من ثمار البرتقال، والتفاح والموز.

فنجانان من القهوة وآنيةٌ بها سكَّرٌ إلى حافَّتِها.

جهازُ التسجيل وتقريرٌ من قناة مالطة على الطريق في التلفاز، والآن صينية ونصفُ علبةِ سجائر إم. إس وقدَّاحةٌ زهيدةُ الثمن.

بينا هو يُحدِّقُ في صور بلده يسمعُ صوتَ الماءِ مُتَدَفِّقًا في الحمَّام.

لا يعرفُ هل يواصلُ النَّظرَ نحو وطنِه، أمْ يمشي أبعدَ للداخل كي ينظرَ إليها تحت الدُّش.

انتهى التقريرُ الإخباري في التلفاز. نَظَرَ حولَه: حُجرةُ جلوسٍ موائمةٌ للَّون دَمِ البَقَرِ، سجَّادةٌ ملائمةٌ، منضدةٌ للقهوة في زاويةٍ تتكدَّسُ عليها مجلاتٌ

وصحف، مشاهدٌ شرقية طبيعية مُعَلَّقةٌ على الحوائط، في مكتبةِ الحائِط، بعضُ الكتب، تمثالُ تيراكوتّا لسيدةٍ بدينة، صور فوتوغرافية: فالنتينا تواجِه بَحرًا أزرق، فالنتينا تحتضنُ سيدةً عجوزًا ذات شَعرٍ رَمادي يختلطُ بلونِ اللَّيلك، فالنتينا برفقةِ رجلٍ وسيمٍ محاطان بجبالِ الألب، فالنتينا والرجل نفسه أثناء حفلةٍ موسيقية في ستاد كروي، فالنتينا على درّاجةٍ بُخاريَّة، فالنتينا تقود فيات أونو، فالنتينا مع الشَّاب الوسيم يحتسيان القهوة في الهواءِ الطَّلق.

توقفَ صوتُ جريان الماءِ فجأةً.

صفيرُ عرباتِ البوليس ليس بعيدًا. مَن يدري إن كانت ليزا في الخارج تحتفلُ في مكانٍ ما.

ربما تهاتِفُه في البيت، ليس لديها فكرةٌ بأنَّه في صقليّة.

منذ أسابيع وهما يجلسان لاهثي الأنفاس، قالت ليزا بأنَّها لم تلتقِ قطّ، بأحدٍ همجيٍّ تمامًا مثله.

همجيّ كما هو مألوف، كنمرٍ أو غزالٍ يعدو في البَرِّيَّة.

بينا كانت تقولُ ذلك، بَدَت عيناها وكأنَّهما تخترقان عينيه.

مذ غادرت ألكساندرا، والنمرُ حرٌّ يطوف.

ميلدريد تسألُ عنها كُلَّ عدة أيام لكنها سرعان ما عادت إلى أوقاتِ اختفاءِ أُمِّها.

في الرابعة عشرة، تصير امرأةً شابَّة- إنَّها تقضي أوقاتًا عند عمَّتِها أكثر من تلك التي تقضيها في البيت- ووقتًا أكثر مع أصدقائِها.

من يدري هل كانت تفتقده حين لم تكن تراه طيلَة أيَّام.

عمله في المسرح يجعلُه خارجَ البيتِ إلى وقتٍ متأخِّر، وليزا تَشغَلُ مُعظمَ الأصباح...ليس كثيرًا في الواقع، وليس قليلاً للغاية أيضًا.

لأنَّه يَشعر أنّ لديه الكثير أحيانًا، لكنه يستسلم، لأجلِ صداقةٍ قديمة ولأنَّه يُدركُ أنَّ ليزا لديها احتياجاتٍ أكيدةً لا يستطيع تفهُمَها سواه.ابنتُها تُقَلِّدُها:

وجدت شابًّا أشقر، فقدت صوابَها على نحوٍ ما، وغادرت.

وكان الابن مُتَوَعِكًا: ليس كفؤًا عَقليًّا ولا بَدنيًّا.

وفَقَدَ زوجُها شَغَفَه بها، عدّة سنوات، وفَقَدَها هي أيضًا.

لقد التقى به مرَّاتٍ عدة، حين كان زوجًا ملائِمًا لها.

حين رآه أوَّل مرةٍ ذُهِلَ أنّ امرأةً بمنزلة ليزا يُمكِنُ أن تَرتَبِطَ بشخصٍ كريهٍ مثلِه.

المرَّة الثانية، حين التقيا أثناء احتفالٍ بزفاف شخصٍ ما وأفضى الأمرُ لأن يتسامَرَ مَعَه، لم يستطع الانتظارَ ليجدَ عُذرًا للابتعادِ عنه.

المرَّة الأخيرة رآه ولم يُلقِ عليه حتّى التحية، على الأغلبِ أنَّه لم يعرفه.

ربما تحتفل الليلةَ ليزا، إنّها تنتمي إلى تلك الطبقةِ بعد كُلِّ ذلك: مدرسة الراهبات، البيانو ودروس الباليه، بيت الجدة المستقل.

حيث بالنسبة له فإنَّه بَعيدٌ عن ذلك كُلِّه، هنا، في شقَّةٍ كبيرةٍ تَخُصُّ فالنتينا التي نهضَت تُجَفِّفُ شَعرها وتتحسَّسُ علبةَ سجائِرِها.

– بوسعِنا الذهاب إلى الديسكو إذا ما أردتَ. أو الذهابَ إلى مكانٍ آخر.

– شاطئُ البحر.

– انسَ شاطئ البحر! إذا ما كان يونيو، علينا أن نضعَ هذا في اعتبارِنا.

– بماذا تشعرين؟ ما الذي عادةً تفعلينه في يومٍ كهذا؟

– حين يغشاني المساء أزور أصدقائي أو أمكث في البيت أُشاهِدُ التلفاز.

– إنه الشيءُ نفسه بالنسبة لي.

سيجارة؟. خذ واحدةً إذا ما أردت. قهوة أُخرى؟

دائمًا ما كان مع ليزا في الأصباح أو بعد الظهيرة. لم يكن في الأمسية، دائمًا ما اعتاد أن ينتهز الفرصة مع بعض الممثّلات أثناء العمل، لكنه عادة ما كان في شقّته.

الآن تقدّم فالنتينا استثناءً للقاعدة.

كعينيه معتمتان عيناها وشعرها داكنٌ كَشَعرِه، وتبدو أصابِعُها مُتَغَضِّنَة.

– هل تسافرين كثيرًا؟

– ما بين بين، يعتمد الأمر على كمية النقود التي أدَّخِرها. وأنت؟

– الحال نفسه.

– ماذا تعمل؟

– أُمثِّل وأقوم بتدريس التمثيل.

– أنا نادلة.

يبتسمان.

– بعد تخرّجي لم أعثر على وظيفةٍ ملائمة. ثمَّ قضيتُ بعضَ الوقتِ أعملُ في مكتب في ميلان، ولكنَّ ميلان ليست تلائِمُني. وعلى أيّ حال فأنت لا تَشُمُّ رائحةَ السَّمك أو البحر في ميلان.

– إذن فقد عدتِ إلى وطنك.

– عدتُ إلى وطني. المشكلة أنه لا يوجد أيُّ عملٍ هنا، لذا فقد اتّجهتُ لأوَّلِ عملٍ وجدته. عملت في حوالي أربعة مطاعمٍ للبيتزا قبل أن أبدأ حيثُ أنا الآن.

– هل أنتِ سعيدة؟

– لا يُمكنني أن أشكو.

– أنا أيضًا هاجرت وانتهى بي الأمر بالعودة إلى وطني.

– ماذا حدث؟

– إلى اليوم، لستُ أدري لِمَ قد عُدتُ. هذه البلدةُ ليس بها شيء واحد جيد.

– قضيتُ وقتًا طيبًا هناك.

– بالتأكيد، قضيتِ أسبوعًا هناك، لقد قضيتُ كلَّ حياتي.

– حقًّا.

– إلى أين سافرتِ؟

– لا أُسافر للخارج كثيرًا.

– هل قضيتِ أسعد أوقاتِك في الريف؟

– لا أدري، هل رأيتَ الحائط؟

– الحائط، بالتأكيد. ذهبتُ عبر الحدود أيضًا. زرتُ الألمانيتين. برلين.

عزيزتي جوته هايم،قضيتُ كُلَّ الأعوام التي مرَّت، أُحبُّك، قضيتُها أكتبُكِ وأمحوكِ، أكتبُكِ وأُمزِّقُكِ، وأكتبُكِ ثانيةً وأنساكِ. أنتِ جنيني، تحوّل داخلي وَكَبُرَ وَكَبُرَ وفي الوقت نفسه يظلُّ كما هو: جنين أبديّ لن يُولد أبدًا. ما الذي تفعلين يا جوته؟ إذا ما استطعتِ أن تقفزي هذا الحائط وتديرين ظهرَك للحُرَّاسِ في بُرج المراقبة الذين لن يرفعوا بنادقَهم كي يثقبوا جَسَدَك بفوَّهاتِ بنادِقِهم بل بدلاً من ذلك يرفعون أذرعَهم مُلوِّحين لكِ.

حينئذٍ تستديرين وتلوِّحين لهم وتبدئين رحلتَك نحوي.

وستنسين كلَّ ما يتعلق بالملاط الرُّمادي، والحلوى المغلية التي تذوبُ في مذاقِ القهوة، وقشعريرة البَرَدِ التي جرّدتكِ من ملابِسِك في منتصفِ الميدان، وجئتني.

لقد نسيتُ عدد الخطاباتِ التي أرسلتُها إليكِ، يا جوته.

وددتُ لو أنَّك هنا. وددتُ لو كنتِ لي.

وددتُ لو تجردتِ من ثيابِك في منتصفِ حُجرةِ المعيشة، أسفلَ النَّجفة وليسَ مِن ضوءٍ آخَر في الحُجرة، وظهرُك للشُّرفة.

لديَّ بيانو صامتٌ في حُجرةِ المعيشة. هو أيضًا بانتظارِك.

آمل أن تتخذي طريقَك على مَهَلٍ نحوه، اجلسي على المقعَدِ، ارفعي عينيك عن لوحةِ المفاتيحِ واعزفي.

أرى أصابعَ قدميكِ على دواسَةِ البيانو.

تبدو أردافُك منتفخةً قليلاً وأنتِ تجلسين، بطنُك وثدياك مُرتخيان قليلاً.

ماذا لو جئتُ ولمستُك؟

ماذا لو ركعتُ ودلكتُ عمودَك الفقري وأنت تعزفين؟ إنني أشمُّك.

أستمتع برائحةِ ظهرِك الأبيضِ وهو يُحلِّقُ فيّ ورائحة جيدِك.

ماذا لو مارستُ الحُبَّ معكِ وأنتِ تعزفين؟ أيُّ النوتاتِ الموسيقية أخطأتِ؟

وأفركُ وجنتي إلى ردفِك الناعمِ اللطيف وأذهبُ بعيدًا إلى أسفلِ، أدورُ حولَ رُكبَتِك، أبعُدُ نحوَ الأسفلِ عبر ساقِك، صَوبَ أصابعِ قدميكِ وهي تَضغَطُ على دوَّاسَة البيانو.

حينئذٍ تتوقَّفين فجأةً وتدفعينني بَعيدًا، تدفعينني على الأرضية.

وتستيقظينَ وتسيرينَ عاريةً وتقفينَ في مُنتَصَفِ الرُّدهةِ وأنتِ في طريقِك نحو الفَراش.

كيفَ لي ألّا أنظر، حين أرى امرأةً، حقيقيةً للغاية؟

حين إلى ظَهرِكِ أنظر، إلى كُلِّ جُزءٍ فيكِ، إلى كُلِّ عَلامَة، إلى كلِّ ثنية، في ردفيكِ وإلى الأوردةِ النحيلةِ النحيلة التي تبدو على سَطحِ جَسَدِكِ وتتلوى تَحْتَ بَشْرَتِك في سمَّانَتيك.

كيف لي ألّا أنظر حينَ أرغبُ فيكِ طيلَةَ سنين وأعيش آملاً طيلة هذي السنين، وأنا الآن أموت من اليأس.

كيف لي ألّا أنظر إليكِ؟ ومع ذلك فأنتِ لا تقولين كلمة.

ومع ذلك تبقين صامتةً. صامتةً كفِراشِك. صامتةً كالرُّدهة. صامتةً كالأمواجِ تلاطِمُني داخلي.

صامتةً بينا قلبي يَخفقُ برغبَتِه، مُنهَكًا فانيًا.

صامتةً كالسماء. صامتةً بينا قدماك على القرميد الأبيض.

صامتةً كعيني اللتين تتفحصانِك، ويداي ترتفعان كي تلمساك.

اكتبي إليّ.

في تلك الليلة كان يُدَخِّنُ شارِدًا.

فالنتينا وشقيقتُها جوسي وأصدقاؤهم باتريشا وأجاتا ونيللا.

بدا أن حنجرتَه تكادُ أن تنفجر، وعيناه كانتا كالأحجار الجافّة في ضبابِ دخان سجائر المورانتي[1] والـ إم. إس الكثيف، جافّة كفمه الذي تحدَّثَ وشرب النبيذ الأحمر القوي، جافّة ومعتمة.

في لحظةٍ ما تخيّلَ شقيقته- بعد كُلِّ هذه السنين لم يكُن بوسعِه أن يتخيَّل بحق كيف عليها أن تشعر وهي تُصغي للشلالات.

وتخيَّل والدَه أيضًا، بحكمةٍ ينظر مشدوهًا عبر الستائر.

رأى والدتَه مختبئة في عتمة الشرفة.

ووالدة بيلا- واحدةٌ أُخرى من هؤلاء كسيري القلوب.

---

1 نوعٌ من التبغ (المترجم).

لم يخبرْ شقيقته أنَّه قد صوَّتَ من أجلِ التغيير، لكن من المحتمل أنَّها تصوَّرت ذلك.

لكن فيما يهم هذا، لاسيما الآن، محاطٌ كما كان، تلاطِفُه النظرات والكحول الذي راح يبدو تأثيرُه عليه- الضحك، القصص السيئة التي جعلتهم يشعرون بالملل، الرقص مع كلِّ واحدةٍ منهنّ.

القبلة التي منحها فالنتينا.

الضغط، على يده اليُمنى، والعبارات القصيرة التي كان يهمس بها في أُذنها.

العناق. الحرارة داخل الملهى الليلي. الألوان التي وَمَضَت لانتصار فاسكو روسّي Vasco Rossi، الظلمة. الصمتُ والهواءُ البارد. إنَّه مايو فحسبْ، بداية مايو. الآخرون يغادرون بين الكثير من كلمات الوداع وفالنتينا تأخذه من يده وفي صمتٍ يمشيان إلى الشقَّة التي كانت تُعدُّ نفسها لاستقبال الفجر.

- بوسعي أن أستقلّ تاكسيًا.

- في هذا الوقت؟ أتمزح؟ بوسعك البقاء في شقّتي.

ثمَّ فناء داخلي أسفل نافذة الحمّام وبرج كنيسةٍ ما بين الأسطح يرتفع.

ثمَّةَ ميدان في مكانٍ ما، حيث اقترحت فالنتينا أن يسرعوا في مشيتهم قليلاً، منذ وقتٍ قصير.

كان الجو باردًا في الميدان.

اقترحت عليه جوته هايم أن يساعدها في فتح أريكتِها التي تتحوَّل إلى فراش، ورآها حيث تقوم ببسط الملاءة الصوفية الناعمة وبطانيةً قطنيةً رقيقة ثمَّ تبسط غطاءً محشوًّا بالريش.

ونظر إليها ونظرت إليه وابتسمت.

فكَّرَ وهلةً سريعةً في ألكساندرا، في المرَّة الأُولى التي نامَ فيها إلى جوارِها.

لكنَّها ذهبت بعد ذلك تغسل أسنانَها بالفرشاة وأثناء ذلك أدار تلفازًا صغيرًا في الرُّكنِ وشاهد هونيكر Hönecker يخاطب حَشدًا.

ثمّ أبصرَ بعد ذلك ميدان ألكسندر. كان في عينيه كتلةٌ من الأسقفِ ودراجات، وإن لم يكُن مخطئًا على نحوٍ كبير، فقد رأى بعض القطط تجري وتفركُ نفسها إلى الأركان.

وفجأةً سمع رنينَ أجراس الكنيسة في الرابعةِ صباحًا وسيارةً شرعت في المسير في الحي.

تذكَّر القشعريرة في المترو في السادسة صباحًا والقشعريرة في العيون والصمتَ والنُعاس.

علينا الاستيقاظ مبكرًا غدًا.

– لكن كيف ستستيقظين مبكّرًا غدا؟

– دعني أُدبِّرُ ذلكِ. لقد أعددتُ الأريكة من أجلك، إنَّ لدي وسادةً واحدةً فحسب، لكن بوسعك استخدام الوسائد الخفيفة، إذا ما خشيت من الظلام، بوسعك فتح الستائر لكنَّ الفجر قريب وستشرق الشمس في الجهة المقابلة.

– هل ستتركينني وحيدًا تمامًا؟

– مسكينٌ أنتَ. أتخشى أن تُترك وحدك، هل تخشى؟

– للغاية.

ويرى ابتسامتَها وبينا هو يهمُّ بأن يحتضنَها قالت له طابت ليلتُك، دخلت إلى حجرة نومها وأغلقت الباب خلفها.

ثمَّ حافلةٌ صغيرة بها اثنا عشر راكبًا على متنِها، في رحلةٍ تدوم قُرابَة الساعتين ونصف دونما توقّف.

زنخَّاتُ المطرِ ما توقّفت مذ أدارَ السائِقُ المحرّك. وقد أظلمت مبكّرًا عن عادتِها.

اثنا عشر راكبًا وسائقٌ وموسيقى خفيضةُ الصوت.

من بين الـ الاثنا عشر راكبًا اثنان في حوالي السبعين من العمر، يجلسان في الصفِّ الثاني.

ومن أمامهما شابّان صغيران، يقرأ كُلٌّ منهما كتابًا: كان هو يقرأ كتاب "الرماد والماس" لجيرزي أندرايفيسكي وهي تقرأ كتاب "ميدان ألكسندر بيرلين" لألفريد دوبلين. كانت هنالك امرأةٌ لها سلَّةٌ كبيرة على الأرضية تسدُّ الممشى.

كانت تبكي على نحوٍ عَرَضيٍ ثم سرعان ما تمسحُ دموعَها.

واحتضنت كثيرًا شابًّا صغيرًا قبيل أن تستقلَّ الباص الصغير، والذي منح انطباعًا بأن ليس بوسعه انتظار الحافلة حتى تُغادر.

في منتصفِ الصفِّ الخلفي، حيث توجد خمسةُ أماكن بعضها بجوار بعضٍ، سيدةٌ ذاتُ حقيبةٍ صغيرة، غارقةٌ في التفكير، تقرأُ خطابًا أرسله إليها شخصٌ ما من الخارج ولم يكُن لديه وقتٌ لتقرأ لأنَّها وجدتَه في صندوقِ الخطاباتِ حيث كانت مندفعةً لتلحقَ بالحافلة.

في البداية، راحوا يتحدثون لكنِ الآن بعد مرور ساعةٍ من الرحلة، فالجميعُ صامتون.

بعضُ الناس أصابَهم النُعاس.

الشوارعُ الضَّيقة تُركت منذ وقتٍ طويل، مروجُ البنفسج الرمادية تَشغَلُ كُلَّ مجالِ الرؤية. أحيانًا ما أدركتها السياراتُ التي كانت سريعًا للغاية تمرُّ، بعضُ الدرَّاجاتِ البخارية، وعرباتُ نقلٍ في المَمَرِّ الداخلي.

على الرغم من حقيقة أن ثلاثةَ عشر راكبًا في الناقلة، فهناك صمتٌ مُطبق يُخرِسُ حتى الموسيقا المنبعثَةَ من المذياع.

يستمرُّ زخُّ المطر، الواقعُ أنَّ المطَرَ يَضحى غزيرًا إلى حدٍّ بعيدٍ الآن.

أغلق الشَّابُ والفتاةُ اللذين في الصفِّ الأمامي كتابيهما، أغمضا عيونَهما وتكوَّرا بعضِهما إلى بعض.

توقفت المرأةُ ذاتُ السلَّةِ الكبيرةِ عن البُكاء.

لن يطولَ الوقتُ بالشاحنةِ حتى تسقطَ، تنحدرَ نحو اليسار، تفقدَ السيطرة وتصطدمَ.

لكن قبيلَ أن يحدثَ هذا، كانت المرأة الشّابة تقرأُ "ميدان ألكسندر برلين" قد دفعت بقطعةِ حلوى خضراء في فَمِها وشَعَرَ الشَّابُ الصغيرُ بها تتحركُ، فاستيقظَ وقبَّلها على وجنتِها.

بعد لحظاتٍ انحنت، المرأة التي كانت تبكي، على أحد الجانبين والتقطت السلَّةَ الكبيرة التي سدَّت الممشى، التقطتها لتُخرجَ لفَّة خبزٍ وتأكلَها.

هي لم تجدْها في التَّوِ، في عَتمةِ الشَّاحنة. ثمَّ حَدَثَ كُلُّ شيءٍ في لحظةٍ واحدة ولم يعلم أحدٌ ما الذي يحدث.

الحافلةُ الصغيرةُ تفقدُ السيطرةَ وتصطدمُ بعنفٍ في عربة مقطورةٍ واقفة.

أُلقيت امرأةٌ جالسةٌ في منتصفِ الصَّفِّ الخلفي إلى الأمام، إثر الرَّجَّةِ العنيفة الناجمةِ عن الاصطدام، راحت تطيرُ وتصطدمُ بزجاجِ النافذة.

في تلك الليلةِ تحديدًا، تموتُ المرأةُ في وحدةِ العنايةِ المركَّزة في أقرب مستشفى.

بعضُ المسافرين الأُخَر نُقِلوا للمستشفى نفسه في حالة صدمةٍ عميقةٍ وعانى السائقُ من خدوشٍ في وجهه.

تمَّ تسريحُهم جميعًا من المستشفى في الصباحِ التالي.

لو أنَّكِ تردين عليَّ مرَّةً، مرَّةً على الأقل، لتهبيني إشارةً للحياة.

لم أعِ قطّ لم لم تكتبي لي. واصلتُ تَذَكُّر كُلّ شيء تقريبًا. حتى تلك الأريكة. والحجرة. حتى ذلك الرسم فوق مَفرَشِ المائدة حين رأيتُك أوّل مرّة وأنت تنتظرين أن تأخذي طلبي. والميدان. أحيانًا ما أتساءلُ إذا ما كنتِ لا تزالين تعملين هناك، وإذا ما كنتِ لا تزالين تخدمين أُناسًا كثيرين كُلّ يوم.

ونعم، إنّي أتساءلُ إذا ما كنتِ قد التقيتِ بشخصٍ آخرَ من بعدي، شخصٍ ما ترافقينَه إلى شقَّتِك.

على الرَّغمِ من مرورِ زمنٍ طويل فما زلتُ أُؤمن أنني في وقتٍ ما سأراكِ ثانيةً.

أنا مازلتُ مُنتَظِرًا.

في أوقاتٍ أُخرى بدأتُ أقلقُ أن سَبَبَ عدم ردِّك قد يكونُ أنّ شيئًا قد حدث لكِ شيء ما سيِّئ.

أصابتني الفكرةُ بالكآبةِ وأحاولُ أن أُنحِيها جانبًا بالنظر ثانيةً خارج النافذةِ لأراكِ عائدةً من العمل، تتجرّدين من ملابسِك في انتظارِ أن يغليَ الماء، بينما أُحدِّقُ فيكِ، وأنا آخذكِ بوصةً بوصة، ثنيةً إثر ثنية من رأسِكِ حتى أُخمص قدميكِ.

أحيانًا ما كنت أخفق في أن أنال لمحةً منكِ، لكنّي أحيانًا ما أراكِ تدخلين، أو يحدثُ أن أراكِ وأنتِ تخرجين من الحمَّام، وفوطةٌ حول رأسِك، وجسدُك مُحاطٌ برداءِ الحمَّام أو عارية.

حين لا أُفلِحُ في رؤيتِك، تتربّصُ الأفكارُ القبيحة، والخوفُ، حين أُفلِحُ بالفعل فكُلُّ ما يتبقَّى معي شعورٌ بالخيبة حيث إنّني لن أراكِ ثانيةً، ولا أدري لماذا.

عزيزتي جوته، لو أنَّكِ تردين فحسب. مرَّةً واحدة. على الأقل.

غائمةً كانت السماءُ حين عاد.

أمكنه رؤيةُ الرجل ذي الشاراتِ البرتقالية مُصطحبًا الطيَّار صوبَ البُقعةِ التي على الطائرة التوقُّفُ عندها.

عدد قليلٌ من الناس في الرواق. استغرقت الطائرةُ زمنًا طويلاً كي تدور.

حياه نسيمٌ دافئٌ لدى بابِ الطائرة. مايو دافئ ورُمادي. في آخرِ المبنى أخذَ نَفَسًا عَميقًا، ثم نَفَسًا آخرَ سرعان ما أتبَعَه بآخر وهو يحاولُ الإحساسَ بالتغييرِ الذي بثَّته كوريير ديلا سيرا.

في السيارةِ، أمطرَته بالأنباء، لكنَّها لم تُخبره شيئًا عن ميلدريد أو البيت أو الحي، جميعها أتت من الجريدة، التي تنشر الآنَ مانشتاتٍ منذرةً كلَّ يوم، على النحوِ الذي لم تنشره في سنوات.

– سنرى الآن ما سوف يحدثُ لنا.

– ماذا تتوقَّع أن يحدث؟

– لا أدري. لو أنَّ الأبَ هنا، أتَخَيَّلُ فحسب.

– كانت ستكون لدينا جنازةٌ أُخرى.

– لنعتقد أنّه عاش كثيرًا جدًّا بسبب هذا القَدر ولم يعِش قطّ عبر سنواتِ المجد.

– أفضل كثيرًا. كان سيشعرُ بمثلِ ما تشعرين من السُّوء.

– وأنت، أليس كذلك؟ أم أنَّك سعيد؟

– التغيير جيّد أحيانًا، يا شقيقتي. أعني، ماذا إذن.

– هذا فحسب ما احتاج الأبُ أن يسمعه!

– هل الطفلة تسيرُ على ما يرام في المدرسة؟

كان لدى شقيقتِه أشياء هامَّةٌ لتخبره بها. ذكَّرته بأجراسِ الكنيسة والناس تصيح في المسافة التي أمام الكنيسة.

ذكَّرته بالعمَّة ماري فرانس وهي تتسلّقُ الحائطَ قُربَ الكنيسةِ لتُعلِّقَ لافتةً تقول "اللهيب من – توركا سوف يحرق روحَك،والتابوت ذو وجه المخلِّص الذي أراده أن يتدلَّى من شرفة النادي.

وكيف أنّها جعلتها تقرأ جريدة "صوت الحق[1] " بصوتٍ عالٍ وأخبرتها أنّه كانت هناك الصحف الجيدة وأنّ الصحف السيّئة هي التي جعلتك تذهب للجحيم.

لكن إيريك شيري كان يفكّر في الفتاة التي راقَصَها في الليلةِ التي قدّمته إلى شقيقتِها وأصدقائِها، وأرادَ أن يزورَ ذكرياتِ طفولتِها ثانيةً.

هذه هي الأنباء التي سَرَدَتها في الصباحِ التالي، ما إن استيقظ، كانت عيناه لا تريان على نحوٍ واضح، حتى وجدها مرتديةً بيجامتها تصنعُ قهوةً وتقوم بتدفئة بعض الخبز المستدير.

كان الوقتُ قرب الظهيرة– ما إن فتح عينيه– حتى وجدها تبتسم له. كان شعرُها فوضويًا قليلاً وفي صوتٍ عميقٍ إلى حدٍّ ما أكثر من المعتاد وهي تتمنّى له صباح الخير.

– أترى؟ ما من أحدٍ أخذك بعيدًا أثناء الليل. أخبرتُك ما من سببٍ لأن تخاف من كونِك بمفردِك. هل نمت جيدًا؟

– لا ريب، رغم أنّي أعتقد أنه كان يمكنني النومَ أفضل.

– أكانت الأريكة قاسية للغاية؟

– قاسيةٌ جدًّا. إنني مقتنع بأن فراشَك أكثر نعومة.

– سأدعك تنام في فراشي في المرّة القادمة وآخذ الأريكة لنفسي.

---

1 جريدةٌ كاثوليكيةٌ دُوَليةٌ صدرت عام 1933، تصدر في مالطة (المترجم).

– الليلة، تعنين؟

– الليلةَ تنامُ في غرفتِك بالفندقِ، إن لم تهاتفكِ نيللا. أعتقد بأنك ستقضي وقتًا طيبًا عند نيللا. سأُعطيك رقم هاتِفها أو بإمكاننا مهاتفتَها قبل أن نغادر.

– إلى أين نحن ذاهبان؟

– أنت ذاهبٌ إلى فندقك. وأنا أستقلّ قطارًا إلى ميلان.

– ميلان؟

– ميلان.

– لكن هل ستعودين غدًا؟

– لا، سآتي يوم الاثنين ليلاً.

– إذن لن تعودي قبل السبت؟

– سنهاتف نيللا. نيللا جميلة، ألا تجدَها كذلك؟

ابتسمت ابتسامةً عذبة رغم أنَّها كانت تثيره. ذاتَ ليلة– معه في حجرةٍ واحدة وهي في أُخرى– ليست بعيدةً. وذلك الصباح كان قصيرًا، إلى أن جاءَ الوقتُ كي يودّعَها في القطار.

قصَّت عليه قِصصًا قصيرةً عن طفولتِها، مراهقتِها، سنواتِ أُنوثتِها الأُولى.

أخبرته عن الأشياء التي أحبَّتها والتي لم تحبّها، الأشياء التي أزعجتها، والأشياء التي أسعدتها.

أخبرته عن والدها، شقيقتِها وأصدقائها.

أخبرته عن عملِ– أنه ليس صحيحًا أنه لم يكُن لديها ما تشكو منه على الرغم من أنها بذلت بالفعل قصارى جَهدِها قدرَ استطاعتِها– والأُسرةِ التي عملت لها في مطعم البيتزا.

حكت له عن الشَّمسِ والبَحرِ، وكيفَ أنَّها ذاتَ مَرَّةٍ، حين كانت امرأةً شابّة، ذهبت إلى برلين. وأخبَرته أيضًا مَنْ كان الرجل الذي في الصور.

ثمَّ ودَّعته واستقلّت القطار.

ووقفَ على الرصيفِ، وحين بدت من نافذةِ القطار ابتسمت بعينين كئيبتين وتعهدت له بوعد.

تصريحٌ تردَّدَ صداه عَبْرَ مَحطَّةِ السِّكةِ الحديدية بالكامل.

حرَّكه صفير القطار، الاهتزازُ الخفيف الذي أحدَثَه القطارُ، والسفر.

في الخارج، ثمَّة قشعريرة كانت تزداد شيئًا فشيئًا من الميناء والشخصيات القبيحة وسيارة الأُجرة التي أعادته إلى الفندق.

ذات مرَّةٍ هناك تساءل هل يهاتف نيللا أم لا.

ربما كان هناك شيء مختفٍ خلف ابتسامة فالنتينا المثيرة. ثم ثانيةً، كانت نيللا أجمل واحدة في المكان.

لقد لعب بقطعةِ الورقِ الصفراء التي منحته إياها فالنتينا، مع عنوانِها الخاص على جانبٍ ورقم نيللا في الجانب الآخر.

غادر إلى مطعم البيتزا، ولكن فالنتينا ليست هناك الآن، ما من أحدٍ أعارَه انتباهًا والفتاةُ التي تلقَّت طلبَه لم تُبعِد عينيها عن المنضدةِ حيثُ انتظرته أن يختار.

كانت جريدة كورييرِ ديلا سيرا، إلى جوارِه دون أخبارٍ جديدةٍ عن الموقف، ما حدث قد حدث.

وبعد تناول البيتزا وكأسين من البيرة، عاد إلى الفندق، ثم نام.

أرادت ميلدريد قمصان كابا ولاكوست وحذاءً- ذلك النوع بوسعك العثور عليه رخيصًا في سوق الأكشاك- أنواع مقلدة، لكنها تناسب طالما أنَّها ماركة.

بينا هي تَفُضُّ الحقائبَ البلاستيكية الرقيقة المقلّمة وتُخرج القمصان والحذاءَ والدفاتر المربَّعَة الشكل ذات الغُلاف السَّميك، جَلَسَ والدُها ليبدأ كتابةَ كارت بريدي اشتراه في المطار بمجرّد عودته.

- بابا تقول العمَّة تيس أنّنا سنفقد كلَّ شيء لدينا.

- ماذا سنفقد؟

- كلَّ شيء. الآن سيصير الأثرياءُ أكثرَ ثراءً والـ...

- يبدو أن العمَّة تيس لم تنمْ جيّدًا مؤخَّرًا.

- إنها لا تتوقّف عن الحديثِ، يا أبي، كانت تشاهدُ الأخبارَ في التلفازِ طيلَةَ الأُسبوعِ وتَغْضَب. لم أعتقد بأنَّها ستأخذُ الأمرَ على هذا النحو من الجديَّة. ولا أدري كم مرَّةً ساءلتني لمن قد منحتَ صوتَك. وخالي فريد أسكتَ أُمي.

- خالك فريد؟

- هذا ما قالته إني يجب أن أستدعيه.

- العمَّة تيس تُبلي بلاءً حسنًا في سنِّها!

ماذا إذن، تغيير في الوجوه والأسماء، ثمَّ ماذا؟ بينا أنا أضعُ إشارةً على الجانبِ الخاطئ في ورقة الاقتراع تخيَّلتُ أبي يُحدِّقُ في المقصورة. تخيَّلتُه داخلاً هناك معي كي يرى إذا ما كنتُ مُطيعًا. وحين ألقيتُ بورقةِ التصويت، تنفَّستُ الصعداء وهُرِعتُ من داخل هذه الحجرة الدراسية.

أردتُ أن أقول، أنتَ مُحقّ يا أبي لكنّني مريضٌ بالقِصَصِ الكريهةِ التي تُبسَطُ كلَّ يوم.

كنتُ مريضًا بالفعل بالمباني المحترقةِ والبيوتِ المنهوبة. زوجتي غادرت لأنَّها لم تستطع أن تَحتمِلَ مزيدًا مِن المتاعب.

وحينئذٍ أضحت الأشياءُ أكثر سوءًا يا أبي. هذا ليس السبب الذي باسمه تَجلِبُ اللعنةَ والاستنكارَ على نفسك، أليس كذلك؟ أنا واثقةٌ أنه ليس السبب لأني أعرفك جيدًا بما فيه الكفاية.

أنت لم تُحِبّ رؤيةَ النادي يحترق، والبوليسَ في لوازم مكافحةِ الشَّغْبِ يُطلقون قنابلَ الغاز. أصابَك هذا بالإعياء أيضًا. لابُدَّ أنَّك قد شعرتَ بعدم الراحة مثلما شعرتُ أنا. أليس هذا صحيحًا يا أبي؟ لم نكُ ذلك الطراز. على الرغم من أنَّك كنتَ نجَّارًا في ورشةٍ لصناعةِ السُّفُن ولم تُدع للسفر على متن واحدة، ولم تُقحِمْ نفسَك للسفر على مَتنِ سفينة، يومًا ما أقلّتك عربةُ نقل لتحطِّمَ وتُدَمِّر.

لم تكُن من ذلك الطراز يا أبي، لم تكُن. وكذلك- حتى لو لم تكن لتفعل ما فعلتُ- لم يكن لك لأن تحاكمني أيضًا.

أعتقد أنَّك أحببتني، يا أبي. وأنا أحببتُك أيضًا.

اعتدتُ أن أقلق وأنزعج كثيرًا في المدرسة، حين سمعتهم يقولون إن أبي يكره البابا، ولم يؤمن بالمسيح ولا بالله.

واعتدتُ أن أُدركَ كيف ينظر إلي وإلى شقيقتي على خلافِ ما كان ينظرُ إلى الأطفال الآخرين.

كنتُ أشعرُ بالانزعاج حين كان الأطفال يسخرون مني لأنّ أبي لم يتناول العشاء الربّاني.

ولكن حينئذٍ، لم تجرِ الأمورُ على ما يُرام، كما يبدو.

وكي تكتملَ الكارثةُ اتصلت ماما لأنهم سمعوا عن كُلِّ هذا حتى في لندن وبدأت عمتي تيس تعتصرُ يديها وهما تخفقان بحدّة.

– والدتُك تذهب لتعرف أيضًا؟ كيف ذلك؟

– لستُ أدري.

– ومَ أخبرتها؟

– إنَّها العمَّة تيس هي من تحدَّثت إليها معظمَ الوقت. كُلُّ الذي أخبرتُها أنَّك لم تكن هنا. لذا يا أبي، لِمَنْ منحتَ صوتَك؟

– هذا لا يُهم، يا ميلدريد، حبيبتي. فكِّري في المدرسة فحسب، وليس في شيء آخر. ستتفهمين حين تكبرين أكثر.

– لستُ فتاةً صغيرة الآن!

تتصل ألكساندرا في كُلِّ عامٍ جديد وفي عيد ميلاد الفتاة.

إنَّها على الأغلب لم تعد تتذكَّرُ تاريخَ عيدِ ميلادِه.

هو لا يزالُ يتذكَّرُ عيدَ ميلادِها.

رغم أنه لم يزعجْها قطّ باتصاله.

واصل تَذَكُّرَه لكُلِّ شيء. كُلِّ المواعيد الغرامية.

ألكسندرا لم تتحمَّل هذا أكثر من ذلك: لا البلد، ولا هو، لقد تركت الفتاةَ معه خلفَها، وكانت تأتي لرؤيتِها في المناسبات، لكنَّها كانت تُرَتِّبُ دَومًا أن تكون بعيدةً حين تكون هنا.

إنه يتذكَّر كثيرًا من الأشياء. بعد أن التقيا في مطعمٍ في شارع الملك بعدةِ أشهر، أُخِذَ والدُها إلى المستشفى إثر نوبةٍ مفاجئة.

نَسَيت ألكساندرا كل ما يَخُصُّ الخَرَزِ والزّهور في شَعرِها وقَضَت أيّامًا إلى جوارِه. وبالمثل فعل هو، حيث إنَّ لندن كانت سائرةً لأن تكون مدينةً مبتذلة، على أيِّ حال.

فعل ذلك مع هاري كريشنا[1] وقواعد الطائفة.

حتى الزهور كانت تُضايقُه. لقد أدرك، في الصَّباح الذي عرفوا فيه أنَّ الرَّجل المِسنَّ قد نُقِلَ إلى المستشفى، أن الحوائِطَ والملاءاتِ والأزياءَ البيضاءَ لها جاذبيةٌ أكثر من الألوان البرَّاقة وأنّ جمالاً أكثر في الناس الذين تتدلَّى جفونُهم تحتَ وطأةِ الموتِ أكثر مِنَ الذين تتهدَّلُ جفونُهم بالمواد الكيميائية.

ذهبت ألكسندرا لتُحضِرَ قهوةً حين كشَّرَ والدها وسعل ومات.

لقد كان الوحيد إلى جواره- أجنبي، ذو شَعرٍ خَشِنٍ يتدلَّى خَلْفَ ظَهرِه، والذي كان ذا صلةٍ بأصغر بناتِه.

ماتَ الرَّجلُ المِسنُّ بصحبةِ شخصٍ ما لم يعرفْ حتى اسمه، لم يعرفْه قط. لم يكُن ذلك الموتُ هو أوَّلُ موتٍ يشهده.

كان في المسرح بعد تلك الظهيرة بوقتٍ قصير عند برجِ إكسجارا.

أرسلت والدتُه شقيقتَه إلى المسرح لتحضِرَه لأنَّ والدَه كان يحتضر.

انتظرت في الكواليسِ حتى يَلفُظَ بكلماتِه الأخيرةِ وما إن يَخرجُ حتى يندفعوا بعيدًا دونه عائدين إلى الظهور على خشبة المسرح من أجل نداء ستار المسرح.

حين وصلا وجدا راهبَ الفرنسيسكان مُمسِكًا بالصليبِ وطَبَعَ قبلةً واهنة، على جَسَدِ المسيحِ الميِّت.

صعدت المُمَرِّضةُ إليه وقالت: "إنَّه ميِّتٌ" فأشارَ لها بأنه عَرَفَ ووَقَفَ في الرِّواقِ في الخارج لينتظرَ ألكساندرا.

أُرجوانيًا تقريبًا كان وجه أبيها، حين رآه آخر مرَّة راقدًا، يُعاني سكراتِ الموت، مُتَصَلِّبًا في فِراشِه، جاهزًا لأن يُلقى بعيدًا.

كان أُرجوانيًا وقبيحًا ومُرعبًا.

---

1 حركةُ هاري كريشنا أوَ هاري كريشنز: منظّمةٌ دينيةٌ لحوديا فاشينافا وتقوم معتقداتُها الأساسية على الكتب الهندوسية المقدّسة. (المترجم).

حَلم لبعض الوقتِ بذلك اللون الأُرجواني.

ثُمَّ سَمِعَ بابًا يُفتحُ عن بُعد ورأى ألكساندرا عند نهايةِ الرِّواقِ تَحْمِلُ فنجاني بلاستيك من القهوة.

بدا أن القهوةَ ساخنةٌ لأن ألكساندرا كانت تُمسِكُ الفنجانين حول حافتيهما بأطرافِ أصابعها.

•

حينئذٍ لاحظت ووعت جيدًا لِمَ كان يقفُ خارجَ الجَناح، أو سمعت الصمتَ الذي امتدَّ عبر وَجهِه ووقفت مُتَصَلِّبَةً واندفعت في البُكاء. راحَ إيريك يَحتَضِنُها وشَعَرَ بالقهوة الساخنةِ تنسكبُ على جَنبِهِ وساقِه.

راحت تتنهدُ. ألكساندرا فعلت، وولولت وجاهدته لأن يدَعَها تدخلُ لرؤيةِ والدِها وضربته وصرخت وقالت له بأنَّه كاذب، ليس حقًا، إنه مُخطئ، حتى الممرضة مُخطئة.

لم يتخيلْ قَطُّ أن تسلكَ ألكساندرا هذا السلوك.

لم يعرفْها لمدةٍ طويلة، ولكن في اليوم التالي للقائهما في شارع الملك بدآ العيش معًا مع هذه المجموعة التي قابلاها في حديقة جانداف، يأكلون الحشائِشَ ويشربون فيتاميناتِها.

ألكساندرا التي تذكَّرها كانت دومًا تُدخِّن وتقرأ، دائمًا ما كانت تأخذه إلى كامدين تاون لزيارة الكومبنديوم ليقرأ شعرًا ويقرأ آخر الكتبِ التي كتبها الفلاسفة الفرنسيون، لاسيما سيمون دي بوفوار. في ذلك اليوم، بعد أن غادرا المستشفى، لم يعودا ليلتحقا بالآخرين.

أدركا الفراشَ والإفطار وظلا مُسهدين طيلَةَ الليلِ رغمَ أنَّهما كانا مُتعَبَين.

وضعا خُططًا ليغادرا، ليذهبا إلى مكانٍ ذي سماواتٍ زرقاء وشمسٍ وبحرٍ وحريَّة.

بعد تشييعِ جنازةِ والدِها بأيامٍ قلائل،- بينا قرَّرَ إخوتُها أن يقيموا في لندن بعض الوقت وكانت والدتُهم مُقيمةً معهم قبل أن يذهبوا جميعًا في مفترقِ طُرق، سألَ موظفُ الإكليل في طريق ماريليبون إريك وألكساندرا إذا ما كانا على استعدادٍ لأن يُحبَّ أحدُهما الآخَرَ إلى الأبد- في الخير والشَّر، في الصحَّةِ والمرض، في العُسرِ واليُسر- وكلاهما أجابَ بنعم، فأخبرَهما أن بوسعهما تقبيلَ بعضِهما بعضًا، وراحت العائلةُ تُصفِّقُ وترشُّ النُثارَ عليهما.

ذلك اليوم، قبيلَ الاحتفالِ ببضعِ ساعات، أرسلَ برقيةً تليغرافيةً للوطن ليخبروه بالأنباء.

أمكنَه فحسب تخيُّلَ والدتِه متضايقةً مندفعةً في دموعِها.

طالما تذكَّرَ والدته باكيةً. بحسب شقيقتِه أنَّها لا تدري ماذا تفعل.

في كلِّ حفلاتِ الزفافِ التي حضرَها إريك، كان هذا الحفلُ أكثرَهم كآبة.

خاويًا كان البيتُ.

غيَّرَ الشارعُ ملابِسَه وسيماءَه.

ثُمَّ ميلدريد. ثمَّ المسرح وليزا. كانت لندن مدينةً بعيدةً وتراجعت حكاياتُها معها في بُعدِها.

رائحةُ الأزهارِ والأوراقِ الخضراء، للحدائقِ كُلِّها جُمِعت في بناياتٍ مسروقة، الليالي المظلمة التي دغدغتها أوتارُ القيثار، المتعة والرضا عند المِظَلَّة الكبيرة، جميعُهم فُقِدوا في مكانٍ ما، عند بحرٍ خَلفَ حائِط.

اليوم الذي غادرت فيه ألكساندرا، أخذها إلى المطار رغم أنَّها أصرَّت على المضِيِّ وحدها.

لم يكُن ثمةَ شيء مكتوبٌ على وجوهِهم عدا مخطوطةِ الفشل التي تنبَّأ بها إريك منذ عهدٍ طويل، وتنبَّأت بها ألكساندرا مُبكِّرًا.

بعد أن حَزَمَت حقيبتَها احتضنت الفتاةَ التي كانت لا تزالُ تبكي لأنَّها فَقَدَت شيئًا في البيت ثمَّ احتضنَته هو سائلةً إياه أن يعتني بالفتاة الصغيرةِ وبنفسِه.

وأعملَ في رأسِه أن يَصعَدَ إلى ممَرِ الطائراتِ ليشاهدَ الطائرةَ وهي تُقلعُ وتختفي على البُعد.

ثم ذهب إلى البيت وكان البيتُ فارغًا مرةً أُخرى.

تساءَلَ هل يتصلُ بشقيقتِه ليسألَها أن تأخذَ الفتاةَ لفترةٍ، ثمَّ تساءَلَ هل يهاتفُ ليزا، يهاتِفُها في فترة الظهيرة أول مرةٍ مذ عرفها.

أدارَ الأرقامَ الأُولى في الهاتف ثم أغلَقَه.

جوته هايم. هَبَطَ إلى مكتبه وراح يكتبُ خِطابًا.

أُسدِلَت ستارةُ اليوم. أكان هذا جنونًا، جنونًا حقيقيًا، أم كان تمثيليةً مُضحكةً فحسب من البداية للنهاية؟

عادةً، بعد أن يُسدلَ الستار، نتجمَّعُ في الأركانِ ونَخرجُ واحدًا إثر الآخرِ لنداءِ الستار.

لكنَّ ستار اليوم مختلفًا كان.

لم يكُن هنالك استحسان. وأنا ذاهبٌ الآن لأن أعتزلَ تمثيلَ مسرحياتٍ ذات معنًى لنا وحدنا معشرِ المسرحيين.

أردتُك أن تدركي أنَّه من الآن بوسعي أن أراكِ هنا أيضًا.

لكن كيف لكِ أن تَسلُكي طريقَك إلى هنا وثمَّةَ حرَّاسٌ في كلِّ ركن؟

ولِمَ لم تكتبي لي قطّ؟

قرأ السُّطورَ التي كتبها لأوَّلِ دورٍ يقومُ به تلك الليلة:

نورا: لم أشعرْ بصفاءِ عقلي مثلما أشعرُ به الليلة.

هيلمر: وهل هذا العقلُ الصافي لأنَّكِ تهجرين زوجَك وأطفالَك؟

نورا: نعم، هو كذلك.

هيلمر: إذن هنالك تفسيرٌ واحد.

نورا: ما هو؟

هيلمر: أنت لم تَعُدي تحبينني.

نورا: لا، هذا هو فحسب.

هيلمر: نورا! وتستطيعين قولَها؟

نورا: ذلك يؤلمني كثيرًا، يا توفالد، لأنَّك دائمًا ما كنتَ لطيفًا معي، لكن ليس بإمكاني. لم أعُدْ أُحبك.

هيلمر: هل هذا واضحٌ وقناعةٌ أكيدة أيضًا؟

نورا: نعم ولا ريب واضحٌ وأكيد. هذا هو السبب أنني لن أمكثَ ها هنا أكثر.

هيلمر: هلّا أخبرتِني ما الذي جنيتُه لأخسرَ حُبَّك؟

نورا: نعم بوسعي أن أفعل. كان ذلك الليلةَ، حين لم يحدثْ الشيء الرائع، حينئذٍ رأيتُك لم تكنِ الرَّجلَ الذي فكَّرتُ فيه.

هيلمر: أفصحي عن نفسِك أكثر. لستُ أفهمُك.

وبينا قد أصلحوا مكيابَه دخل إلى حجرةِ ملابِسِه. إلى أن يستدعوه لأجلِ المشهدِ الأخير. وحيدًا أمام المرآةِ والضَّوءُ يُشرقُ على وجهه يشعرُ بوخزٍ من الرثاءِ لنفسِه.

ربما سأعود إلى ميدان ألكسندر، أُجرِّبُ حظي، أفي بوعدٍ لم أحفظْه من قبل. أطفأ المصباح.

في الخارج هناك، بين المقاعد، ليزا، في قلقٍ تنتظر.

– إريك. قهوة؟

– لا. شكرًا.

– عشر دقائق.

دائمًا ما تُقبِلُ ألكساندرا إلى ليلةِ الافتتاح. جلست في صندوقِ المِنَصَّة، تنظر صوبَه مباشرةً. لم تُصفِّق قطّ حين أُسدل الستار.

قالت بأن التصفيقَ ضايقَها لأنَّه أعاقَ الحالةَ المِزاجية.

ثم ذهبت إلى الكواليس، اتجهت صوبَ حُجرةِ خلعِ ملابِسِه مباشرةً تساعِدُه على تغييرِها وإزالةِ مكياجِه. حتى ذلك فعلته لأجله، أحيانًا. مَسَحَت المكياجَ ونظرت في عينيه مباشرةً.

– انظر إليّ.

– ماذا، هل كُنّا جيدين؟

– كنتَ جيدًا للغاية. الآن دعنا نُزيلُ هذا المكياجَ عنك.

ربما كنتُ أفضلَ حين كنتُ بالمكياج.

هيلمر: لكنَّكِ زوجتي، أيًّا ما حدث منكِ.

نورا: اسمعْ، يا تورفالد، سمعتُ أنه حين تهجرُ زوجةٌ بيتَ زوجِها، مثلما أفعلُ الآن، فإنه شَرعًا حُرٌّ من كلِّ التزاماتِهِ تجاهِها. على أيِّ حال، فإنني أُعفيكَ من جميع التزاماتِك. لا تشعر بأنَّك مقيَّدٌ بأدنى درجةٍ، بعد ذلك، يجب أن تكون هناك حريّةٌ في كلا الجانبين. انظر، ها أنا أُعيدُ إليكَ خاتَمَك. أعطني خاتمي.

هيلمر: ذلك أيضًا؟

نورا: ذلك أيضًا.

هيلمر: ها هو ذا.

نورا: هذا صحيح. الآن انتهى كُلُّ شيء. لقد وضعتُ المفاتيحَ هنا. الخادماتُ يعرفن كُلَّ شيء في البيت- أفضلَ ممّا أعرف. غدًا، بعد أن أتركَها، ستأتي كريستين إلى هنا وتحزمُ أشيائي الخاصّة التي أحضرتُها معي من البيت. سأستلمُها بعد ذهابي.

هيلمر: كُلُّ شيء انتهى! كُلُّ شيء انتهى!- نورا، ألن تفكري فيّ ثانيةً أبدًا؟

نورا: أعرفُ أنني سأُفكِّرُ فيك غالبًا، في الأطفال، وفي هذا البيت.

هيلمر: هل لي أن أكتبَ إليكِ يا نورا؟

نورا: لا- أبدًا. عليك ألا تفعلَ ذلك.

هيلمر: لكنْ على الأقل دعيني أُرسِلَ إليكِ-

نورا: لا شيء-لا شيء-

هيلمر: دعيني أُساعدُك إن كنتِ في حاجةٍ إلى مساعدة.

نورا: لا. لا يمكنني استلامَ شيء من رجلٍ غريب.

هيلمر: نورا- أليس لي أن أكونَ شيئًا أكثرَ من غريبٍ بالنسبةِ لكِ؟

نورا: آه، تروفالد، أفضلُ شيء في كُلِّ ما قد يَحدُث.

هيلمر: أخبريني ما قد يكونُ ذلك!

نورا: كلانا أنا وأنت قد تغيَّرنا. أوه، تروفالد، لا أُصدِّقُ بأن أشياءَ رائعةً قد تحدث.

هيلمر: لكنني أؤمن بهذا. أخبريني! ما الذي تغيَّر؟

هو لا يسمعُ آخرَ سطرين لكن فجأةً يُصفِّقُ الجمهورُ بحماسةٍ عظيمة، ينسدلُ الستارُ وثانيةً يرتفعُ وهو وهي في المنتصفِ، ينحنيان، يمتلئان بنفسِيهما، ثم تضغطُ يدُه ويَشعُرُ أنَّها ترتعد وتَمتلئُ سعادةً. نورا في حُجرةِ ملابِسِه، هو يمسحُ مكياجَه ويتركُ زيَّه في الزّكن، يشعلُ سيجارةً أُخرى.

ثمةَ ضوضاءٌ في الردهةِ في الخارجِ حيثُ يَدخلُ المخرجُ الملتحي ليهنئَ الجميعَ سِواه.

ثمَّ تلتفتُ هي لتقولَ أنَّ الجميعَ خارجٌ هذه الليلة، لكنَّ إريك يشعرُ بالتعب.

– أوه تعالَ يا إريك.

– لا، إنني متعبٌ وسأنام. آسفٌ أيها الناس، أحسنتم جميعًا.

•

الواقعُ أنَّه في تلك الليلة لم ينمْ. رَقَدَ وحَدَّقَ في السَّقفِ.

لم يستطعْ أن ينام، وحتى الوقت لم يكُن متأخرًا.

كلما أغمضَ عينيه، بدا وجهُها حاملاً التعبيرَ الذي عادةً يَعِنُّ للحظاتٍ قَبْلَ الانفصال.

كانت عيناها جميلتين، واعتقد أنَّه ربما كانت بها دموعٌ أيضًا.

لم يكُن بوسعِه التأكُّدَ. شاهَدَ بينا هي تُوَلِّيه ظَهرَها وتُغادر.

شاهد بينا تخطو خطوةً سريعةً بعيدًا.

شاهد بينا هي تختفي ثمَّ رأى وجهَها عبر النافذةِ ولوَّحت له.

اعتقد أنَّ بوسعِه سماعَ صدى تصريحٍ عام، واعتقد أن بوسعِه أن يلمحَ علامةَ حزن.

ثمَّ دقَّ جرسُ الهاتف.

– إريك؟

– نعم.

– نيللا.

– نيللا!

– اسمع، أأنت مشغول؟ أنا بالطابق الأسفل في الاستقبال. هل تريدُ الخروجَ أم الوقتُ متأخِّر؟

– أمهليني خمسَ دقائق.

– لا، أسرع.

في سيارةِ الفيات أونو الحمراء، يعتقد فاسكو روسِّي أنَّه قد ينتزعُ زجاجةَ ويسكي من بار روكسي.

تقودُ نيللا السيارة دون أيّ فكرةٍ عن وجهتِهما.

– المكانُ نفسه كالبارحة؟

– كيفما ترين.

– دعنا نذهب إلى مكانٍ آخر.

– كُلُّه سواءٌ بالنسبة لي.

– حسنًا؟ كيف استيقظتَ هذا الصباح؟

– متأخّرًا إلى حدٍّ ما.

– وكان على فيل أن تغادرَ، أليسَ كذلك؟

– نعم، ذهبتُ معها إلى محطة السكة الحديدية.

– وماذا بعد ذلك؟

– مشيتُ لأتناولَ وجبةً خفيفة. ذهبتُ إلى الفندقِ ثمَّ انسللتِ إلى هناك. لكن كيفَ عرفتِ في أيّ فندقٍ أقمتُ؟

– إريك، إريك. ألا تدري أننا نتحدثُ معًا؟ فالتينا أخبرتني، لا؟ هاتفتني هذا الصباحَ بينا السيد المالطي نائمٌ وطلبت إليَّ أن أعتني بِكَ فيما تبقّى لك من فترة إقامتِك.

انظرْ كَمْ ذا تُحبُّك!

وهَبَتكَ امرأةً تَهتَمُّ بِك.

تُقهقه نيللا لكنَّ صمتَه يدفعُها لأن تُنَقِّبَ عن علبةِ سجائرِها في رَفِّ السيارَة.

– أنحنُ ذاهبان إلى الشاطئ؟

– لا، لا. ثمة مكانٌ جيد حيث كثيرٌ من الممثلين يلتقون، جمهورك. هل هذا جيد؟

فضَّلَ إريك الذهابَ إلى الشاطئ، لو جلسا فحسبْ بالسيارة، أو- من الأفضل- أن يمكثا في حُجرَتِه بالفندق.

نيللا هي الأجملُ في المجموعةِ التي كان معها الليلةَ قبلَ الفائتة، لكنَّ تلويحةَ فالنتينا بالوداعِ لا تزالُ تطفو قبَالةَ عينيه، التلويحة التي لم تَهَبْها له حوته هايم قَطّ.

بدا مناسبًا، إن كان احترامًا لفاسكو "الذي ربما كان يعزف هنا أيضًا مصادفةً أو لا" أنهما وجدا نَفسيهما في بار روكسي.

مدَّت المصابيحُ المعتمةُ ظلالاً غريبة على وجوهِ النَّاس الذين تعرفُهم نيللا. من ناحية، هم يذكِّرونَه بالمرصَّعين بالخرز الذين يقيمون في شقَّة لندن، ومن ناحيةٍ أُخرى، فإنَّه يَشعرُ كما لو أنَّه لم يرَ مثلهم من قبل قطّ.

هناك من يُدعى ماريونكا والذي هو بالفعل أعمي ثملٌ ويحاول أن يتأملَ زجاجةَ الفودكا التي تقفُ أمامَها، إلى جانبِها شابٌّ يضحكُ للاشيء محدِّدٍ مع زوجين من الآخرين.

ليس بوسع إريك تحديدَ مَنْ حولَ هذه المناضدِ التي تَخُصُّ المجموعةَ التي هو معها ومن ليس حولها.

الدُّخانُ من كُلِّ لونٍ ومن كُلِّ رائحة.

موسيقى همجية.

يدُ نيللا في يدِه. كتفُها إلى كتفه. رأسُها على كتفه.

وجهُها قبَالةَ وجهِه. فَمُها على فَمِه.

صمتٌ أكثر صَمتًا من القيثاراتِ الكهربائية.

كُلُّ شيء سهلٌ للغاية. أثناء عصر ماريون وبيللا كان خائفًا أن يكونَ نجاحَه مع النساء محدودًا مثلَ حماسَتِه للرياضيات والمدرسة عامَّةً.

في الوقتِ الذي لم يَستطعْ أن يتخيَّلَ أن كُلَّ شيء في الحياةِ قد يصيرُ له سَهلاً للغايةَ.

لحظاتٌ من الحُزنِ كانت نادرةً، لقد عَرَفَ بالكاد معنى الدموع.

بدا أن كُلَّ شيء مُرَتَّبٌ منذ ارتكبَ والدُه خطيئةً قاتلة. ثمَّ بدأت خطاياه الأخلاقية هو، الاختلافُ أنَّه لم يأخذْهم إلى قلبِه. بالأحرى، فإنه أحيانًا يقلقُ بشأنِ شقيقتِه التي أخذت وظيفتَها التمريضيةَ بجدّيَّةٍ عظيمة.

– أليس لديك صديقٌ يا تيس؟

وكانت شقيقتُه تَحَجَلُ وتنظرُ إلى الأسفل.

– ها أخبريني.

– ليس من شأنِك، أليسَ كذلك؟

– ما المشكلة؟

– هذا ليس من شأنِك.

في الماضي حين اعتادَ أن يَستخدمَ كريم والدِه في شَعرِه، مع فَرق إلى أحد الجانبين، نمّا هاجسٌ بشأن أُذنيه أنَّهما كبيرتان، أنَّهما ناتئتان.

أقنعَ نفسَه أنَّ هذه ليست القضية، لقد بدأ يقلقُ بشأنِ شفتِه السُفلى، والتي بَدَت سَميكةً للغايةِ بالنسبة للأُخرى.

وأسنانُه لم تكُن مستقيمةً أو بيضاءَ كاللؤلؤ.

ثمَّ بدأ قلقًا خطيرًا حين راحت تَنبُت لُحًى لأصدقائِه، بينما كان هو لا يزالُ يَجولُ الشوارعَ بوجهٍ ناعمٍ كوجهِ شقيقتِه.

كان على الأغلب في الكُليَّة قبلَ أنْ يَحلقَ ذقنَه أوَّل مرَّة.

لكن ليزا وصلت في سترةٍ بيضاءَ وجونلةٍ بُنّيَةٍ قصيرةٍ ومن هذه النقطة كُلُّ شيء أضحى سَهلاً، لا عثرات، كُلُّ شيء يَسيرُ بسلاسةٍ وترتيبٍ دونَ جهدٍ على الإطلاق.

بما فيها رحلة لندن وألكساندرا وبقية القصّة.

بما فيها تَعَاقُبُ الأسرّة بينهم في برلين.

حياةٌ طائشة، مِثلَ ليلةٍ في بارٍ مع أضواءٍ مُلَوَّنَةٍ تمدُّ ظِلالاً غريبةً على وجوهِ أُناسٍ لا يعرفُهم وهم يَصُبُّون لأنفسِهم جُرعاتٍ من الخَمرِ ثُمَّ يَحتسونها دفعةً واحدة.

كالمرأةِ التي تَجلسُ قُبالَتَه، وغَلَبَها النومُ متكومةً مع رَجُلِها الذي إلى جانبِها يُقَبِّلُها ويَقضِمُها ويَضْحَكُ مِنْ لاشيء.

– هلا ذهبنا؟

– نذهبُ؟ أين؟

– هل تريدُ أن تأتي لبيتي؟

– بالتأكيد، لِمَ لا!

– لن أهجرَكَ إلى أريكة، تَعرِف. تعالَ، لنذهبْ.

– أنت وفالنتينا تسامَرتُما طويلاً هذا الصباح، على ما يبدو.

– نحن أصدقاء مقرّبون، بعضنا يخبرُ بعضًا بِكُلِّ شيء.

– كُلُّ شيء؟

– كُلُّ شيء.

– إذن سوف تهاتفينها غدًا وتُعطينها تقريرًا مُفَصَّلاً؟

– ماذا تعتقد؟

– لا أعرف.

– فالنتينا تُحِبُّكَ كثيرًا. هي لا تريدُك أن تكون وحدك وتُعاني. لقد اهتَمَّت بِك. هل ترى؟

مايو. ليسَ من علامةٍ تَدُلُّ على الوقتِ الآن. في الخارج، نيللا تأخذُ إريك من يَدِه وتُهرعُ به إلى الفيات أونو الحمراء الواقفة عَبْرَ الشَارع.

– هلا ذهبنا إلى الشاطئ؟

– انسي أمرَ الشاطئ! إنَّه طريقٌ طويلٌ والجو بارد.

الجو باردٌ في الميدان. كُلُّ تلك الأوقات، أوقات عديدة، انتظرَ آملاً أن يَلمَحَ بيللا على مهلٍ عائدةً إلى البيت.

لكن بيللا لم تأتِ عند ناصيةِ الشَّارع.

أثناء الوقت الذي قضاه في الشُّرفة، كانت الريحُ تَهُبُّ، كان وجهُه باردًا كالثلج، آملاً أن يراها.

والقشعريرةُ التي بها شَعَرَ بعد أن تحدَّثَ إليه ضبَّاط البوليس.

في عَتَمَةِ الشَّارع، عَتَمَةِ الميدان، عَتَمَةِ الشُّرفة، مُحتضنًا نفسَه قَدْرَ استطاعتِه ضِدَّ البَرْدِ وعيونِ والدتِه المتلَصِّصَة التي لم تعي لِمَ كان يمكثُ في الشُّرفة غالبًا في وقتٍ مُتَأخِّر.

اندفعت الظُّلمَةُ التي في السَّيارة الفيات أونو الحمراء للأمام من بين الشَّوارعِ المعتِمَة، والامتداد المظلِم، ثُمَّ عَبْرَ المصابيحِ المتلألئة.

– وصلنا.

– أمتأكدةٌ أنك تريدينني أن أمكث؟

– ضحكت نيللا ضَحكةً مُتمَهِّلَة.

– بوسعي أن أستضيفَك وأنوي أن أفعلَ فترة طويلة.

– متى تستيقظينَ للعمل؟

تضحكُ نيللا ثانيةً.

– لا تقلقْ بهذا الشَّأن.

– هل عرفتِها منذ فترةٍ طويلة؟

– مَنْ فالنتينا؟

– نعم.

– مذ كنا حوالي الثالثة عشرة. عرفتُها في المدرسة وبقينا أصدقاء.

نحن دائمًا معًا. لم أرَها كثيرًا حين كانت في ميلان، لكنَّها عادت إلى هنا.

– ما الذي بوسعِك إخباري عنها؟

– لا شيء، أيًا ما كان، فستخبرُك به هي بنفسِها.

– أنا لن أراها ثانيةً.

– من يدري.

مثلما لم يرَ جوته هايم مرةً ثانية.

في أحدِ آخرِ الخطاباتِ كَتَبَ إليها، قبل أن يفقدَ الأملَ لا أكثرَ ولا أقَلَّ، لَعِبَ بفكرةِ إمكانية أن جوته هايم قد تكون ميتة.

ربما كانت في سبيلِها لرؤيةِ أهلِها فصَدَمَتها سيَّارةٌ في الطريق.

كان ذلك ممكنًا. وكان ذلك ممكنًا أن من كان يَتَسَلَّمُ خطاباتِها رمى بهم في سلَّةِ المهملات بمجردِ وصولِهم.

ربما كانت هاجعةً في سلام.

نيللا، كانت مُريحةً للغاية، تلك الليلة مع نيللا، تلك الليلة الأُولى مع نيللا.

صعدا إلى شقتِهما، صبًّا لنفسيهما شرابًا. حينئذٍ على الأريكة، تحت الدُّش.

في فِراش نيللا الوسيع الذي تتناثرُ عليه الدُّمى المصنوعةُ من القُماش. تَحْتَ البطانيةِ ذاتِ الرَّائحةِ العذبة. رائحتُها كرائحةِ شَعرِ نيللا الرَّطب، عَذبَةُ الرائحة كرطوبةِ نيللا.

نيللا التي وَجَدَت ذلك مُريحًا أن تُمارِسَ الحُبَّ مَعَه في تلكِ الليلة. الليلة التي انقضت سَريعًا.

لقد أدركا الأشعةَ الأُولى للفَجرِ عَبْرَ النَّافذةِ العَريضةِ في حُجرةِ المعيشةِ التي تُواجِهُ غرفةَ النَّوم.

نيللا، الفتاةُ التي قالت أنَّها لم تقضِ ليلةً طويلةً مع رجلٍ من قبل كهذه الليلة.

وإريك الذي لم يكُن بوسعِه أن يُصَدِّقَ هذا.

امرأةٌ مثلك؟ مُحال. طالما ليس هناك رجالٌ مُهذَّبون هنا ينالونها.

كل واحدٍ منهم عزبٌ. لكن ليسَ لليلةٍ واحدة، ليلة واحدة، مُحال.

هل صادفَ توقعاتها؟ ماذا تعتقد؟ ليس لديّ فكرة؟ هيا! لا، حقًا، ليس لدي فكرة؟ لكنْ ماذا تعتقد؟ لا أدري. هيا! ألا تريدينَ أن تخبريني؟ أُخبرُك بماذا؟ تعالي أخبريني بم تفكرين. حسنًا أخبريني ماذا تريدين أن تقولي. هل أرضيتُك. هل فعلتُ؟ ماذا تعتقدين؟ ليس لدي فكرة.

هيا! ألا تريدين إخباري؟ أُخبرك بماذا؟ هل أرضيتُك أم لا؟ لا ريبَ. وأنتِ أيضًا.

بدلاً من أن تيقظَهم، ساعَدَتهم الشَّمسُ على الاستغراق في النَّوم.

شَعَرَ بالإنهاك.

قال وداعًا للجميع وذكَّرَهم أنه سيراهم غدًا.

– إريك، أواثقٌ أنت أنَّك لن تأتي؟ إننا لن نتأخَّر.

– سأراكم غدًا. إنني سأنام.

بينا هو يديرُ المفتاحَ في البابِ الأمامي إذا به يسمعُ جَرَسَ الهاتِفِ يَدُقُّ. من ذا يكونُ في هذا الوقت؟

حاولَ أن يتجاهلَ الأمرَ لكنَّ الهاتِفَ راحَ يَدُقُ بإصرار.

– هاللو.

– هاللو عزيزي تروفالد، إنها نورا.

– هاي تانيا، ماذ هنالك في هذه الساعة؟

– هل ستنام، عزيزي تروفالد؟

– نعم، إنني متعبٌ اليوم. ربما لأنَّها كانت ليلةُ الافتتاح، أليسَ من المفترَضِ أن تكوني قد خرجتي مع الآخَرين؟

– لم أُحب ذلك.

– حسنًا. إذن فقد ذهبتِ إلى البيت؟

– أنا في بيتي مثلك.

– حسنًا.

– أمْ أنَّ ابنتَك معك هناك؟

– لا إنها لدى عمَّتِها، أليست هناك.

– حسنًا إذن يمكنك دعوتي إلى فنجان قهوة.

– في هذه الساعة؟

– لِمَ لا؟

– لدينا أداء مسرحي غدًا، يا تان.

– ثمَّ ماذا؟

– لا أدري، حقًّا، إنني متعبٌ للغاية. قد أنضمّ إليك رغم ذلك.

– لستُ مع الآخرين، ألم أقل أنني بمفردي؟

– لِمَ لا تنضمين إليهم؟ اعتقدت أن سهرة الليلة فكرتُك.

– فكرتي، نعم، لكني حين أدركتُ أنَّك لن تأتي فقدتُ حماستي.

– أنت بمفردِك الآن، أليس كذلك؟ ألكساندرا خارج الصورة، أليس كذلك؟

– نعم.

– حسنًا إذن؟

– حسنًا ماذا؟

– كلانا بمفرده.

– إنه منتصفُ الليل تقريبًا، يا تان.

– هذا صحيح.

– ماذا عن الغد، ما رأيُك؟

– إريك من يدري ما الذي سيجيءُ به الغد؟

– ماذا تعنين بمَن يدري؟ لدينا أداءٌ مسرحي غدًا.

– نعم، بعدَه سوفَ تختفي ثانيةً لأنَّك مُتعَبٌ، أليس كذلك؟

– ألستِ متعبة؟

– ربما قليلاً.

عن قربٍ، ثمةَ نفحةٌ من الماكياج ما زالت عالقةً حَولَ تانيا. نَفْسَ تسريحةِ الشَّعر حين لبَّت نداءَ ستارِ المسرحِ مع إريك.

قضت الليلةَ مع إريك على جانبِ الفِراش الذي كان منذ أسبوعٍ فِراشَ ألكساندرا.

كلُّ شيء أضحى بسيطًا للغاية وسَهلاً بالنسبة لإريك: الفِراش نفسه، الملاءاتِ نفسها ليلةَ ألكساندرا، جانبِ الفِراش نفسه حيث نامت تانيا الآن مُحدِثَةً صَخَبًا.

علَّمته التجربةُ أن يكتشفَ إذا ما كانت المرأةُ راغبةً أم لا.

ثمَّ حَدَثَ ثانيةً أن استخدمَ الممثِّلون شفرةً سِرِّيَّةً ليفهم بعضُهم بعضًا فيما بينهم.

أدركَ وهلةً أن تانيا مهتمةٌ، أو على الأقل مُهتمةٌ إلى حدٍّ ما أو أكثر من ذلك. لكنَّ الأُسلوبَ الذي حَدَثَ به كلُّ شيء بدا سهلاً للغاية، أسلوبٌ سهل للغاية في الواقع.

ليزا أحبَّت ما أرادته في هذه الليلةَ، لكنَّها لم تعرفْ بَعدُ الأنباءَ الطيبةَ بأنَّ ألكساندرا عادت من حيثُ أتَت، أنَّها سافرت بعيدًا ولن تعود.

تانيا عَرَفَت قَبْلَها وانتهزت الفرصة.

رغمَ الإنهاك الشديد، بَعدْ تَغُطُّ تانيا،بسهولةٍ كبيرةٍ، في نومِها أوَّلَ مرَّةٍ في فِراشِ ألكساندرا، يَنْسَلُّ إريك بعيدًا عنها، ويدخلُ إلى حجرةِ مكتبِه.

أمامه ورقةٌ صفراءُ مُشرقةٌ في الضَّوء المعتم من مِصباحِ المكتب.

عزيزتي جوته، لن أقولَ بأنني رَجلٌ أميٌّ تمامًا، شيء طيبٌ آخر، وإلا ما التقينا. لا أدري لماذا لم تَرُدِ على أيٍّ من خطاباتي.

لابدَّ أنَّهم وصلوكِ، وإلا لعادوا إليَّ بخاتَمِ البريد.

إنني أكتبُ إليكِ هذا الخطابَ في مُنتصفِ اللَّيل.

ليس ببعيدٍ عن هنا يُشيِّدون بالفعلِ أكشاكًا لسوقِ صباح السبت.

جوته، إنني وحيدٌ الآن، لقد ذهبت. لا تقلقي، ليس هذا بسببك. أو حتى بسببي.

رمادية هي السماءُ هنا رغمَ ذلك فالشَّمسُ قد تُصيبُك من شروقِها عليك طيلةَ العام.

لكنَّ ذلك لا يَهُمُّ وأنا أذكر ذلك لك لأُريحَ عقلَك أن ليس لك دوْر كي تؤدينَه في هذا الشأن.

أنتِ تنتمين إلى قصَّتي الشخصيةِ فحسب.

ورغم أنَّكِ لم تردي على خطاباتي بَعد، لا يُمكنني تخيّل اختفائِك من حياتي.

إنني أحلُم بصوتِك، أحلُم بوجهكِ ويديك وصدرِك ومِشيَتِك.

ثم أتذكّر الأسلوبَ الذي به عدوتِ مع تلك الصديقةِ التي كنتِ معها ولستُ أفهمُ لمَ فعلتِ ذلك بي.

جوته، اكتبي إليّ. اكتبي إليّ ما إن تفرغي من قراءةِ هذا الخطاب. اكتبي يا جوته.

الآن يطفئ المصباحَ واعتادت عيناه الظلام، يلحظُ الإشاراتِ الأُولى للصباح متسلِّلاً من مكانٍ ما.

صباح، سرعان ما ستضيء الدنيا ولم ينمْ بعد.

تانيا في الطابق الأعلى، هكذا فحسب، على غير المتوقَّع.

يتذكَّرُ سجائرَه والقدَّاحةَ على مكتبِه. سيجارةٌ في هدوءٍ في الظلام.

رغم أنَّه يغالبُ النُعاسَ لم يصعدْ للطابقِ الأعلى كي ينام.

تانيا في الطابقِ الأعلى وتانيا، على الرغم من العديد من الأوقاتِ التي عمل فيها معها، ورغم الليلة الفائتة، دخيلةٌ.

دخيلة جدًا كجوته هايم، لكنْ مُختلفة.

لم يُضمِر كثيرًا من الاهتمامِ بتانيا.

ممثلةٌ جيدة، الجمهورُ مُعجَبٌ بها ورفاقُها الممثلون، جميلةٌ، هذا حقّ، ولكنْ مثلما إريك شيري قَلِقٌ للغاية، فإن تانيا ممثلةٌ يَعمَلُ معها على نحوٍ مُتَكَرِّرٍ فحسبْ، لا شيء آخر.

هذا حافزٌ ليوقظَها ويَطلبَ إليها أن تغادرَ لأنَّه مَشغول.

والآن هو بحاجةٍ لأنْ يتحمَّلَ مسؤولياتِه: لأجلِ نفسِه، لأجلِ ابنتِه النائمةِ لدى عمَّتِها.

يحتاجُ لأن يبدأ العنايةَ بها، لأن يقضيَ وقتًا أطولَ معها.

جميلٌ وجودُ عمَّةٍ غيرِ متزوجةٍ كي تحبَّها عِوَضًا عن جدتِها، لتحبَّها كما لو كانت ابنتها.

ما إن علمت تيسي عن ألكساندرا مغادرةً أخيرت شقيقَها بألا يقلق، بوسعِه مواصلةَ عَمَلِه في المسرح وستعتني هي بابنتِه. عادي. وبينما يَلفُظُ آخِرَ سحابةٍ من الدُّخان، يغمضُ إريك عينيه ويسمحُ لكُلِّ شيء بأن يَنْسَلَّ بعيدًا عنه، حتى الضجيج المتنامي تدريجيًا من السوق.

– صباحُ الخير إريك.

أمامَه، مشوَّشٌ جسدُ تانيا العاري.

– إنَّها التاسعة والنصف.

– بالفعل؟

– هل أخفتُك ليلة البارحة؟

– يتحرَّى إريك الوقت. إنَّها العاشرة إلا ثلثًا.

– صحوتُ مبكِّرًا في الصباح لأتأكَّد أن النوافذَ مغلقةٌ لأنَّها كانت تُمطر. ثمَّ قرأتُ قليلاً وغفوتُ ثانيةً.

– هل تُحبُّ أن أتركك؟

– كما تُحبين.

– أبوسعنا تناول القهوة على الأقل؟

– بوسعك البقاءَ كما تُحبين، تان.

– لا، شقّتي غير مرتبة ويَحسُن بي الذهاب لأن أفعلَ شيئًا. والليلة ليلتُنا الثانية.

– إسدِ لي معروفًا يا تان، لأنني لن أخرجَ الآن.

– أكمِلْ.

– هلا أرسلتِ هذا الخطابَ من أجلي؟

تنظرُ تانيا للمظروف. برلين.

– هلا ذهبنا إلى هناك في وقتٍ ما؟

– أين؟

– برلين.

ثمةَ حائِطٌ في برلين يَقسِمُ المدينةَ إلى اثنتين.

ثمةَ ميدانٌ في برلين يُدعى ميدان ألكسندر.

كثيرٌ من اللون الرمادي في برلين، وبعضُ الأخضرِ الداكنِ أيضًا.

هناك الكثيرُ من النَّاسِ في برلين ومن الصَّعبِ وصفُهم.

هناك ضبَّاطُ بوليس يرتدون الأخضرَ وأشخاصٌ يرتدون بزَّاتٍ رماديةً وسِتراتٍ تومِضُ في الليل.

جوته هايم في برلين أيضًا. جوته هايم لم تَرُدْ على خطاباتِه قط.

لكن فالنتينا أرسلت إليه خطاباتٍ، واحدًا في كُلِّ شَهرٍ أو خطابًا في كلِّ ستةِ أسابيع.

لا شيء على وجهِ الخُصوص، ولا على الأقلِّ الشيء الذي يَرغَبُه، هذا الشيء على سبيل المثال:

إنني أكتبُ من مطعم البيتزا.

اليومُ ليس مزدحمًا للغاية. البارحةَ كنتُ مع نيللا.

هي ترسل بحبها،

أو:

وددتُ لو غادرتُ مطعمَ البيتزا لكنني لستُ متأكِّدةً أن بوسعي أن أجدَ شيئًا آخر الآن.

لو أنني أجِد، سأُغادر، أو:

ربما سأعودُ إلى ميلان، وفي نَفْسِ الوقتِ أنا ونيللا نرسلُ إليكَ حُبَّنا من برلين.

فالتينا، نيللا وجوته هايم.

في اليوم الذي غادرَ فيه صقلية، عاد فاسكو روسي في الفيات أونو الحمراء بحياتِه التعليمية السيئة، والتي لم يَنَمْ فيها إلا طيلةَ ثلاثةِ أيامٍ ولياٍل مع نيللا، مستقلين الفيات أونو الحمراء رقم واحد يرقدان أينما أرادا، طالما هما عاريين، غير مباليين بالوقت.

على مقربةٍ من المطار بدأت تصيرُ عاطفيةً لكنْ إريك يواصِلُ بحثَه في حقيبتِه ليجدَ جوازَ السَّفَرِ الأخضر بينا فاسكو يتمنى له رحلةً آمِنة.

كُلُّ شخصٍ عليه أن يَحمِلَ عبئَه الخاص، كلُّ واحدٍ ورحلتُه في الحياة، كُلٌّ يَختلِفُ عن الآخر، الواحدُ يَستغرِقُ في أفكارِه وأفعالِه الخاصّة.

ستدوم الرحلةُ عشرين دقيقة.

مايو بنسيمه الرُّمادي الدفيء.

بعد أن وصلته أنباءُ ليزا السيئة، وصلَ خطابٌ من إيطاليا. من نيللا.

أوَّلُ خطابٍ يَصِلُ من نيللا. وقد كتبت نيللا إليه على الرغمِ من أنَّها رأت أنه ليس من الحكمة أن تكتبَ له.

لكن كان يَتَوَجَّبُ عليها أن تكتبَ إليه. وأخبرته بأنَّ الموتَ يَحومُ حين تتوقعُه على الأقلِ. لم يكُن يتوقَّعُه أيضًا. لم يتوقعْه أحد.

انتظرَ إريك الخطاباتِ من جوته هايم- ولم تَصِلْ.

لقد اعتادَ على الانتظارِ سُدى.

وهكذا آخِرَ جملةٍ كتبَها في اليوم الذي يَسبِقُ عودتَه، أثناءَ ذلك الشَّهرِ السَّاحرِ مايو، على كارتٍ بريديٍ فيه تختفي الشَّمسُ خَلْفَ حِصنٍ منيع، وأبراجِ كنيسةٍ تتحه صوبَ سَماءٍ أُرجوانيةٍ، كانت هذه الجملة:

آملُ أن تَرُدِّي على خطابي.

استلم خطابًا كلَّ شهر وانتهوا جميعًا بهذه الكلمات:

إلى أن نلتقي ثانيةً.

– ما المشكلة؟

تدرك أنَّه استيقظ فجأةً ويضعُ يديه فوقَ رأسِه الرَّطب.

– لا شيء. الكهرباءُ انقطعت.

ويدركُ أنَّه متعرقٌ ويَحترقُ من الحَرِّ.

– يا يسوعَ المسيح! إنَّها المرَّةُ الثانية هذا الأسبوع. وإنه مُنتَصَفُ الصيف.

– لا شيء سيحدث..

– كم السَّاعةُ تعتقد؟

– بعد الرابعة صحوتُ منذ الثانية والنصف. اعتقدتُ ذلك دقَّت السَّاعة.

– لِمَ لم توقظني آنذاك؟

– لِمَ؟ لكي تُروِّحي عني؟

– ربما بوسعِنا أن نروِّحَ عن بعضِنا البعض.

ببعضِ الجَهدِ ينهضُ إريك وظهرُه رطبٌ والملاءةُ التي كان راقدًا فوقَها مُبتلَّة. يَتَتَبَّعُ الضوءَ الشحيحَ الذي يُريه طريقَ بابِ الشُّرفةِ ويَخرُجُ للبراح.

ليس هذا الذي يصنعُ فارقًا: تحييه حرارةٌ شديدةٌ من الأمسِ وأوَّلِ البارحةِ والشهرين الكاملين قبل ذلك، عَلِقَت فوق جذوع الأشجار، عَلِقَت بأوراق الأشجار في موتِها المِبَاغِت.

يَتَمَدَّدُ إريك ويَشعرُ بتعبٍ شَديد.

يُشعِرُه السكونُ بالإعياءِ والصَّمتُ التَّامُّ مثيرٌ للغضب.

هو لم ينل قِسطًا وافرًا من النَّوم مُؤخَّرًا.

هو يخشى الخلودَ إلى النَّوم. الصَّمتَ، السكونَ، الظُّلمةَ، الوحدةَ التي تُغيرُ عليه كُلَّ عِدَّةِ دقائقٍ عَبْرَ النَّهارِ وتَظَلُّ معه طيلةَ اللَّيل.

مؤخَرًا راحَ يتذكرُ كثيرًا مِنَ الأشياءِ، ثانيةً.

– هنا، حقنُك ببعضِ الماء. ليس باردًا على الإطلاقِ لأنَّ الكهرباء كانت منقطعةً فترة.

كوب زجاجي كبير ممتلئٌ إلى حافَّتِه. شَرِبَ نصفَه جرعةً واحدة.

– ماذا الآن؟

– سننتظرُ حتى تعودَ الكهرباء. ليس بوسعِنا أن نفعلَ شَيئًا، أليس كذلك؟

– أحتاجُ إلى الذِّهابِ إلى البيتِ هذا الصباح. ميلدريد ستُحضرُ ابنتَها لقليلٍ من الوقت.

– متى؟

– سأغادِرُ حوالي السابعة والنصف، ربما لن أستغرقَ طويلاً حتى آتي.

– سآخذُك إلى هناك.

– انسَي ذلك! ستتورطين في الزِّحام المروري وستتأخرين. سأذهبُ بمفردي، ألحقُ أتوبيسًا وأصِلُ وقتما أصِل. يجب أن أكونَ في البيتِ قبل التاسعة إذا ما غادرتُ في السابعة والنصف.

– لا تعتمدْ علي ذلك.

آخِرُ أسبوعٍ في سبتمبر. عند السادسةِ صباحًا، بدأت الأزياءُ المدرسيةُ الجديدةُ تَعِنُّ في جماعاتٍ في الزوايا، في انتظارِ أتوبيساتِ المدرسة. الطوابير

تصيرُ أطولَ وأكثرَ غضبًا. أطولَ وأكثرَ غَضَبًا. إريك يُحدِّقُ في دهشةٍ في الزحامِ المنتظرِ عند موقفِ الأتوبيس وصفٌّ طويلٌ من العرباتِ يَتَلوَّى قبالَتَهم.

– شيءٌ طَيِّبٌ أن أخذتُ بنصيحتِك.

– لقد أخبرتُك، ألم أفعلْ؟ لا شَكَّ ما كان لك أن تفعل. كنتَ ستتأخَّرَ وكانت ميلدريد ستسألُك أين كنتَ في ذلك الوقتِ من اليوم.

– لم يخطرْ هذا ببالي.

– ماذا كنتَ ستقول؟

– ليس لدي فكرة.

– هل أُقِلَّك غدًا أمْ أنَّ ميلدريد سَتَصحَبُك؟

– غدًا؟

– إريك، أنت غدًا يَجِبْ أن تذهبَ للمستشفى. لديكَ ميعادٌ في الثامنة، بمعنى أنَّك يجب أن تكونَ هناك في السابعة على الأقَل، أخذتُ اليومَ إجازةً لذا بوسعي أن أُقِلَّك إذا ما أردتَ لكنْ إذا ما أردتَ الذهابَ مع ملدريد، فهذا حَسَن.

– إنني حتى لم أُخبرْ ميللي عن موعدِنا.

– حسنًا أعملْ عقلك: هل آخذُك أم هي؟

– بوسعي الذهابُ بمفردي، تدرين.

– حقًّا! في كُلِّ هذه الحرارة، والفوضى مع الباصات. أعملْ عَقلَكَ فَحَسبْ إذا ما كنتَ تُفَضِّلُ الذهابَ معي أمْ مَعَها.

– لا، لا أُفَضِّلُ الذهابَ معها، على كُلٍّ فإنني لا أعرفُ حتى جدولَ مواعيدِها غدًا.

– حسنًا عليك أن تتأكَّدَ إذا ما كانت تحتاجُ أن تَتْرُكَ ابنتَها معك غدًا، لأن تلك ستكون مشكلة.

– لا، بوسعها الإقامةُ عند تيسي. إنَّها قادمةٌ لشقّتي غدًا لأنّ تيسي بحاجةٍ للذهابِ إلى المستشفى، إنّ ذلك لليوم فَحَسبْ. اثنانِ طيّبانِ نحن، كلانا قادمٌ وذاهبٌ إلى المستشفى.

– أنت لم ترَ تيسي لفترة أيضًا. لابُدَّ أن تزورَها بَعْضَ الوقتِ هذا الأسبوع.

– هذا حقّ. إذن هل بِوِسْعِك أن تُقلّيني بسيارتِك صباحَ غَد؟

– لا، سآتي إليك الليلة وسوف نُغادر معًا غدًا صباحًا. ألا ترى كيف هو المرور؟

– إذن ستمكثين في شقّتي؟

– إذا لم تُفضّل النَّومَ في شقتي. لكنّ الطريقَ أقصرُ من شقَّتِك إلى المستشفى.

حجرة الاستقبال في المستشفى مُزدحمة. بعضُ النَّاس يقولون بأنَّهم منتظرون لأكثرَ من ساعتين.

بعضُهم يقولون بأنَّ الأطباءَ الاستشاريين لم يَصلِوا بَعد.

ثمةَ رَجُلٌ يَصيحُ ويقولُ بأنَّ المُمَرِّضَةَ سَمَحَت للأعضاءِ من الحَلْقَةِ الداخليةِ لتخطّي الطابور.

تقولُ المرأةُ التي إلى جوارِه أن والدتَها، التي تَجلِسُ إلى جوارِها في الجانبِ الآخَرِ في حاجةٍ إلى دوائِها لكنْ ليس هناك دواء.

والرجلُ الذي إلى جوارِها يذكِّرُها أن السَّمكةَ الصغيرةَ لم تَبتَلِعِ السَّمكةَ الكبيرةَ قَطّ.

ترفعُ امرأةٌ رأسَها من لعبةِ السودوكو وتقولُ أنَّ رياحَ التغيير تَهُبُّ جيدةً وقويَّةً وليس بوسعِ شيء أن يوقفها.

الجميعُ يوافقون.

اعتادت ليزا المجيء إلى أحدِ هذه الأجنحة، وهي غاضبةٌ من النتائجِ التي حصلت من الطبيبِ الإخصائي.

بعد ساعةٍ ونصفِ الساعة من الوقت الذي طُبع على خطابِ التخصيص الأبيض، سُمِحَ لإريك شيري بالدخولِ إلى حجرةٍ مليئةٍ بالشَّاشاتِ والآلاتِ الغريبة.

– إريك شيري؟

– نعم.

تخلعُ الممرضةُ نظارتيها.

– مدام، هلّا انتظرتِ بالخارج إذا سمحتِ.

– أليس بوسعِها المكوثُ معي هنا؟

– الطبيبةُ الاستشارية ستراكَ الآن وسيتَطَلَّبُ الأمرُ أن تراكَ بمفردِك بسبب الجهاز. يمكنُك البدءَ بخلعِ قميصِك لتشغيلِ جهازِ فَحصِ القلب.

دينيس هل استدعيتِ قِسمَ جهازِ فحصِ القلب؟

دينيس، الممرضةُ الأُخرى، تتوقّفُ عمَّا تفعلُ وتضغطُ على أربعةِ أزرار في الهاتف. ينظرُ إريك شيري إلى الآلاتِ الغريبةِ التي مِنْ حَولِه ثم ينظرُ نحو دينايس التي تلاحظُ أنَّه ينظرُ إليها وتبتسم، ثم ينظرُ في النِّهاية نحو الممرضةِ التي ترتدي الأزرقَ الداكنَ والتي على الأغلبِ نَسَيت كيف تبتسم.

عيونُ المُمَرِّضَةِ التي ترتدي الأزرقَ تبدو صغيرةً إلى وجهها لكنَّ شفتَيها جميلتان. ربَّما كانت في الستّين من العُمر.

– مستر شيري لُطفًا هلا خلعتَ قميصك؟ ورقدتَ. لا، لا، اخلعه واخلع بنطالَك أيضًا.

آن أخبرتها بالأنباء، قطعت ليزا كلَّ اتصال.

لقد هاتَفَها عِدَّةَ مرَّاتٍ لكنَّها لم تَرُدْ. لقد رآها مرَّةً، أثناءَ انهمارِ المطَر، وهي في طريقِها إلى عملِها، تحتمي بمظلَّتِها وتُهَرْوِلُ قُدُمًا بأسرعِ ما تستطيع.

ذاك أراحَ عقلَه. فهاتَفَها في عَمَلِها.

– ماذا تريد؟

– ماذا تعتقدين؟ أُريد رؤيتَكِ.

– دعني وشأني، يا إريك.

– أدَعُكِ وشأنك؟

– دعني وشأني فَحَسبْ، اتركني.

– أليسَ لديكِ من وقتٍ فراغ؟

– من أجلِ ماذا؟

– تعالي.

– إذن ليس لديك من أحدٍ الآن؟ هذا ليس أنت.

– إذن متى آتي؟

– لن أعجبك حينما تراني.

– وماذا لو أخبرت أنني رأيتُكِ بالفعل؟

– متى؟

– رأيتُكِ ذاهبةً إلى العمل.

على النَّقيضِ مما كان يجري من قبل، ذهبت ليزا إلى مكانِ إريك بعد حلولِ الظلام.

توقفت ليزا عند البابِ الأمامي. كانت سترتُها كبيرةً للغايةِ وحذاؤها الطويلُ غارقًا في المطر.

هي ترتدي قبعةً داكنةً من القُماشِ على رأسِها. ليزا واقفةٌ لدى البابِ، تُحَدِّقُ فيه بنظرةٍ بينا راحَ هو يُحَدِّقُ فيها بثبات.

– تفضلي. لِمَ تقفين هناك؟

– أتودُّينِ أن أدخلَ بالفعل؟

– قهوة؟ اخلعي سترتَك.

ببطءٍ تخلعُ ليزا سِترتَها وتُلقيها على المِقعَدِ المجاور.

– ماذا الآن؟

ليزا لا تتحركُ. إنَّها تنظرُ إليه من حيثُ هي واقفةٌ وينظرُ هو إليها.

بدا أنَّها أضحتِ أكثرَ سِمنةً، إنما مُتورِّمَةً، بعضَ الشيء. وجهُها أعرَضَ ومِثلُ ذلكَ كُلُّ جِسمِها.

– هلا خلعتِ كُلَّ ملابِسِك؟ لقد انتظرتُ هذا دهورًا.

– كُلُّ شيء؟

– أليسَ هذا ما اعتدتِ فعلَه من قبل؟ هيا يا ليزا، هل تَدرينَ منذ متى كان ذلك؟

– تريدني أن أخلَعَ كُلَّ ملابسي؟ حتى قبَّعتي؟ أمْ أترُكُها على رأسي؟

– كُلَّ شيء.

– لا أعتقد بأنَّك ستُحِبُّ ذلك.

– لن أُحِبَّ ذلك؟

– ما سترى.

– سنصنع القهوة فيما بعد، ما رأيُك؟

– تواصلُ ليزا التَّحديقَ في إريك وتراه يبدأ في خَلْعِ ملابِسِه شَيئًا فشَيئًا، وهو يبتسمُ لها. لم يخلعْ إريك ملابِسَه من قَبْلُ هكذا.

– ماذا تفعل؟

– أتعرّى. أتعلمينَ منذ متى لم أفعلْ؟

– وكنتَ تمتنعُ طيلَة هذا الوقت، إنني متأكدة.

– هذا حقّ.

– أتريدني أن أُصدِّقَ هذا.

– ليزا، لقد فعلتُ أشياءَ كثيرةً معكِ وفعلتُ أشياءَ كثيرةً لكِ، إلا هذا الشيء، لم أكذبْ عليكِ قَطّ ، لم أعُدْ ابنَ العشرين.

– لكنَّكَ لا تَزالُ تريدني.

– إنني حقًّا أُريدُك.

– بالرَّغمِ من ذلك؟

إنَّه ليسَ كذلك تَمامًا. هو يعرفُ هذا أيضًا. هو لم يتجردْ من ملابِسِه هكذا من قبل.

هو عادةً يَدَعُها تعتني بِكُلِّ شيء. لكنْ ليس اليوم. إنَّها لعبةٌ جديدة.

مع ليزا هنالك دومًا شيء ما جديد يَختَمِر.

ربَّما هذا هو السببُ في أنَّه واصَلَ البحثَ عنها طيلةَ هذي السنين. إنَّها تعرفُ ما يُحِبُّه، وهو يعرفُ ما تُحِبُّه. يعرف بعضَهما بعضًا، رغمَ أنَّها تغيَّرت قليلاً.

ثمَّ ابتسامةٌ غريبةٌ على وجهِه، وعيناه ضاقتا قليلاً كما لو أنَّهما تَنْصَبَّان أكثرَ على ما سينكشِف.

راحت ليزا تتعرّى بينا تنظرُ إليه، وهو إليها ينظر، مثلما يفعل هو.

– أخبرني أنك تريدني.

– ألا تعرفين؟

– أخبرني.

– أُريدُك.

– كم ذا تريدُني؟

– تعالي، أتريدين أن تلعبي؟

– نعم، لكن ليس لعبة الكلمات.

– كم ذا تريدينني؟

– أريدُك للغاية. الآن تعالى واخلعْ ملابِسَك.

– تعرفين أنني لم أرْكِ تتعرين من قبل؟ دائمًا ما اعتقدتُ أنَّكِ خائفةٌ من التعرّي أمامي.

– خائفة؟

– نعم، خائفة. التقينا لسنواتٍ ولم تفعلي ما تفعلينه اليوم، إذن ما الذي تغيَّر فيكِ؟

– لا تسألني هذا الآن وإلّا ستفسِدُ كُلَّ شيء. استمر.

الآن كلاهما عارٍ يواجِه الآخَر.

– تعلمين أنَّك ما زلتِ جميلة.

– ثدياي لا. ألا ترى حيثُ أُجريت لي عملياتٌ جراحية؟

نظر إريك عن قُربٍ ولاحَظَ اللسعاتِ القبيحةَ في بَشرةِ ثديها الأيسر.

لكنْ كلما نَظَرَ إلى الثلم أكثرَ، شَعَرَ أنَّه يريدُها أكثر. يأخذُها بينَ ذراعَيه.

– انتظرْ يا إريك. كم ذا تريدُني؟

– أُريدك للغاية، ألستِ تعلمين ذلك؟

– أأنت متأكِّد؟

– اسمعي، أخبريني شَيئًا واحدًا فَحسبْ، لِمَ جئتِ هنا هذه الليلة؟

– أنت طلبتَ إليّ ذلك، ألم تفعل؟ لذا جئت.

– لكن هل أردتِ المجيء أم لا؟

– إلى أيّ حدٍّ تريدني؟

– هل يرى بعضَنا بعضًا؟

– إذا ما أردتَ ذلك، عليك أن تخبرني إلى أي حدٍّ تريدني.

بدلاً من أن يخبرَها إلى أي حدٍّ يريدُها، رمى بنفسِه على مَقعدِ فوتي.

– إلى هذا الحدّ. أترين؟

– ابقَ حيثُ أنت. يا سيد شيري، سوفَ نُعمِلُ الآلةَ، مُستعد؟

أعتقد أن أحد طرفي الأسلاك فقد الاتصالَ، لا تتحركْ وإلا انفصلَ ثانية.

بيسرٍ تنزلقُ الأصابعُ في صَدرِه ويَشعرُ هو ببرودةِ مادة الجيل.

ثمَّ صوتُ صفيرٍ خافتٍ ثم بدأت الشَّاشَة بعرضِ جبالٍ صغيرةٍ ذاتِ قِمَمٍ مُحزَّزَة.

البروفيسور سافونا ترتدي مِعطفًا أبيض، تنظرُ إلى الشَّاشَة بوجهٍ كالمِرْمَرِ ثُمَّ تضعُ نظارتي القراءةِ وتنظرُ نحو جهازِها الآلي.

– دينيس، اتصلي بالمسرح وأخبريهم أنني سأكونُ هناك خلالَ خمسٍ وأربعين دقيقة.

تضغطُ دينيس أربعةَ أرقام في الهاتفِ وتُخبِرُ الشخصَ الذي على الجانِبِ الآخَرِ أن البروفيسور سافونا ستكونُ هناك خلالَ خَمسٍ وأربعينَ دقيقة.

– جهازُ القلب. يا كارمن، أعِدِّيه للقياسِ الآن.

– هل سنعمل الترددات الآن، بروف؟

– يجدرُ بنا ذلك.

تقفُ كارمن في زيِّها الأزرقِ الداكنِ وتُطفئُ جهازَ القلب.

– دينيس بِوسْعِك الاتصال. جهازُ القلبِ أتمَّ عملَه.

تَضْغَطُ دينيس أربعةَ أزرارٍ على الهاتف. وبينا هي تَتَرَقَّبُ رَدًّا تنظرُ إلى إريك شيري وتبتسم.

– كيف تَشعُرُ يا سيد شيري؟

بين بين، بروف.

– ماذا تعني بينَ بينَ؟ هل تتألَّمُ؟ هل تَشْعُرُ بِضَغْطٍ في صَدرِك؟

– لا، ليس تمامًا. لكنْ أحيانًا أشعُرُ أنني متعبٌ قليلاً.

– قليلاً أمْ كثيرًا؟

– حسنًا، أكثرَ من المعتادِ أعتقد.

– نعم، لكنَّك أجريتَ عمليةً رئيسة، هذا متوقَّع، أليس كذلك؟ هل هاتفتِ المسرح، يا دينايس؟

– نعم، بروف.

– هل أدَلِّكُ الصدرَ بالجيل الآن يا بروف؟

– نعم كارمن، إذا سمحتِ.

تُزيلُ كارمن الأسلاكَ، تَضغَطُ أنبوبَ الجيل ويَشعُرُ إريك ببرودةٍ على صدره. كانت عيناها تُحدِّقانِ بنظرةٍ خاويةٍ في نقطةٍ ما بين عينيه وصدرِه.

– إلى أيِّ حدٍّ تُحبّني؟

– وهكذا مرَّت سنون عدَّة وما زلتِ تسألين ذاكَ السؤال.

– وما زلتَ تتجنّبه.

– انتظرتُك زمنًا طويلاً، لم تردّي حتى على الهاتِف.

– كانت لديَّ أشياءُ أُخرى أُؤدّيها. يجب أن تعرف.

– إنني أعرف.

– لا، لستَ تعرف. انظر هنا.

تنتزع ليزا قبعتَها القُماشَ بينا لا تزالُ تُبادِلُه النَّظَر. تراه يزدرد ريقَه ما إن ير رأسَها الأصلعَ، أبيضَ، مشرقًا، غريبًا، صغيرًا بالنسبة لبقيةِ جسدِها. أو كبيرًا للغاية. مشوَّهًا في قُبحِهِ البيضاوي.

صمتٌ.

– ألا تزالُ تريدُني الآن؟

حوالي منتصفِ اللَّيل، تَتركُ ليزا المنزل، رأسُها مغطًى بالقبَّعة.

عاريًا يمكثُ إريك، ظَنَّ هكذا فترةً طويلةً الآن، ودَخَلَ إلى حَمَّامٍ مُمتلئٍ بالماءِ الساخن.

في عينيه جسدُ ليزا العاري، مجرَّدٌ من الملابس، مجرَّدٌ من كلِّ شيء: بشرةٌ ناعمة، رقيقة، بيضاءُ سوى حلماتِها، إحداها بها لسعة.

في عينيه جسدُ ليزا الجديدُ للغاية. وهناك تحتَ الماءِ الساخنِ أُستثيرَ ثانيةً وهو يَسمعُ تأوهاتِ ليزا، تصرخُ بأعلى ما في صوتِها، تبكي دونما حزنٍ.

لم يتبقَّ سنتيمترٌ واحدٌ من جسدِها لم يمارِسْ الحُبَّ في ذلك اليوم.

منحته ليزا أشياءَ لم تمنحْها له من قبلُ، جعلته لها، استخدمته كما أرادت، بذاتِ الطريقةِ التي أرادَها بها لكنَّه كَبَحَ نفسَه، لقد فَتَحَت مَسامَها له بعد شهور من اليأسِ والخوف، تحكَّمت في حياتِها وكافحت الموتَ الذي زارَها ونَظَرَ إليها وابتسمَ، لقد تَغَلَّبَت على الألَمِ وغثيانِ المِعِدَة، لأجلِ ليالٍ من البُكاءِ والتحديقِ في الظُلمة، والفراغِ الذي دارَ في عقلِها، من أجلِ مشاهد نهايةٍ بيضاء وسوداء لم تتخيلها من قبل، من أجلِ مشاهد لا لونَ لها تُبرِزُ والدتَها، منذ زمنٍ طويل.

وبَكَت بصوتٍ مُرتَفِعٍ ثانيةً، عِدَّةَ مرَّات، نَسيَ عَدَدَها. حتى هي نَسَت عَدَدَها. لقد استمتعَ بها على نحوٍ تام، تَرَكَها تُنهِكُه وتستخدِمُه كما أرادت.

تَرَكَ صدرَها المشوَّه يَضغَطُه، ولقد أحبَّ تلكَ الندوبَ القبيحةَ المنثنيةَ في لحمِها.

وقد جعلته ينظرُ إليها طيلةَ الوقت، إلى وجهِها، الرأسِ غريبِ الملمَح، الندوبِ، الثلمةِ والاعتلال.

تأوّهاتُها لم تتوقّفْ، اللهاثُ، العَرَقُ المفرِطُ، الروائحُ النفّاذة، اللزوجةُ، منها ومنه، الأيدي المتشابكة، خفقانُ القلوبِ القوي، اللهاثُ في الأنفاسِ، الابتساماتُ والضحكاتُ والنظراتُ الشهوانيةُ والتكشيراتُ والقهقهاتُ دامَت ساعةً أو أكثرَ في وجهِ الموت.

وطيلَة كُلِّ هذه السنين حتى الآن، كان الأمرُ مُختلفًا مع جوته هايم.

في الطابق الثامن في شقّةٍ في برلين الشرقية.

في خجلٍ تحرّكت الأصابع. وتحركت في الظَّلامِ تَحْتَ البَطّانية. في سلامٍ كان عقلُه في تلك الليلة.

لم يفكّرْ في شيء إلا في أنَّه نجح، حتى هنا، في أن يَجِدَ امرأةً، ودون أدنى جَهْدٍ أفلحَ في أن يَلِجَ إلى بيتِها، فراشِها وحياتِها.

ما لم يعرفْه وهو تحت الغطاءِ أنَّه مثلما كان سَهلاً أن يَلِجَ إلى هناك، فإنَّه كان سَهلاً أن يَجِدَ نفسَه في الخارج.

بعدَ أقلِّ من يوم، كُلُّ شيءٍ كان سَهلاً قدرَ الاستطاعة.

لقد تَقَبَّلَ جسدَ ليزا الجديدَ كما لو أنَّه عَرَفَه منذ وقتٍ طويل.

ليس ثمّةَ صدماتٌ أوقعَ من الصدماتِ الأُولى، عدا متعةِ لمسات الجَسَدِ العاري، في الواقعِ أكثرَ مِنْ واحدة، أكثر من اثنين.

حتى الآن، غارقٌ في حوضِ الماءِ الساخن، كان يَشعرُ بالنَّشوةِ ذاتها التي اعتاد الشعورَ بها حين تحوَّلت أفكارُه إلى ماريون وبيللا أثناءَ استحمامِه ظهيرَةَ كُلِّ سبت.

بلطفٍ تُزيلُ البروف سافونا أصابِعَها من صَدرِهِ وهي تَميلُ عليه وتَصيرُ أكثرَ قُربًا، وسَمَّاعتُها الباردةُ تحاول أن تستكشفَ المشكلة.

يفوحُ إبطها برائحةِ العطرِ والصابون.

ثم تَنزِعُ عنه وتُزيلُ الآلةَ عن أُذنيها المزيّنتين بحجرين أبيضين مثلَ الدموع.

– سيد شيري، كُلُّ شيء على ما يرام. ارتدِ ملابِسَك وسأُخبرُك بأشياءَ عِدَّة.

لكن أرِحْ عَقلَك. ساعدي السيد شيري يا كارمن إذا سمحتِ.

– بوسعِك مسحُ صدرِك وتنظيفُه الآن.

اللزوجةُ. تلطَّخَت المناديلُ الورقيةُ بالمادةِ اللَّزِجَة، وقُذِفَت بعيدًا.

يَقِفُ على قدميه ويَصِلُ إلى حيثُ القميصُ المعلَّقُ على ظَهرِ المقعَد.

يُحكِمُ إغلاقَ أزرارِ قميصِه ويَربِطُ حزامَه..

– سأراك ثانيةً خلال شهر. كُلُّ شيء يَسيرُ على ما يُرام، سيد شيري.

الشيء الهامّ أن تحافظَ على تعاطيك الدواء، لا تأخذْ الأُمورَ على تحَمَلِ الجِدِّ وأُريدك أن تتفادى الضَّغطَ غيرَ الهامّ، لأجلِ راحتِك، بوسعِك الاستمتاعُ بنفسِك: امشِ يوميًا، لكنِ ابتعدْ عن الشَّمسِ، كُلْ جيدًا لكنْ لا تأكلْ شيئًا ثقيلَ الوَطأةِ وتناوَلْ كثيرًا من الفاكهةِ والخضروات.

تجنَّبْ صعودَ سُلَّم قدر الإمكان وتأكَّدْ بأنَّك تنامُ جيدًا وتَشرَبُ كثيرًا من الماء.

– ماذا عن الإرهاق يا بروف؟

– الإرهاق سيزول، لا تقلقْ. لا تنسَ أنَّ قلبَك مرَّ بصدمةٍ بالغة.

وهذه الحرارة ضارةٌ أيضًا، وتجنَّبْ هذه الريحَ الجنوبية.

لا تقلقْ. خُذْ الأمرَ ببساطة، أليس كذلك؟

تهمِسُ البروف سافونا بشيء ما لكارمن ولكن بمجرد أن ترى أن إريك ما زال يرتدي قميصَه وينظرُ إليها، تتوقّفُ وتبتسمُ له ابتسامةً قصيرة.

كُلُّ هذه الآلات، هذه الشَّاشات التي تومِضُ بأرقامٍ غريبةٍ بألوان مختلفة: الأخضر الساطع، الأصفر الساطع، البرتقالي والأبيض.

ومضات، أصوات إليكترونية حادَّة.

دينيس تُجري مكالمةً تليفونيةً أُخرى: إنَّ لها عينين داكنتين، دينايس، ووجهها كوجه ليزا. الحاجبان ليسا دقيقين وليسا متماثلين وداكنين، رموشُها لُطِّخت بالماكياج الأسود، ظلالٌ زرقاء حول عينيها ووجنتان ورديتان وشفة حمراء داكنة في لون الدم الجافّ الذي على جرح صدره.

ترى ليزا أنّها تشبه ابنةَ حائِكةِ الثياب من ماضي أيامٍ ما بعد المنع، حين بدأ في نهاية الأمر الإيمان بألا يسمع أيَّ حديثٍ لرئيس الأساقفة.

ما إن يغادرِ العيادةَ، حتى يراها جالسةً في زاويةٍ بين كثيرٍ من الناس منتظرة، تقرأ مجلةً.

– أكُلُّ شيء على ما يُرام حبيبتي؟ بمَ أخبروكِ؟

– قالت إن كلَّ شيءٍ جيد.

– أترين؟ هل تريدين أن تتناولي طعامًا، هلّا تناولنا؟

– نعم. لنذهب إلى مكانٍ نألَفُه.

النادلة تُدعى روزاري وشعرها إلى الخَلْفِ مَعقودٌ اليوم.

لقد اعتادوا المجيء إلى هنا من قبل لتناولِ زجاجةٍ من ماء فوَّار وسلاطة طازجة.

أحيانًا ما كانت تناديه بالسيد إريك، وأحيانًا ما كانت تأخذُه إلى الماضي حين كانت ما تزال طفلةً واعتادت مشاهدتَه في المسلسلات التليفزيونية.

أمَّا هي فتدعوها بالآنسة.

– سيد إريك، صباح الخير. الطلبُ المعتاد؟

– ماذا تودّ أن تتناولَ يا إريك.

– ماء، زجاجة كبيرة من الماء.

– فوّار، أليس كذلك؟

– لا، اجعليه ساكنًا اليوم.

– ساكن بالنسبة للسيد إريك، والآنسة؟

– سأحتسي كوكاكولا وأتناولُ خبزًا محمّصًا. أتريد خبزًا محمصًا يا إر؟

– لا، لا شيء. ماءٌ فحسب.

– لكنَّك يجبُ أن تتناولَ شَيئًا، إننا خارجُ البيتِ منذ وقتٍ طويل.

– ماءٌ فحسب.

مؤخَّرًا، حضرت ثانيةً جوته هايم.

منذ بضعةِ أيامٍ بدأ يكتبُ إليها:

عزيزتي جوته، كم من الوقت مرَّ منذ رأيتُك!

كيف حالُك؟ كيف برلين؟

لا بدّ أنَّها تغيَّرت مُذ رأيتُك.

لم يَعُدْ هناك حائطٌ وما مِنْ شَكٍ لديَّ أنَّكِ ما عُدتِ تستخدمين السُّكَّر عِوَضًا عن الحلوى.

جوته، إنّني أموت.

إنني مريضٌ على نحوٍ خطيرٍ وسوفَ أموت.

هل سترديـن عليَّ هذه المرَّة؟

ثمَّ سَحَقَ الورقةَ بيده.

– أعتقد أن عليَّ الذهاب إلى برلين. أذهبُ إلى هناك مدّة أسبوعٍ أو أيام.

– متى؟

– ما إن أستطع ذلك.

– لِمَ العجلة؟

– أريد أن أذهبَ قبلَ أن أموت.

– إريك، لا تشرعْ في هذا الهراءِ ثانيةً. لقد خرجتَ من المستشفى من فورك وأخبروك أن الأمور تسري على ما يُرام. لا تستمرْ في هذا.

– أنا لا أُصدِّقُ ما تقوله البروف.

– ولِمَ ستكذبُ عليك؟

– أخبروا ليزا أنَّها ستكون بخير. لم تَعِشْ عامين آخرين.

– حالة ليزا كانت مختلفة. أنت تمزجُ الأشياءَ بعضَها ببعض. وإلا آخذُ إجازةً عدة أيامٍ وآتي معك.

– لا، لن تأتي، بمفردي سأذهبْ.

– أتعتقدُ بأنني سأدَعُكَ تقومُ برحلتِك بمفردِك؟

– وحيدًا سأذهبْ.

وحدي سأذهب لأنني أُريدُ رؤيةَ جوته هايم. أبغي العودةَ إلى المقهى الذي رأيتُها فيه أوَّل مرَّةٍ، لأتحدَّثَ إليها وأسألُها لِمَ لم تَرُدَّ عليّ.

أريد رؤيتَها ثانيةً: أرى كيفَ تغيَّرت، كيف غيَّرها الزمان.

أرى متزوجة ممّن. أرى إلى أيّ مدًى تغيَّرت.

– لنُناقش ذلك فيما بعد. لا تتخذْ خُططًا من جانبك، يا إريك.

– وهكذا منذ دقيقة تخبرينني أنني بخير والآن تخبرينني أنني لا يَجِبُ أن أذهبَ إلى برلين بمفردي. ممّا يَعني أنَّك لا تؤمنين بحقٍّ أنّني بخير أيضًا.

– إريك، لا أقولُ أنَّكَ لستَ بخير، إنني فَحَسْب أقولُ يَجْدُرُ بك ألّاَ تذهبَ وحدك.

أنت ترفُضُ أن تَحمِلَ هاتفًا محمولاً. كيف سأعلمُ أنَّك بخيرٍ وأنتَ هناك؟ ولِمَ برلين على أيِّ حال؟

توجدُ هذه المرأةُ التي رأيتُها ذاتَ مرَّة. اسمُها جوته هايم. لستُ أدري ماذا حَلَّ بها.

ذاهبٌ للبحْث عنها. أريد رؤيتها مرَّةً أُخرى قبل أن أموت.

لأنّني أعلم بأنني قريبًا سأموت.

وأُريدُ رؤيتَها. أُريدُ أن تَقَعَ عيناي عليها ثانيةً.

جوته هايم.

التقيتُها في ميدان ألكسندر.

أريدُ رؤيةَ ميدانِ ألكسندر مَرَّةً أُخرى أيضًا.

لن يكون هناك أيُّ رجالٍ في بزَّات رمادية هذه المرَّة.

– لأنني أبغي العودةَ. هل أخبرتُكِ أنني ذهبتُ إلى برلين منذ وقتٍ طويلٍ مضى؟

قبل أن تُغادِرَ ألكساندرا بوقتٍ قصير، ليس منذ وقتٍ طويل في الحقيقة.

– وأحببتُها كثيرًا. أنا، لم أزرْها من قبل قطّ.

– لديك من الوقت الكثير لتذهبي. أنا ليس لدي.

– لكن لماذا برلين؟ لقد سافرت إلى بلادٍ كثيرة، لماذا برلين؟

وهكذا اختفى أُناسٌ كثيرون أثناءَ هذه السنوات. مثل والدة ليزا التي دائمًا ما كانت تعتني بنفسها عنايةً كبيرة وكانت جميلةً للغاية، وليزا نفسُها.

بينما يَدخُلُ إلى الكنيسَة، وكان العزفُ على آلةِ الأُرغن، عادَ يَتَذَكَّرُ تلكَ المرّة، ليزا تَخلَعُ قبعتَها القُماش، تَكشِفُ رأسَها اللامعَ تَحْتَ ثريا حُجرةِ المعيشةِ وتَقْتَرِبُ منه بينما ارتَعَدَ هو وحدَّقَ فيها.

التابوتُ في مُنتصَفِ الممشى مُنتصبٌ.

رائحةُ الكنيسةِ العَتيقة، مَضَت دهورًا مع وجوهٍ، يَعرفُها جَيدًا، تُحدِّقُ.

في هذا التابوتِ جثمانٌ يَعرِفُه جَيدًا.

عَرَفَه وهو يُغادِرُ مَنزِلَه في قُبَّعةٍ مِن القُماشِ وسِترةٍ ضَخمة.

قبل أن يُخفيَ نَفْسَه في الظُلمَةِ فيما وراءَ البابِ الأمامي، التَفَتَ إليه ثانيةً، هذا الجثمانُ، وقال:

– وداعًا إريك.

ويسألُه إريك.

– هل تستَمتِعُ بنفسِك اليوم؟

فكَّر الجثمان قليلاً ثم قال:

– ألستَ تَعرِفُ؟ لم يمنحني أحدٌ لذّةً قصوى مثلما منحتني. أُحِبُّك يا إريك، لكنني بحاجةٍ لأن أُخبِرَك شيئًا ما.

ويُغلِقُ الجثمانُ البابَ ثانيةً، البابَ الذي ظلَّ نِصفَ مفتوحٍ ومِنْ خِلالِه كانت البرودةُ تَدخُلُ، وقال:

– اسمعْ يا إريك. ربَّما حانَ الوقتُ لأُخبِرَك. لم تكن الوحيد. سامِحني إذا ما كنتُ قد كذبتُ عليك.لكنَّك كنتَ الأفضل، وداعًا.

وحينئذٍ أرسَلَ له الجثمانُ قبلةً عَبْرَ الهواء، فتح الباب، وغادر.

ودخل إريك شيري في حمَّام ساخن، سعيدًا على الأغلبِ إذ لم يكن الوحيد لأنه بهذه الطريقة أضحت المسألة أكثر تشويقًا، والقصة أكثر واقعية، وأضحى أكثرَ إثارةً تَحْتَ سَطحِ الماءِ المعَطَّر.

على أيّ حال، هو لم يُصدِّق الأكذوبةَ حين سَمِعَها قَطّ، والآن ذاكَ الذي عَرَفَه أكَّدَ أنَّه كان سعيدًا تقريبًا منذ البداية للنهايةِ أنَّها لم تكُ علاقةً جادّة.

الجميعُ عرف ليزا. ذاك الرأس اللامع، ذاك الصدر المحيك.

كانت المناورات شهوانية أكثر من المعتاد.

الأصواتُ التي أحدثَتها، وفي هذه المرّة، المرّات التي أحدث فيها، تَحْتَ سَطِح الماءِ السَّاخِنِ في الحَمَّام.، مَرةً أُخرى إريك شيري يمارسُ شَهوتَه، الصوتُ الوحيدُ هو صوتُ أنفاسِه، طليقة.

ثمَّ بعد أقلّ من أسبوع، بدأ إريك ينادي وينادي وينادي ثانيةً إلى أن كَلَّ من النداء، تعبَ من المناداة إلى أن التُقِطَ الجثمانُ الذي في التابوت بمنتصف الممشى وأخبروه من الجانبِ الآخَرِ بأنَّه لن يراه ثانيةً.

– كيف؟

– لن أراك ثانيةً، يا إريك. شعرتُ بالقذارةِ معك. لا أُحِبُّ أن أشعرَ بذلك أكثرَ من هذا.

– لم أُجبِرْكِ على شيء. فَعَلتُ ما فعلتُ لكِ لأنك أردتِه. فعلنا دائمًا ما أردتِه.

– هذا هو الأمرُ حَقًّا. وهذا ما كنّا سنفعلُه هذه المرّةَ أيضًا. لا أُريدُ أن أشعُرَ بأنني قذرةٌ بعد ذلك. إنّني أشعرُ بالقذارةِ كلما غادرتُ مكانَك ولا أُريدُ أن أشعرَ بالقذارةِ أكثر.

– كما تحبّين، لكن هل يمكننا مناقشَة ذلك؟ أليس كذلك؟

– لا، لا يمكننا. إني متعبةٌ من هذا الإحساس.

– لستِ قذرة.

– لستُ أعرف ما أكون، يا إريك. لكنّي أعرف ما أشعرُ به، أشعرُ أني رخيصةٌ، قذرةٌ، مثيرةٌ للاشمئزاز..أوه أنا لا أعرفُ. انتهى الأمرُ، يا إريك.

– لكنّ بعضنا يعرف بعضَ طيلةَ سنين، لا يمكنُك فحسب، كذلك فحسب، كل ما هو مفاجئ..

– إريك ما زلتَ بخير، مازلتَ وسيمًا مثلما كنتَ وأنتَ صغيرٌ ومازلتَ بصحةٍ جيدة. تبدو كما كنتَ تبدو حينئذٍ. بالنسبة لي الأمر ليس كذلك. الآن دعني بمفردي. لا أريد الشعور بأنّني قذرة بعد ذلك. وداعًا. وداعًا ليس إلى اللقاء.

في هذا التابوت يرقدُ جثمانٌ يَعرِفُه جيدًا، يعرفه إريك. عرفه حين كان صغيرًا، حين كانت متزوجةً، يعرفه منغمسًا معه في الملذّات. عرفه حين كان جميلاً– أجمل من نيللا، ومن تانياء وأجملَ من ألكساندرا وبيللا وماريون على نحوٍ جليّ، أجمل من الآخرين، أجمل من جوته هايم.

– هل سيستضيفك أحدٌ في برلين أمْ ستقيمُ في فندق؟

جوته هايم، ميدان ألكساندر، مارزان، الطابق الثامن، شقّة صغيرة، أريكة تتحوّل إلى فراش. برلين. برلين.

– لم يَعُدِ الأمرُ كما هو. سأُقيمُ في فندق، إن لم يكن فأين؟

كُلُّ شيء كان سَهلاً. كُلُّ شيء. إلا بالنسبة للمرآة. باكرًا هذا الصباح، وتلك اليد التي ترفعُ الآن كوبًا من الكوكا كولا منحته قُبلَةً لطيفةً على ظَهرِه لتوقظَه، رغم أنَّه كان بالفعل مستيقظًا، ينظرُ للمرآةِ وفَهِمَ كم هو صعبٌ أن يتقبَّلَ أنَّه ذلك الرجل الذي يراه: الشَعرُ الرُّمادي كرائحةِ رماد السيجارةِ التي انطفأت منذ وقتٍ طويل، هشّ، العيون التي صغُرت خلفَ عدساتِ نظارتيه، التجعداتُ التي تنمو تحتَها، عِظامُ فكيه المرتخية، والشفاه التي تغيَّرَ لونُها.

الحقُّ أنَّه حينما يلتقي شخصًا عَرَفَه مدّةً طويلةً، ولا يَحْدُثُ ذلك دومًا، فإنَّه دائمًا ما يُخبِرُه بأنَّه لم يتغيَّر، ذاك يعني أنَّه لم يكبرْ سنًّا على الإطلاق، أو حتّى أنَّه أكثرَ وسامةً الآن، مع المضيّ في العمر.

لكن حين ينظر إريك إلى إريك شيري فإنَّه يلحظُ تفاصيلَ لا يلحظُها أحدٌ آخر.

في الأيامِ الماضيةِ حينَ تَجَسَّسَ على ماريون وبيللا، في الأيامِ الأُولى للانغماسِ في بحرِ الآثامِ مع ليزا، كانت عيناه أكبر، عينان بُنيَّتان داكنتان، مُنكسِرتان من الحُزنِ الذي لم يَشعرْ به لكن أحبَّ أن يُبديَه خاصَّةً للنساءِ اللواتي أرادهن، كان شعرُه خَشنًا وطويلاً ومتماوِجًا، شعرًا بُنيًّا داكنًا، جذَّابًا كان أنفُه، وشفتاه منحنيتان على نحوٍ أُنثوي إلى حدٍّ ما، ومتطابقتان تمامًا، كانت بِنيَتُه وسيمةً وصحيَّةً، ولم يستطعْ هؤلاء الذين تعرّى أمامَهن لم يستطعنْ أن يَكبَحنَ لهاثَهُن إعجابًا حين رأينَ عضلاتِه، بِنيَةَ صدره، انحناءَ أردافِه عند المؤخِّرَةِ ورشاقةَ قوامِه.

ولا استطاعَ هؤلاء الذين لمسوه ولمسَهم كَبَحَ لهاثَهنَ حين شعروا بِملَمسِ بَشرتِه النادر.

لا غرو أنَّ كُلَّ شيء حَدَثَ بسهولةٍ بالغةٍ كَرَدِّ فعلٍ إذن.

يتذكّر الآنسة ساليبا إحدى معلميه، التي قَرَصَت وجنتيه ودَعَت المعلماتِ الأُخرياتِ، شابَّاتٍ من الواضِحِ أنَّهنَ في العشرينيات من العُمر، قَرَصْنَ وجنتيه وشَعَرْنَ بتلك البشرة.

وكان هناك، مُحتَضَنًا وسَطَهم، يُمثِّلُ أنه خَجِلٌ مُستمتعًا بأنَّه مَحضُ اهتمامِهم وهذه الأصابعُ المزيَّنةُ بخواتِمِ الخطوبة، بأظفارِها المُلَوَّنة باللونِ الوردي الداكنِ أو الأحمرِ الوردي.

وكانت الآنسةُ ساليبا تَقْرُصُ وجنتَه كُلَّما أجابَها إجابةً صائِبَة، ونَكَشَت شَعرَه الخَشِنَ الخفيف.

الآن كُلُّ مَرَّةٍ تتحرَّكُ فيها تجاهَه في الفِراشِ، حين كان راقدًا على جانِبِه، وتَقْتَرِبُ هي من خَلفِه وتُمَرِّرُ يَدَها بينَ ذراعِه وصَدرِه، كان يَشعُرُ بالقبلاتِ

الصغيرةِ تُدَغْدِغُ ظَهرَه، ويَشعُرُ بالإثارةِ تَسري عَبْرَ جَسَدِه- حتى الآن، في سِنِّهِ هذا، وفي صِحَّتِهِ في حالتِها هذي- وهو يَرقُدُ هناك، ظَهرُه إليها، تَتَفَحَّصُ جَسَدَه، يَشهَدُ إريك شيري جسدَه وهو يبدو في المرآةِ هذا الصباح حين نَظَرَ إليه دونَ رغبةٍ فيه.

ليلاً أصغى لقلبِه وهو يَدُقُّ كالسَّاعةِ التي توقَّفت عقاربُها بينا راحَ يغفو، أرادت هذه الأيدي أن تتحرَّك، كي تدور وتبدأ ثانيةً دونما كَلَلٍ أو تدور وتدور في الدائرة نفسها.

لو أمكَنَه أن يبدأ ثانيةً، لَمَا عارَضَ أن يبدأ بالنَظَرِ مَرَّةً أُخرى إلى ماريون التي كانت تُغني في جَوقَةِ حركةِ الكنيسةِ الكاثوليكية، وبيللا تتخذُ طريقَها عائدةً من فاليتا في الصباحِ الباكر، لينظرَ إلى والدةِ ليزا تَكْبُرُ سنًا وتضحى أكثرَ جمالاً إلى أن ذهب فجأةً لينظر إلى ليزا.

ولم يعارضْ على الإطلاق الذهابَ إلى لندن، إلى شارعِ كارنابي، طريقِ الملك وحديقة جاندالف.

كم كانت سهلةً هي الحياة وَكُلُّ هذه الأماكن شَعَرَ بأنَّها مألوفةٌ له كما لو كانت بيتَ أُمِّه وأبيه.

مثل تلك الليلة التي قضاها لدى فالنتينا وأيامٍ قلائلَ عند نيللا.

والآخرون الذين عبروا بطريقِه بعد أو حتى أثناءَ ما كان يَحدُثُ كُلُّ هذا، الشَّوق الذي أثاره فيهم بلي على أردافِهم.

إريك شيري بجسدِه الذهبي، عَرَضَ جَسَدِه في مكانٍ مُغلق واتَّخَذَ وضعَ عَرضٍ للجميع لينظروا إليه ويستمتعوا، إذا ما كان عبر نظراتِهم أو في أحلامِهم ورغباتِهم.

أحيانًا ما كان يَعجَبُ من قُدرَتِه على تَذَكُّرِ هذا جيدًا للغاية.

ربما تَمرينُ المسرح، والنصوصُ الطويلة التي اعتاد حِفظَها عن ظَهرِ قَلب، ساعدته على تَقويَةِ ذاكرَتِه.

ألكساندرا، بشَعرِها الناعِمِ الذي يَصِلُ إلى أصغرِ نُقطةٍ في ظَهرِها مُبتَسِمَة، مبتسمةً دومًا، وسيجارةٌ ملفوفَةٌ جيدًا ومَحشوةٌ بالحشيش ما بين أصابِعِها، تنفُخُها بكُلِّ هذا الاستمتاعِ وكُلِّ هذه الرِّقَّةِ التي كانت تُضاهي رِقَّتَها.

ثمَّ حضرت ميلدريد. كانت ميلدريد بِحقٍ، اللمسةَ النهائيةَ، جوهرةَ تاجِ إريك.

ذلك الزفافُ الغريبُ في ماريلبون، ثم ميلدريد. ميلدريد نعم، أثناء السنواتِ الاجتماعية التي بدأت مع المسيرَةِ العُمّاليةِ وانتهت بعُمّالٍ في سُحُبٍ من الغاز والدموع.

مثل الاشتراكية في بيت جوته هايم، حيث قامت بإلقاء حلوى مغلية في قهوتها، ومارست الحُبَّ مع غريبٍ في فِراشِها القابلِ للطيّ، وأوقفت الصباحَ التالي. ثمَّ في نهاية هذا الانبثاق، كانت هناك امرأةٌ طيلة كُلِّ هذا الوقت، وهبَته كلَّ شيء ولم يعطِها شيئًا.

كانت امرأةً هادئةً تمامًا، أهدأ من ماريون تتأمّلُ مريمَ العذراءَ أو ابنَها على الصليب. عاشَت في ظِلِّ زوجِها وظلَّت هادئةً طيلةَ حياتِها كُلِّها، هادئةً للغاية حتى إنَّها ماتت في صمتٍ دون أن يلحظَها أحد.

كان على وَشْكِ أن يموتَ بين ذراعي كليوباترا، حين وجدت تيسي أُمَّهم في مقعدها الفوتي في الرواق وفمُها مفتوح، أحد ذراعيها متدلٍّ والآخرُ عَبْرَ صدرها.

في وقتٍ ما بعد ذلك نهضَ أبرزُ جنرالاتِ الجيش الإمبراطوري ومشى ويده بيدِ تانيا بارتولو من أجلِ نداء الستار، ثم أُسدِلَ مرةً واحدة في النهاية، ودخلت ألكساندرا إلى حُجرةِ ملابِسِها وأنباءُ بالفعل طي شفتيها.

– إريك، أكنتَ مُسهدًا طيلةَ الليل ثانيةً؟

– مضى بعضُ الوقتِ قبل أن أنام، ثمَّ أستيقظُ مبكرًا.

– لِمَ لم توقظني، يا قلبي[1]؟

قلبي، قلبٌ يَخفُقُ، قلبٌ يَخفُقُ كساعةِ حائطٍ توشِك أن تَهجَعَ، عقاربُها لا تتحرَّكُ وتفقدُ كُلَّ الإحساسِ بالزمن، الوقتِ الذي كان من المفترض أن يخبروا عنه.

وهكذا كثيرٌ من الناس في هذا القلب، وعديدٌ من النساء في ماضيه، قلب، قلبي.

ميلدريد، كَبُرَت ميلدريد دونما أُمٍ تقريبًا، وتقريبًا كَبُرَت دونما أبٍ أيضًا، لقد قضت جُلَّ وقتِها مع عمَّتِها العانسِ التي بَشَّرتها بالرَّبِ واشتراكية نانو التي لم تشهدها قطّ، موضحةً الفارقَ ما بين المسيح والكنيسة.

كَبُرَت ميلدريد بِكُلِّ هذا ورنينٌ أكثر في أذنيها، هي لم تَعِشْ مَعَه، ميلدريد لم تفعل، لكنها عاشَت مع عمَّتِها.

لم يَجِدْ صعوبةً في تَركِ شقيقَتِه غير المتزوجة تُسيطرُ لذا فبوسعه مدُّ مملكته.

والآن، الآن هي امرأةٌ وأُمّ، هو بالفعل يريدُ عودتَها ما بين ذراعيه، فترةً قصيرة، بما يكفي فَحسب ليَشعُرَ أنَّه شاب.

أبٌ صغير، وشابّةٌ شقراءُ جميلة، أُمٌّ إنجليزية. جميلة. شقراء.

تتعرَّى جوته هايم في الظَّلام، ظهرُها إليه. برلين. ميدان ألكسندر. أشقر ورمادي، ميّتٌ ومفعمٌ بالحياة، مع كل هؤلاءِ النسوة، الجميلاتِ للغايةِ والعنيدات جدًّا.

---

1 وردت الكلمة باللغة العربية فيما يُظهر التأثير العربي الذي يبدو كثيرًا على اللغة في مالطة (المترجم).

مثلما كان عنيدًا هو. عنيدًا بِحَقٍّ مثل ليزا، مثل تانيا، مثل بيللا قادمًا للبيتِ بَعْدَ ليلةٍ في فاليتا.

ميدان ألكسندر، ثم والدتُه، بمفردِها، في زاوية. هي لم تَلتَحِقْ بِهِمْ للغداء حتى أيّام السبت أو في المناسباتِ الخاصّة.

أسلمَتهم الغداء ثم ولّت وجهها للحائِط، بَطنُها لحوضِ المطبَخ، تأكل واقفةً ولم تُزعِج أحدًا.

كانت هناك أحاديثُ كثيرةٌ عن رئيسِ الأساقفةِ والمخَلِّصِ في ذلك الوقت، وتضايَقَت والدتُه لأنَّها كانت خائفةً مِن غَضَبِ الرَّبِ لذا ظلَّت صامتةً أكثرَ مما كانت تَصمُتُ من قبل.

ثمةَ ليالٍ كان يحاولُ فيها أن يربطَ عِدَّةَ جُمَلٍ بعضِها ببَعضٍ يتذَكَّرُ نطقَها وبالكادِ ينجحُ في رَبْطِ صفحةٍ معًا، لو أنَّكَ تركتَ المِسبَحَةَ والابتهالاتِ التي تَمَتَمت بها طيلةَ الوقت.

أحيانًا ما يُحاولُ تَصَوّرَ وجهِها، لكنَّ كُلَّ ما أفلحَ فيه أن يرى عينيها نِصفَ المغلقتين وفمَها مفتوحًا على نحوٍ مائل.

وشَعَرَ بصمتٍ عميق يُحيطُه في ليالٍ كهذي حين يحدثُ شيء يُجبِرُه على تحويلِ الظُّلمةِ إلى شاشةِ سينما.

ينحدرُ الصَّمتُ.

مع والدتِه هناك لم تكُن ظهيرةٌ قَطّ في برج إكسجارا.

كانت هذه الليالي، كان في معظمِها مؤَخَّرًا، حين كان يُفَضِّلُ البقاءَ في الطابقِ الأسفل، يُنَقِّبُ عَبْرَ خزاناتِ الملابِس، بلطفٍ ليتجنَّبَ أن يُحدِثَ أيَّ ضوضاء، باحِثًا عن شيء لا يعرفه، حيث لم يَلمَسْها بها وقتًا طويلاً.

صناديقُ من الحبوب، نفاياتٌ وصور.

هو وليزا، ليزا تَبتَسِمُ مباشرةً للكاميرا.

ليزا نِصفُ عاريةٍ تحاولُ إقناعَه ألا يلتقطَ الصورةَ التي يَنظُرُ إليها الآن، في مُنتَصَفِ الليل، هذه لليزا ولكنْ ذكرى تأبى أن تموتَ كما ماتت ليزا نفسُها.

منذ أسبوع، بينا كان مُنشغِلاً في الشَّعيرةِ الليلية نفسها، أمامَ شقراء إنجليزية، نَقَرَ عِدَّةَ أزرارٍ في الهاتف.

هاللو هل هذه ألكساندرا والكوت. آسفة لكنّي لا أستطيعُ أن أرُدَّ على الهاتف الآن، لُطفًا اترك رسالةً بعد الصفَّارة. بيييييييييب.

صَمْتٌ، يُغلقُ الخَطَّ. ينتظرُ ربع ساعةٍ، يَطلُبُ الرَّقم نفسه ثانيةً، يُصغي للرسالةِ نفسها بصوتِ ألكساندرا والكوت، إنَّه الصوتُ نفسه من سنين مَضَت، أو على الأغلبِ قد أضحى أعمقَ قليلاً.

ينتظرُ ربعَ ساعةٍ. ويطلبُ الرقمَ نفسَه، يُصغي للرِّسالةِ نفسها بصوتِ ألكساندرا والكوت، بالصَّوتِ نفسه مِن ربعِ ساعةٍ مضت، ربما أقلَّ عُمقًا الآن، بِفعلِ كُلِّ السجائر والكحول.

يَتَذَكَّرُ ألكساندرا جيدًا، غارقةً في العَرَقِ، شَعرُها الطَّويلُ الرَّطبُ يَلتَصِقُ بوجهٍ أبيضَ كملاءةٍ، ساقيها مفتوحتين مائلتين بينا انتظرَ هو ميلدريد كي تَعِن.

هناك هذه الصورة: ألكساندرا ترتدي ابتسامةً مُتَكَلَّفَةً، هو بفَمٍ ذي ابتسامةٍ عريضةٍ

ووجهٍ مليءٍ بالتجاعيد، أحمرَ مُلتَهِب، أصلعَ، باكٍ. أصلعَ. مثلَ تلك الليلة، التي لا طائلَ منها، مع ليزا، آخرَ حلقةٍ في مسلسل قامَ بتمثيله طيلَةَ سنوات.

وفي ليلةٍ صامتةٍ أُخرى أفلَحَ في أن يظلَّ حيًّا دونما أيِّ ضغطٍ في صدره، هو ينظر إلى ليزا الميِّتة ويهتاجُ ويخلعُ ملابِسَه في إثارته إلى أن تَنَضَّدَ جبينُه بالعرق، إلى أن كشَّرَ ووصل إلى ذروة شهوته في صَمت.

عيناه على المرأة الميِّتة وهو يدخلُ. يبكي. عَرَفَ أنها كانت في مستشفى في حالةٍ سَيِّئةٍ لكنَّه لم يَخِفْ لزيارتِها لأنَّها قالت له بأنَّها لا تريدُ رؤيتَه بعد الآن لأنَّها شعرت بالقذارةِ كُلَّما تَذَكَّرَت مشاهِدهُما القليلة.

والآن وبالصورةِ التي في يَدِه، يُلوِّنُها ثانيةً، لوَّثَ نَفْسَه بها مرَّةً أُخرى.

حين ماتَت اتصلت به تانيا لتبلِغَه النبأ. سألَ عن الجِنازةِ ووضَعَ سمَّاعةَ الهاتِفِ بغايَةِ اللُطف.

لم يستطعْ أن ينامَ في تلك الليلة.

تخيَّلها داخلةً إلى بيتِه، عاريةً، صلعاءَ. تخيَّلَها في كُلِّ زاويةٍ كانا بها معًا، لاسيما أثناء تلك الليلة الأخيرة.

بدا أنَّ كُلَّ حجراتِ البيتِ تَشمَئِزُّ منه، كُلُّ حُجرةٍ بها مَشهدٌ يُذكِّرُه.

كُلُّ حُجرةٍ مُنفردة. من حُسنِ طالعِه أنَّه لم يَكُن بمفردِه في البيتِ، كانت هناك ميلدريد وابنتُها، لا تزال صغيرةً. لم يَغْمُضْ له جَفن.

– لكنْ هل كنتَ تتألم؟

– لا.

– أمتأكِّدٌ أنت؟ يا إريك، عليكَ ألا تُخفي شَيئًا عني، مفهوم؟ لا تُخفِ شَيئًا. إذا تألمتَ قُلْ فَحسبْ أنَّك كنتَ تتألم.

– لم أكن أتألم. خَلَدتُ إلى الفِراشِ مُعتقِدًا أننا يجب أن نذهبَ إلى المستشفى لذا لم أستطِع النومَ. لكنْ لم تَكُن ثَمَّةَ مُشكلةٌ معي، لا تقلقي.

– لكن لِمَ لم توقظني حينئذٍ؟

– لأنه لم تكُن هناك حاجة.

في أحدِ هذه الأيام، أحيانًا يفكِّرُ إريك، أحدِ هذه الأيام قد يَطلُبُ الزواجَ منها.

من ذا يأبَه أنَّها صغيرةٌ بما فيه الكفايَة كي تَصيرُ ابنتَه؟

تَحدُثُ هذه الأشياءُ طيلَة الوقت. ما من شَكٍ لديه أنَّها تُحِبُّه بإعزاز، لا كمثلِ الأُخرياتِ اللواتي جئنَ قبلَها.

يَعرِفُ أنَّها تَعرِفُ أنَّه ما من شيء بوسعِه أن يَترُكَه من ورائِه لها حين يذهب، على أيَّةِ حال، هي تَكسِبُ ما يكفي من عَمَلِها لتَغمُرَه بالنُّقود.

إنَّها تُحِبُّه ولذلك تفعل هذا.

خطوةٌ سهلةٌ أُخرى تُتَّخَذ، كنتيجة: أنَّه رغمَ عمرِه ومَرَضِه، فهي يَجِبُ أن تظلَّ إلى جوارِه، تعتني به، تواظِبُ على احتياجاتِه وتكونُ حاضرةً أثناءَ رحلاتِه. لكنْ ليس إلى برلين، ليس إلى ميدان ألكسندر.

يحتاجُ لأن يمضيَ إلى هناك بمفرده.

ك م 0376 مالطا- برلين تيجيل.

كانت هنالك قصّةٌ، ليس بوسعِه أن يتذكَّرَ أينَ قرأها أو مِمَّن سَمِعَها، عن امرأةٍ طالَ زواجُها أربعةَ أيامٍ ونصف. السبت، في التاسعة صباحًا التقتها صديقتُها، زميلتُها في المكتب، أقلَّتها في فولكسواجن كانت قد اشترتها من فورها. في الحادية عشرة صباحًا، مكتب الصرافة الحكومي. تجمَّعَ هناك رجلٌ وابنه وخطيبة ابنه. ابنُ المرأة هناك أيضًا مع صديقه. والدُها أيضًا وآنسةٌ والتي مؤخَّرًا تُقيم عند والدها كلَّ يومٍ تقريبًا.

الرجل الذي ينتظرها يرتدي بزَّةً داكنةً للمناسبة. أنيقٌ للغاية. حتى إنَّه حليقُ اللحية. هذه المرأة ترتدي فستانًا أُرجوانيًا. تَحمِلُ باقةً من الورد الأبيض والوردي.

أحضرتها صديقتُها في فولكسواجن الذي اشتَرَته من فورها. الأربعاء، عند الثانية ظَهرًا، المرأةُ التي في الفستانِ الأُرجواني المتزوِّجة من الرَّجُلِ في البزَّةِ الداكنة واقفةٌ في قِسمِ الطوارئ. إلى جانبِها يَرقدُ، مُتَصَلِّبًا، الرجلُ الذي ارتدى البزَّةَ الداكنة، الرجلُ الذي تزوَّجته في يوم السبت.

جسده العاري مغطّى بالأسلاكِ والأنابيب، وكُلُّ ما حولَه آلاتٌ تومضُ بأرقامٍ مختلفةِ الألوان. في الثالثة بعد الظهيرة، أُطفئت الآلاتُ، اختفت الأرقام. كانت هناك ممرضةٌ بعينين بُنيَّتين كبيرتين هي مَنْ أطفأت كُلَّ شيء وقامت بتفكيكِ الأجهزة.

الجمعة، عند التاسعةِ صباحًا، صديقةُ المرأة التي تزوَّجت في الفستان الأُرجواني أقلَّتها في الفوكسواجين التي اشترتها تَوًّا. في المقعَدِ الخَلفي باقةٌ من زهورٍ داكنةٍ لصديقتِها وزميلتِها. الصديقةُ والزميلةُ فَقَدَت زوجَها. مارسَت الحُبَّ معه طيلةَ ليلةٍ كاملة في مَنزلٍ صغيرٍ قُربَ النَّهرِ خارجَ المدينة. ومارسَ الحُبَّ معها كما لم يفعل من قبلُ. لقد جعلَها تَصرُخُ من البَهجَةِ القُصوى والنَّشوة وجَعَلَ الحُبَّ قلبيهما يخفقان أسرع. نَبَضَ قلبُه أسرعَ قليلاً مما يجب أن يفعل. خَفَقَ كثيرًا للغاية. ومات.

لكنَّه سَقَطَ قُبالَة النَّافِذَةِ مُباشرةً فوقَ الجَنَاحِ الأيسر، لم يشأ إريك أن يفكِّرَ في هذا.

كان ميدانُ ألكسندر بانتظارِه. النافورةُ كانت تتأهَّبُ لوصولِه. أرادَ أن يفكِّرَ في المقهى الذي في الميدان، النادلةُ التي خَدَمَته. أرادَ أن يجدَ تلكَ الشَّقَّةَ بالأريكةِ التي تتحوَّل إلى فِراش. أرادَ العُثورَ على ذلك الفراش الذي وُضِعَ له، جالسًا على الفِراش، قَلِقًا جَلَسَ، أرادَ أن يَجِدَها بدموعِها التي في عينيها، وذراعاها مفتوحان على اتساعِهما، تَطلُبُ متنهدةً، مُنتحبَةً على الأغلبِ، لِمَ تأخَّرَ هذا الأكتوبرُ الموعودُ كثيرًا كي يصل.

ميدان ألكسندر، مارزان. برلين الشرقية. أيُّ كلماتٍ عَذبةٍ كدوَّامةٍ تدورُ في فَمِهِ كحلوى مَغليةٍ تذوبُ وتُطلِقُ عذوبَتَها.

برلين. ميدان ألكسندر. مارزان. نُقطةُ تفتيش.

"أنت تُغادر الجانب الأميركي"

برلين. ميدان ألكسندر. فندق مدينة برلين. برلين. جوته.

جوته هايم.

جوته، أوَ تذكرينني؟ منذ سنين عدَّة، تَذكُرين، التقينا في موكابا وأخذتِني لبيتِك وقضينا الليلةَ معًا.

كنت أريدُ العودةَ. إنني ذاهبٌ إلى هناك خلالَ شهر.

كتبتُ إليك كثيرًا وكثيرًا من المرَّات، ليسَ مِن فِكرةٍ لديَّ كَمْ من المرَّات.

لم تكتبي إليَّ ردًا قطّ. لكنني أودُّ بِحقٍّ أن تَرُدِّي على هذا الخطاب.

لأجلِك أجيء إلى برلين، أُريدُ أن أراكِ ثانيةً.

قد تكونُ فرصَتُنا الأخيرةُ هذي.

رُدِّي، هذه المرَّةَ على الأقل. لابد أنَّك تسلّمتِ رسائلي أو كانت سَتُرَدُّ إليّ.

جوته!

بعد كُلِّ هذه السنواتِ سنلتقي ثانيةً.

ما من رَدٍّ من جوته هايم.

– لكنَّ يا إريك، لِمَ تريد الذهابَ وحدَك؟ دعني آتي معك. لا تَقْلَقْ، حينَ تمضي إلى هناك بوسعِك الذهابُ إلى حيثُ شئتَ وسأنتظرُك في أيّ مكان.

لكني لا أوَدُّ أن تذهبَ بمفردِك لأني سأقلقُ بشأنِك.

– قلتِ الآن أنَّه ما من مشكلةٍ لدي.

– نعم، لكنَّك إذا كنتَ هنا وحيدًا فالأمرُ مُختلف عن كونِك وحيدًا هناك.

لقد أجريتَ الآن عمليةً جراحيةً خطيرةً ولا يمكنُك الذهابَ وحدَك. أعنِي وحدَك تمامًا، أتدري ما يعني ذلك؟

– ليس هناك ما يُقلِقُك.

– كيف لي ألّا أقلَق؟

– لا، حقًا، لا تقلقي. لا تقلقي. هلا ذهبنا؟

– أو ربَّما تمكنت ميلدريد من المجيءِ معك. لا تَذهَبْ وحدَك، يا إريك.

– ميلدريد، أأنتِ جادّة؟ لا تتذمري. هلّا ذهبنا؟

تبتسم روزالي ابتسامةَ وداعِها المعهودَةَ ويبتسمانِ ويَترُكُ إريك لها بَقيَةَ النقود.

لا يتبادلانِ كلمةً في السيارة، يَدَعُها إريك تقودُ في صَمتٍ وهو يَنظُرُ نحو الرافعاتِ التي كانت في كُلِّ زاويةٍ تقريبًا: علامةُ التقدم الذي يحدث، وتحديثُ البلدة.

لقد أراد، لكنَّه نسي أن يَعُدَّ الإعلاناتِ الضخمة على اللوحات الملصَقة أينما التفت.

حينئذٍ، بينما تقودُ السَّيَّارة عبر ازدحامٍ مروري قاسٍ على إحدى الطرق، تنفَّست الصعداءَ كما لو أن شخصًا أراد انتزاعَ شيءٍ من صدرِها.

– إريك، أنا أُحبُّك، أتعلمُ هذا؟

وإريك لا يعلمُ ماذا يقول. يضعُ يدَه اليُمنى على رُكبتِها ويَضغَطُها بِلُطفٍ.

– دعْها.

– ماذا؟

– يَدُك. دعْها، دعْها هناك. أعرفُ أنَّك لا تُريدُ الحديثَ عن هذا.

ويَرى أن وجهها يَفِيضُ بالدُّموع.

وما إن يعودا حتى يفتحَ صندوقَ البريدِ ويَهدُرُ بأن هناك فاتورةً أُخرى.

– فواتيرُ الكهرباء اللعينة تتزايد. انظري إلى هذه!

لكنَّ هذا وقتُ الاستماع إلى شكاواه من فواتير الكهرباء، أو الأدوية التي يحتاجُ شراءَها لأن المستشفى ليس لديها مخزونٌ من هذه الأدوية، أو عن الأشجارِ التي سرعان ما اختفت، أو الباصاتِ التي لم تَعُدْ تعملُ على نحوٍ

مُلائم، ولا مِنَ الفَساد والفضائحِ التي تحيطُ بالوزراء ودوائرِهم الداخليةِ أو غيرِ الأكفاء.

حانَ الوقتُ لأن يرقدا، هكذا، في الظهيرة، بينما هي تَسحَبُ الستائرَ وتَقومُ بتشغيلِ جهاز المكيِّفِ، تَخلعُ ملابِسَها، يَخلعُ ملابِسَه، تُذَكِّرُه كم كانَ كُلُّ شيء سَهلاً، حتى مع فتاةٍ شابَّةٍ في عُمرِ ابنتِه.

تتحرَّكُ القِصَّةُ إلى ذات إيقاعِها القديم، لطيفٌ وسهل، كما يجب أن يكون.

في السيَّارة، قالت بأنَّها أحبَّته كما لو أنَّها تُلقي عن صدرِها حِملاً ثقيلاً، كما لو أنَّها ارتاحت، أو أنَّها صغيرةٌ حيية، لتُحرِّر نفسَها من العبء.

الساعةُ الآن الخامسةُ أو السادسةُ مساءً.

لم تَعُدْ الشَّمسُ تَتَدَفَّقُ من الخارج، إنَّها بالفعلِ خَلْفَ مَجموعَةِ الأبنيةِ الخاويةِ المرتفعةِ التي نَبَتَت حديثًا.

في صَمتٍ رقدا هناك، يدُها في يدِه، تغطيهما ملاءَةٌ لأنَّهما بالبردِ شَعَرا إثرَ هواءِ جهازِ المكيفِ الذي امتدَّ عَبْرَ الحُجرة.

بينا هي راقدةٌ في صَمت، سعيدةٌ إذ أخبرته وأظهرت له كَمْ تُحِبُّه، يَعبُرُ إريك ميدان ألكساندر، مرَّةً أُخرى، وأوَّلُ مَرَّةٍ يومِضُ بأشعةِ الشَّمسِ التي لم يَرَها مِن قَبلُ قَطُّ.

ومرَّةً أُخرى يَتَطَلَّعُ نحوَ الطابقِ الثامن.

ثمةَ امرأةٌ هناك نامَ في فِراشِها ولم يَعرِفْها من قبل. بالكادِ يَعرِفُ ما شَكلُها لأنَّها أطفأت المصباحَ ما إن راحَ يَتَفَحَّصُها.

وكانت الحُجرة مُظلِمَةً للغايةِ وفي ذلك اليوم لم تستطعْ عيناه التكيفَ على الظُّلمَة.

لابُدَ أنَّ امرأةً بالداخلِ، نامَ في فِراشِها ولم يَعرِفها مِنْ قبل.

في مكانٍ ما بالداخِل، في خزانةٍ أو دولابٍ، حِزمةٌ من خِطاباتٍ مكتوبةٍ بيده هو، خطاباتٍ مضت دونما رُدود.

هذه المدينة التي قُسِمَت بسورٍ رمادي وتتعافى الآن، تَعثُرُ على نفسِها ثانيةً.

ليلاً، وما إن يتأكَّد أنَّها نائمة، حتى يهبطَ إلى الطابِقِ الأسفل.

لديه مُشكِلَةُ التنفسِ ثانيةً.

ربما يَستحوذُ عليه التفكيرُ في شيء ما.

إنَّه قَلِقٌ للغايةِ والقَلَقُ ليسَ جيدًا بالنسبةِ له.

ومتورمةٌ تبدو ساقُه اليُسرى. ربَّما، من الأحرى وضعُ ضُمادةٍ حولَها.

وأحتاجُ كوبًا من الماء، كُلُّ الأيَّام متشابهةٌ غدًا وبعد غد، وغدًا، ازحفْ في هذه المساحة الضيقة من عقلي من يومٍ إلى يوم، إلى آخرِ لحظةٍ في الوقت المكتوب، وكلنا حمقى، سبيلنا إلى الموت، أطفئ، أطفئ الشمعة!

الحياةُ ظلٌّ يمشي، لاعبٌ مسكين، يتبختَرُ ويُزَخرِفُ ساعتَه على خَشَبَةِ المسرحِ، ثُمَّ لا يُسمَعُ بعد ذلك.

الحياةُ قصةٌ رواها أبلَه، مفعمةٌ بالصوتِ والغَضَبِ، ليست تدل على شيء.

تصعدُ الدموعُ في عينيه حين يَصِلُ إلى مقطعٍ يقول: *لا يَدُلُّ على شيء* ويَلتفتُ إلى الناسِ الذين تجمَّعوا في الأسفل، مَرئيين وغير مَرئيين في ظُلمةِ المقاعِدِ التي وضَحَت على نَحوٍ مُعتم بِفِعلِ الأضواءِ التي تَنسَكِبُ من فَوقِ خَشَبَةِ المسرح.

تُخيفُ هذا الصمتُ أكثرَ مِنْ غابَةٍ تَتَّجِهُ صوبَه، تَنهَضُ لتلتقيَه أكثرَ من الأشباحِ التي تمشي متثاقلةً حولَه طيلَة الوقت.

لقد ماتَت مُنذُ زمن. لو كانت هنا لأمكنَه أن يَتَحَدَّثَ إليها.

هذا ما يعتقدُه وهو ينتظرُ في الكواليسِ من أجلِ السّتارِ الأخير، الآن قالَ الأحمقُ نصَّه، أخَذَ ساعتَه على المسرَحِ وقريبًا، قريبًا جدًا سينفدُ ضوءُ الشَّمعَة.

هناك امرأتان في الصُّندوقِ الصَّغيرِ قُربَ مِنَصَّةِ المسرَح، ويبدو عليه بينما هو يشاهِدُهما من الكواليس، أنَّه عَرَفَهم مُنذُ سنوات ولم يَتَحَدَّثْ إليهما قَطّ.

ويعرفُ أيضًا أنَّه خَطَؤه. وحينئذٍ يُدرِكُ ثانيةً أن هاتين المرأتين ما كان يجبُ أن يكونا هناك.

كانت شقيقتُه إحداهما، ولا يزالُ عاجزًا عن قَبولِ طِباعِها الغَريبةِ والتَّعايشِ معها، رغمَ ما فعلته لجعلِ حياتِه سهلة: امرأةٌ مُسِنَّةٌ عزباء، ليس ثمةَ من يُعيرُها كثيرُ اهتمام، وربَّما هي التي لم تُعرِ اهتمامَها أحدًا، تَملِكُ إيمانًا قويًّا بالمسيحِ المصلوبِ ومع ذلك فهي امرأةٌ أضمَرَت بَغضًا عَميقًا للكهنةِ بسببِ الطَّردِ من الكنيسة الذي أثَّرَ في حياة والدِها، دائِمًا ما اعتنت بالمرأةِ التي أحبَّتها ودائِمًا ما كانت مُتقوقِعَةً تُشاهِدُ الأفلامَ الغربيةَ وأفلامَ هوليود القديمة.

إنَّها هناك، في انتظارِه ليَخرُجَ مِنَ المسرَحِ لآخِرِ مرَّة، حَزينٌ وجهُها مِثلَ صورةِ جريتا جاربو التي تُعلقُها حيثُ تُحيكُ ثَوبَ مناسَبَةٍ خاصّةٍ وحيثُ تَعيشُ حياتَها.

فأمّا ميلدريد، فبالرغمَ أنَّه كانَ أوَّلَ مَنْ وَقَعَت عليها عيناه، فقد قضى وقتَه بعيدًا ولم يَشهدْ أفضلَ أيَّامِ حياتِها على الإطلاق.

إنَّه لا يدري، على سبيلِ المِثال، متى أضحَت امرأةً، متى تعلَّمَت، متى قبَّلت فتى أوَّلَ مرَّة، مَن الذي نامَت مَعَه أوَّلَ مرَّة، وكم كان عمرَها، لِمَ لم تَعِشْ مع والِدِ ابنتِها.

هو لا يدري شَيئًا عن هذا. ثمَّ مكانان لرجلين آخرينِ على الأقَلِّ في ذلك البلكون، لكنَّ مقعديهما كانا خاويين.

مقاعدُ فارغةٌ تحدَّثت بطلاقةٍ دون أن تتحرَّك.

لقد ماتَت شابَّةً. لو كانت هنا لأمكنَه أن يَتَحَدَّثَ إليها.

لقد عَلِمَ أنَّ أيَّام ليزا مَعدودة، أخبروه بذلك.

اتصل بابنتِه ليسألَها فانفجرت ابنتُه في الدُّموعِ وأخبَرَته أنَّ أُمَّها أضحت شَبَحًا.

مشى الشَبَحُ متثاقِلاً مِن حوله.

لقد حَجَزَ لها مَقعدًا لمشاهدةِ آخِرِ عَرضٍ مسرحي، في البالكون نفسه حيث اعتادت ألكساندرا الجلوس منذ سنوات من قبل- المقعد الآخر الشاغر- في ليلة الافتتاح.

لكنِ اليومَ النسوةُ الوحيداتُ اللواتي يَشغَلْنَ البلكون هُنَّ هؤلاء اللواتي لم يَعرِفْهنَّ والمقاعِدُ التي رَغِبَ فيها زُجَّ بها إلى الخلفية، في الظلام.

الضغطُ في صَدرِه، تَنَفُّسُه. أحيانًا ما يَشعرُ أنَّ تَنَفُّسَه أكثرُ إجهادًا مما يَتَحَمَّلُه نَبْضُ قلبِه غير الطبيعي.

هذا الألَمُ الذي يحاصِرُه عَبْرَ فَتَرَاتِ اليوم تقريبًا.

حانَ الوقتُ لينزلَ عَنْ خَشَبَةِ المسْرَحِ ويَخْرُجُ من البابِ الرئيس.

انتَظَرَ في الكواليس لآخِرِ مرّة، إنَّها اللحظةُ التي طالما فكَّرَ فيها، تَقْتَرِب. إنَّها هنا.

بعضُ النَّاسِ اقتربوا منه بالفعلِ وربَّتوا على ظَهرِه، احتضنوه فَجأةً، بدا أن صَمتًا عَميقًا سوفَ يَحُل.

الصَّمتُ الذي يناديه أن يَستَعِدَّ ليَتَّخِذَ خطواتِه القليلةَ الأخيرةَ على خَشَبَةِ المسْرَح.

حينئذٍ، رجالُ الطبقةِ الأرستقراطية يدعونَ اللهَ ليحفظَ المَلِكَ، وبسرعةٍ يَنسَدِلُ السِّتارُ وراحَ الجُمهورُ يُصَفِّق.

ويُصفِّقُ الجمهورُ أكثرَ حين يبدو هوَ لهم، في ثوبِ مَلِكٍ مخلوع، طاغيةٍ انقَلَبَت عليه ثلاثُ ساحراتٍ شِرِّيرات.

شَيئًا فشَيئًا، راحت الجماهيرُ تَقِفُ على أقدامها وهي تُصَفِّقُ ثم راحوا يصيحون مُخرِجُ المسرحِ القومي يَصعَدُ إلى خَشَبَةِ المسْرَحِ ويُحضِرُ إريك، الملِك إريك، مع باقةٍ كبيرةٍ من الزهورِ الحمراء.

هذا هو آخرُ ظهورٍ له على المسرح، آخِرُ ابتسامَةٍ فَرِحَة.

يُحدِّقُ مُتَحَوِّلاً بعينيه نحو اللوج حيث تحاولُ شقيقتُه أن تُصَفِّقَ وتَمسَحُ دموعَها في الوقتِ نفسه بينا ميلدريد تَرفَعُ يديها وتَمنَحُه التلويحةَ التي اعتادت أن تَمنَحَه إيَّاها ولفافتُها الصوفيةُ في فَمِها حيث غادَرَت المنزلَ في الصَّباح.

لكن تظلُّ ألكساندرا وليزا جالستين على المقاعِدِ في الخلفية، مختفيتين خَلْفَ شقيقتِه وابنتِه، وهما لا تتطلّعان حتى ولا تنحنيان للأمام.

بعد أن راحِ يمشي جيئةً وذهابًا عِدَّةَ مرَّاتٍ، أمام الجمهور الذي لم يتوقَفْ تصفيقُه، يتَّجِه إريك شيري صَوبَ حُجرةِ ملابِسِه مُباشَرَةً حيث يَجِدُ حَشدًا من الممثلين الذين يعانِقونَه ويربِّتونَ على ظَهرِه.

ثمَّ، بَعْدَ ليلةٍ من التهاني وحفلةٍ على شَرَفِه، يَسلكُ إريك طريقَه نَحْوَ البيتِ على النقيضِ من عادَتِه في مثْلِ هذي الليالي الرائعة، مرَّرَ مِفتاحَ بيتِه في البابِ، فَتَحَ البَابَ، مدَّ ذراعيه ليَجِدَ أوَّلَ مِفتاحٍ مِنْ مفاتيحِ الإضاءَةِ وأغلَقَ البَابَ خَلْفَه ولم يُشاطِرْ ليلتَه أحدًا.

لا لأنَّه لم يستطعْ أن يَحظى بِرفقَةِ أحدٍ إلى البيت. ابتسمت تانيا له عِدَّةَ مرَّاتٍ وكانت هناك ابتساماتٌ من ربوعٍ أُخرى وقُبُلاتٍ تريثَت أكثرَ مِنَ المألوف.

شَعَرَ ذلك اليومَ بالضَّغْطِ في صدرِه، بالرَّطوبَة على جبينيه، شَعَرَ بالإرهاقِ مِنْ ساعِتِه على المسْرَحِ، والتي انتهت الآن.

وحيدًا، في الطابِقِ الأسفَلِ، في الظَّلام، يُجاهِدُ كي يَتَخَيَّلَ كيفَ تبدو جوته هايم الآن.

وهكذا مَضَت سنون عديدة، كيف سيتعرَّفُ إليها؟ حتى ميدان ألكسندر ليس بوسعِه التَّعَرُّفُ عليه، دعوني وحدي...

– إريك!

يَنظُرُ إريك فوقَ كَتِفِه، فَزَعًا من الشَّكلِ المعتِمِ الواقِفِ في المَدْخَل.

– لقد أفزعتِني.

– إريك هل تَسْهَرُ ثانيةً؟

– لقد نِمْتُ. استيقظتُ وجئتُ الطابِقَ الأسفلِ منذ وهلةٍ قصيرة.

– إريك، تَعلَمُ أنَّك يَجِبُ أن تَستَريحَ. ما الذي تفعَلُه هنا؟

يقتربُ الشَّكلُ المعتِمُ أكثر. يَظلُّ وجهُه مُختفيًا، حتى مع اقترابِه بالقدرِ الكافي لإريك كي يُلاحِظَ حبَّاتِ العَرَقِ الذهبيةِ الجميلةِ التي تَبْرُقُ كالنُّقودِ الذهبيةِ على جيدِها وصَدرِها.

– مِنَ المُفتَرَضِ أن تُقدِمَ ميلدريد فيما بَعدْ.

– نعم، سأصعَدُ وسرعانَ ما أذهبُ. سأراكِ الليلةَ إذا ما أردت.

– لا، ابقي. ستلتقيان يومًا ما، أليسَ كذلك؟

– لم يحدث بعد.

– لِمْ؟

– تحدَّثْ إليها أولاً، خُذْها من هناك.

– أنت مُحقَّة. أحتاج أن أُخبِرَها عن برلين.

– فأنت ذاهبٌ إذن؟

– نعم.

– بمفردِك؟

– بمفردي. ستكون رحلتي الأخيرة.

– إريك، اسمعني. عليكَ أن تتوقّفَ عن هذا، عن قولِك عن كُلِّ عَمَلٍ أنَّه آخِرُ أعمالِك. وفي المستشفى قالوا إنَّك بِخيرٍ وأنتَ نفسُك تَشعُرُ أنَّك بِخير، لذا فليس من فكرةٍ لديَّ لِمَ تتحدثُ على هذا النحو.

– إنَّها آخر رحلةٍ أقومُ بها وحدي. بعد ذلك سأبدأ في الذِّهابِ مَعًا. هل ذهبتِ إلى سيراكوزا؟

– إذن فلِمَ تسافِرُ وحدَكَ إلى برلين؟

– لسبَبٍ فحسب.

– إريك، أنا لا أتدخّل. أعلَمُ أنَّك دائمًا فَعلتَ ما تريد، طيلةَ حياتِك، أخَذْتَ الأمورَ بأسلوبِك. أعرف. إنّني قلقةٌ لأنَّك ذاهبٌ بمفردِك فَحَسبْ، وأنَّ ما من أحدٍ سيكونُ هناك للعنايةِ بِك. هذا كُلُّ ما في الأمر.

– قالوا بأنني بخيرٍ في المستشفى وأنا أشعُرُ أنني بخير. أليسَ ذلك صحيحًا؟

بعد ذلك بِستِّ ساعاتٍ لا يزالُ إريك جالسًا على مَقعَدِ الفوتي نفسه.

الشَّمسُ ساطعةٌ في الخارجِ والجو حارٌ والرِّيحُ مُتعِبَةٌ. ميلدريد مُمسِكَةٌ بكوبِ ماءٍ باردٍ وسيجارة، وجالِسَةٌ قبالَتَه.

– بوسعي القدومُ معك إذا ما أردتَ. لستَ معافًى تمامًا لتذهبَ إلى برلين بمفردِك، يا أبي، لِمَ لا تستمع؟

– ميلدريد، هنالكَ أشياءُ لا تعلمينها.

– هنالك أحمالٌ من الأشياء لا أعلَمُها، يا أبي. أحمالٌ من الأشياءِ يَجِبُ أن أعلَمَها لكَيّ لم أسألك قَطّ.

– مثل؟

– لا عليك. ليس هذا بالوقتِ المناسب.

– لا، قولي، يا ميلي.

– مثل لماذا غادرت أُمّي.

لم يَسمَعْ هذا السؤالَ من قَبل ودائمًا ما أدرك بأنَّه سيصلُ يومًا ما. والآن ها هو قد جاء، يَحتاجُ لأن يتصَوَّر ما يقول. يتوقَّفُ للحظةٍ، لحظةٍ مسرحية تقريبًا، ثمَّ يُحَدِّقُ في زاويةٍ.

– ماما لم تَستَطِعْ التأقلُمَ على مكان. بسيطٍ كهذا.

– الأمرُ ليس كذلك. إذا كان الأمرُ كذلك لِمَ لم نغادرْ معًا؟

– لا أدري.

– ماذا تعني، بأنَّك لا تدري؟ كيف لا تدري؟ على كُلٍّ دعْ الأمرَ يَمضي، إذا لم تُخبرني فاتركْ الأمرَ يمضي.

– كنتُ في برلين قَبْلَ أن تُغادِرَ، يا ميل. تذكَّري تلكَ الدُّمْيَةَ الدُّبَّ التي أسميناها كارل؟ أحضرتُها لكِ من هناك.

– أعرف. أتذكَّرُه. أتدري ما الذي حَدَثَ له؟

– أعتقد أنَّك قد مَزَّقتِه.

– لا. لقد فَقَدتُه في الملعب.

– أحضرتُه من برلين.

– ذهبتَ إلى برلين. وفي برلين قابلتَ امرأةً والآن أنت عائدٌ كي تراها. هذه هي القصَّة، يا أبي، أليس كذلك؟

ميلدريد. ذكاءُ ميلدريد، لم يَقدْها إلى أن تُحَقِّقَ شيئًا أبعدَ من ذلك.

– أكثر أو أقل.

– وأُمِّي غادرت لأنَّها عَلِمَت. أليس كذلك؟

لا أعرفُ إن كانت عَلِمَت. هل سألتِها قبل ذلك في زياراتِك؟

– ماما لا تريدُ الحديثَ عنك يا أبي. تَعرِفُ أنَّها على علاقةٍ بشخصٍ آخرَ وهي لا تُحِبُّك.

– ماذا تعنين بـ لا تُحبُّك؟

– هي لا تُفَكِّرُ في الماضي. لقد وَجَدَت رجلاً يُحِبُّها وهما يسافران إلى كُلِّ مكان.

– جميل.

في حين أنَّك دائمًا تُفَكِّرُ في نانو، عن الأمور السياسية، أنت مثل العمَّة تيس: نانو هذا ونانو ذاك وماذا فعل رئيس الأساقفة له وماذا فعل القوميون له.

– العمَّة تيس لا تسامِحُهم، أليس كذلك؟

– العمَّة تيس كانَ عليها أن تتزوَّج.

– هذا ما أفكِّرُ فيه أيضًا. وليس بوسعي أن أفهم لِمَ لا تتزوجُ. لا أعتقد بأنَّها ليست جميلة، أليس كذلك؟ حتى على اعتبار أنَّها مسنَّة الآن.

– ألستَ تدري لِمَ لا تتزوَّجُ أبدًا؟

– سألتُها عِدَّةَ مرَّاتٍ لكن، لم تَقُلْ شيئًا.

– أنا أعرف.

– تعرفين؟

– بالطبع أعرفُ، يا أبي، ما من أحدٍ كان هناك مع العَمَّة تيس سواي. في البدءِ كنتُ كابنتِها، ثمَّ، حين كَبُرتُ، أصبحتُ كشقيقةٍ صُغرى. العَمَّة تيس تُخبرني كُلَّ شيء. ليس بوسع العمَّة تيس أن تتزوجَ، في أيّ وقت.

– لِمَ لا؟

– أتريدُني أن أتهجاها لك؟

– كيف لي أن أعرف؟

– إن الأمر فحسب إذا ما تزوّجت امرأة، فإنَّما تحظى برجل، هذا هو السبب. حين لا تريد امرأةٌ الرجال فإنها تحبّ النساء.

– ميل، لقد كانت العمّة تيس أجمل فتياتِ شارعِنا، لن أقولَ قريتِنا بأكملِها. لذا لا، لا أستطيع حقًّا أن أفهَمَ المشكلة.

– لا أدري يا أبي، أحيانًا أتساءَل هل أنت الرجل الذي ظننتُ دومًا أنه أنت، أمْ أنَّك مَحْضُ غلامٍ غبي.

– العمّة تيس؟

– نعم، شقيقتُك تيس. هذا هو الأمرُ. شقيقتُك الوحيدة لم تَعرِفْها ولا تَعرِفُها. اذهب واستنتج!

– لكنَّها أحيانًا تخرجُ مع هذا الشَّاب، لا؟ ما اسمُه؟

– الشَّابُ الذي لا تعرفُ حتى اسمَه– إنَّه يُدعى فريد، بالمناسبة– يحدثُ أن تكونَ الشقيقَ الأعظمَ..ماذا نسميها؟ الصديقَ الأفضل؟ هل هذا جد؟ وهي تُحبُّه كأخٍ لأنَّ أخاها الشقيق لم يُعرْها أدنى اهتمامٍ. وبعد أن مرَّضت أُمُّها ووالدُها ورفيقُها أدركت أنَّ هذا الشَّاب كان وحيدًا واعتنت به أيضًا، قدرَ ما اعتنت بي. هذه هي العمّة تيس بالنسبة لك يا أبي. أعرفت؟

– نعم.

– الآن، لِمَ أنت ذاهبٌ إلى برلين، ولِمَ أنت ذاهبٌ بمفردِك؟

– أنا ذاهبٌ بمفردي لأنَّها قد تكون آخِرَ رحلةٍ لي.

– بوسعك الذهابُ في آخِرِ رحلاتِك بِرِفقَةِ ابنتِك، ألا يُمكنك؟

شيءٌ لم تفعلْه من قبل يا أبي.

– تعلمين أنني دائمًا ما سافرتُ وحدي.

– ربَّما لأن هناك شخصًا ما دومًا عليك أن تقابله؟

– لا، ليس هذا هو السَّبَبُ. يا ميلدريد، في عملي، الجميعُ يعلمُ من أنا. إنني أذهبُ للتسوقِ والنَّاسُ يحيونني، إنَّهم يتوقَّفونَ حتى للتحديقِ أحيانًا رغم

ذلك فأنا لا أعرِفُهم، الجميعُ يعرفُ مَنْ أنا في كل مكانٍ أذهبُ إليه، ودائمًا ما أكونُ بِحاجةٍ للانفلاتِ بعيدًا عن كُلِّ هذا.

جزءٌ من الحقيقة أنني دائمًا ما فعلتُ أشياءَ كهذي، تذكَّري، وهكذا التقيتُ بأُمِّك.

– حقًّا، وهكذا التقيتَ امرأةً في برلين والآن، بسَبَبِ هذا ستكونُ هذه آخِرَ رحلاتِك، ستقابِلُها ثانيةً.

ربَّما ستكون آخِرَ مرَّةٍ تلتقيها فيها مُذ عشتما بعيدًا عن بعضكما. إنَّ هذا يبدو كفيلم، هذه قصَّة، أو إحدى المسرحيات التي اعتدتُ تمثيلَها.

– ميلدريد..

– دَعْكَ من هذا يا أبي، وأخبرني أنَّك تريدُ الانفلاتَ من كُلِّ هذا! على أيَّ حال، لم تَعُدْ تعملُ بعد الآن، لستَ بحاجةٍ لأن تَرحَلَ بعيدًا عن هنا.

– ألم أَعُدْ؟ ألا تعتقدين؟ أتعتقدين أن بوسعي تَحَمُّلَ ذلك بكُلِّ المضايقاتِ التي تجري الآن؟ أتعتقدين بِحَقٍّ أنَّ هذه البلد تسيرُ على صواب؟

– لا تُغيِّر الموضوع. أنا لا أهتَمُّ بالبلد. على أيَّ حالٍ فأنا أُفكِّرُ في الرَّحيل.

– هذا في صالحِك. وإلى أين ستذهبين؟

– أولاً أسمعُ منك ما أُريد سماعَه منك وحينئذٍ سأخبرُك ما سأحتاجُ أن أُخبرك به. أبي، لن أتدخلَ وأُخبرُكَ أينَ تذهب. لطالما فعلتَ كما أردتَ وأخذتَ الأُمور بأسلوبِك. لن أتدخلَ. لكن صدِّقْ أو لا تُصدِّق، إنني قلقة بشأنِك كثيرًا لأنَّك أبي.

– إنني بخيرٍ رَغمَ كوني وحدي.

– أبي أعرِفُ أنَّك لستَ بمفردِك. أنا لستُ غبية. وتَوَقَّفْ عن أن تُخفي الأُمورَ عني، حسنًا؟ أعرِفُ أنَّ لديكَ شَخصًا يعتني بك.

وأعرِفُ أنَّكَ لا تُريدُني ولا تُريدُ العَمَّة تيس.

أعلمُ أنَّك احتجتَ الذِّهابَ إلى المستشفى أمس وأعلَمُ أنَّك لم تَذهَبْ إلى هناك بمفردِك.

والعَمَّة تيس تعرفُ ذلك أيضًا، والآن وأنا أذكرُ ذلك، أنَّها تأذَّت بالفِعلِ لأنني حين كنتُ طفلةً كنتُ دومًا تَطلِبُ منها هذا وذاك ولكن منذ ذلك الوقت لا تَطلُبُ منها شيئًا. والآن، والجميعُ يَعرِفُ أنَّك في حالةٍ يَجِبُ ألّا نَترُكَكَ فيها وحدَك، لا تُخبِرنا شيئًا.

وكُلَّما جئتُك إلى هنا، أردتَ إخبارَك عن موعدِ مَجيئي أكُلَّ هذا كي لا أُفاجَئ وألتقي مسز شيري. اللعنةُ على هذا، يا أبي، ألا تُدرِكُ أنّي امرأةٌ ولستُ ابنةَ السِّت سنوات التي ستَبتَلِعُ كُلَّ ما تُخبِرُها به؟ أتعلمُ أنني كَبُرتُ؟ أتعلمُ أنَّ لديَّ أطفالاً؟

حَسَنًا، إذن، شيءٌ واحدٌ الآن، مَنْ هذه المرأةُ التي تقطنُ في برلين؟ ما اسمُها؟

- جوته هايم.

- وستعتني بِكَ طيلَةَ فَترَةِ إقامتِك هناك، أعتقد؟

- لا. إنني حتى لستُ أدري إن كنتُ سأراها.

- انتظِرْ لحظةً. أنت لم تخبرني أن..

- أخبرُك ماذا، يا ميلدريد؟

- لم تخبرني أن في هذا الفيلم، هذه المسرحية الطويلة، ثَمَّةَ شخصيةٌ أُخرى لم نَعرِفْ عنها قطّ، أليس كذلك؟

- أيُّ شخصيةٍ أُخرى؟

- شقيقةٌ أو شقيق لي، على سبيلِ المثال.

ها هنا فكرة لم تَخطُرْ ببالِ شيري منذ عام 1980.

الآن في مكانٍ ما في ميدان ألكسندر، ربَّما يكون هناك شابٌّ يحتسي القهوةَ ويُخَطِّطُ لرحلةٍ ليرى الأبَّ الذي لم يلتقِه من قَبْلُ قَطّ. طويلٌ، ذو شَعرٍ أسود، رَغْمَ أنَّ والدتَه شقراء، يرتدي كمن يرتدي من هُمْ في مِثلِ عُمره، يكتبُ ذكرى عن والدتِه، النادِلةِ البسيطة التي تَقْطُنُ في مبنىً رمادي مثل الميدان، في شَقَّةٍ في الطابِقِ الثامن، والتي، مرَّةً فحسبْ فَتَحَت أريكتَها الفِراش لإريك شيري، الممثلُ الشهيرُ والذي ظلَّ غيرَ معروفٍ خارجَ دائرةِ معارِفِه على نحوٍ واقعي.

والفصلُ الذي في المنتصفِ يبدأُ بجملةِ إنني لم أعرف أبي قطّ.

في كُلِّ مَرَّةٍ سألتُ والدتي عنه كانت دَومًا تُغَيِّرُ موضوعَ الحديث.

لكن اعتدنا فترةً طويلةً أن نتسلَّمَ خطاباتٍ طويلةً من البحرِ الأبيضِ المتوسط، من جزيرةٍ صغيرةٍ جدًا، كانت والدتي تذهب إلى الحمَّام لقراءته بعيدًا عن عيوني المتلصِّصة. وكانت كلّما تسلمت هذه الخطابات، كان مِزاجُها يتغير.

أحيانًا ما رأيتُها تبكي، ليس كثيرًا، لكن على وشك البكاء، وحينئذٍ، حين لاحظتُ أنني أرمقُها، كانت تلتقطُ نَفَسًا عميقًا وتتكلَّفُ أن تبتسمَ وتَطلُب مني أن أواصلَ مشاهدةَ التلفاز.

حين كنتُ في الثامنة من العمر، على أبوابِ التاسعة، رأيتُ الحائِطَ ينهارُ وقالت أُمي بوسعِنا أن ننتقلَ الآن ونذهبَ أينما أردنا، اعتقدتُ أننا أخيرًا سنلتقي هذا الأبَّ الذي لم أره من قبل. لكن لا شيء حَدَثَ. أبي لم يَحضُرْ قطّ.

– لا.

– أأنت متأكِّد؟

– لا، ليس بوسعي أن أتأكّد. لقد التقيتُ جوته هايم ذاتَ مرّة. ونعم، أنا ذاهبٌ إلى برلين كي أحاولَ العثورَ عليها. لأقولَ لها أهلا أو وداعًا، مثلما آملُ أن أفعلَ مع والدتِك.

– أبي، دعْ التراجيديا لذاكرتِك. ليس هذا بمسرح، تسترزقُ به. مثل كُلِّ هذا الهراء الذي تريدُ إخبار الجميعِ به، أنَّك ستموتُ قريبًا، دعّ هذا فحسب. حسنًا. ثانيًا: مع من أنت؟

– اسمها مونيك.

– ممثلة

– لا، إطلاقًا.

– مُعجَبة مُسِنَّةٌ مثل ليزا إذن؟

– ليزا؟

– هيا يا أبي! لِمَ تُصِرُّ على الاستمرار في هذه المهزلة؟ إنَّها المأساةُ أولاً، ثمَّ المهزلة، أليسَ كذلك؟ أبي، أنا لا أعرفُ قصَّتك، لكنني التقطتُ بعضَ الشذراتِ من هنا وهناك. أتعتقدُ بأنَّ أصدقاءَك في المسرح سيهدؤون ولن يسألوا أُمي عن قصةٍ كهذي؟ وهل تعتقدُ بأن ليزا سوفَ تَصمِتُ حين تصيرُ رفيقةَ أعظم ممثل مسرحي في زماننا؟ هذا عن الواقعية كفكرةٍ لم يعرفْها زوجُها.

لقد عَرَفَ عنك وعن الرجالِ الذين أقامت علاقاتٍ معهم. ولن أُفاجَئ إذا ما عرفتُ بأنَّكم جميعًا كنتم في الجنازة لتعزيتِه وتمني حياة مديدةً له!

كان إريك شيري صبيًا صغيرًا طيبًا. لم يكُن على قِمَّةِ فصله الدراسي في جميع المواد الرئيسية لكنَّه دومًا كان من بين أفضلِ التلاميذ.

لقد جَذَبَ الانتباهَ لكونه جذَّابًا، وكان جميعُ المعلمين منجذبين إليه، لا سيما هؤلاء الذي مثل ماريون، الذين لم يتزوجوا ولم يكُن لديهم من أحدٍ يحتضنونَه أو يُقَبِّلونَه أو يُدلِّلونَه.

لكنَّه فتنَ المعلمين الآخرين أيضًا. وحين كَبُرَ وراحَ يَصيرُ مُشاغبًا، كانوا لا يزالون يعتقدون بأنَّه جذّابٌ رغم سلوكياتِه السَّيئة، التي كانوا يأملون ألا يروها حيث إنَّها مزاجيةُ فنَّانٍ ناشئ.

حتى إنَّه أخيرًا أضحى فنّانًا بعيدًا عن توقُّعِ أحد.

لم يتخيلْه أحدٌ مُحاميًا أو طبيبًا، أوَّلُ الأمور أنَّه كان ابنَ والدِه وثانيهما أنَّ عقلَه دائمًا ما بدا في مكانٍ ما، سوى أثناءِ دروسِ الأدب وشكسبير.

في ذلك الوقت، في عمرٍ مُبَكِّر أتقنَ بالفعل استغلالَ جاذبيته، أولاً ليعجبَ البالغين وثانيًا كي يستمرَّ كي يتميَّزَ ويجعلَ أصدقاءَه يشعرون تجاهَه بالغَيرة.

لقد أدرك كم كان محبوبًا، من قِبَلِ المعلمين وأصدقائِه بل وحتى شقيقاتِ أصدقائه.

قبل أن يبدأ في حِلاقة ذقنِه قضى ساعاتٍ أمام المرآةِ مُتدرِّبًا على النصوصِ التي جعلته مشهورًا بعد ذلك، مُتَطَلِّعًا إلى نَفسِه مُستقبِلاً استحسانًا مُتَخَيَّلاً وهو يرتِّبُ شَعرَه، وفي الدقيقةِ التي بَدَت البثورُ على وجهه بدأ يَستخدمُ كُلَّ أنواع الكريمات أو المراهم التي أمكنَه الحصولَ عليها.

استخدمَ المرهَمَ الذي استخدمه والده لشَعرِه، إلى أن قرَّر، ذات يومٍ رائعٍ، أن يَدَعَ شَعرَه ينمو طويلاً وخشنًا ومتشابكًا.

الأمير إريك. لكنْ في تلك المناسباتِ النادرةِ حين كان يوبِّخه مُعلِّمٌ كان يتقهقرُ في قوقعتِه، ويُخفي رأسَه ولا يدري كيف يَرُد.

هكذا يَشعرُ الآن أمام ابنتِه.

لطالما اعتقد بأنَّ حياتَه تَخُصُّه هو وليس أحدًا غيرَه، مَنَحُه أو أخذُه تفاصيلَ مُهمَّةٍ لأيَة امرأةٍ، يستندُ على احتياجاتِه في ذلك الوقت.

لكنَّ ميلدريد، تذكَّرها الآن فحسب، راقبته بما يكفي لمعرفتِه عن بُعد، وقد عرفته جيدًا حتى من بعيد. لقد كانت امرأةً، كانت ميلدريد أُمًّا، حتى وجهها دليلٌ على نُضجِها بالأسلوب الذي لم يكُن عليه وجهُه.

جالسةً هناك هكذا، أطفأت سيجارتَها لتوِّها، مُمسِكةً بكوبٍ بكلتا يديها، هي تُشبه والدتَها.

– لننس كُلَّ شيء عن هذا، يا أبي. أنت فنَّانٌ وتحتاجُ لأن تحيا حياةَ فنَّان. أرادت أُمّي أن تفعلَ ذلك أيضًا. على كُلٍّ لم تلتقها في كنيسةٍ أو جماعةِ صلاة، أليس كذلك؟

لم تكونا قديسين، أيًّا منكما. أنا القديسة الوحيدةُ ها هنا، الشُّكر للعمَّة تيس.

– أنتِ لم تأبهي بنا على الإطلاق يا ميل.

– كيف يتأتَّى ذلك لي وقد قضيتُ جُلَّ وقتي مع عمَّةٍ عانس استحوذت عليها الصلاةُ ووالدُها؟ معذرةً، إنَّ لديَّ أشياءَ مُدَمَّرةً قليلاً هناك، وقد ذهبتُ الآن وأصبحتُ أُمًّا عزباء.

– كنتُ أُفكِّرُ، يومًا من هذه الأيَّام يَجِبُ أن نذهبَ معًا لقضاءِ أجازةٍ، يا ميل.

– متى حَدَثَ لك ذلك، في آخرِ خمس دقائق؟

– لا، لا، منذ وقتٍ أطول بكثير. لطالما فكَّرتُ في ذلك لوقتٍ طويل. أنتِ وصغيرتكِ والعمَّة تيس..

– وأفترضُ أنَّ علينا أن نصطحبَ مونيك معنا أيضًا، أليس كذلك؟ على كُلٍّ فقد أصبحت جزءًا من أسرة إريك شيري السعيدة.. آمل حقًّا أن تُحبَّها وليس لأنَّه ليس لديك اختياراتٍ أُخرى، وليس لديك أحدٌ آخر.

– ميلدريد، تعلمين، أنني لن أعيشَ طويلاً.

– أبي، توقَّف عن قولك هذا! أكره هذا الصنفَ من الحديثِ ولا أُريدُ الاستماعَ إليه. ماذا قالوا في المستشفى؟

– ليسَ سيئًا.

– ليس سيئًا أي بخير؟

– بخير.

– ومتى سألتقيها؟

– أتريدين مقابلتَها؟

– أُريدُ أن أرى مَن مع أبي. بالطبع أُريدُ رؤيتَها. ثمَّ سيمكنني إسداءَ نصيحةٍ إذا ما كانت تناسِبُك أم لا.

يبتسمان، بل يضحكان قليلاً وتُشعل ميلدريد سيجارةً أُخرى وتنزلقُ إلى الأسفلِ في مقعد الفوتي.

– أعتقدُ بأنني سأتزوج.

– تعتقدين؟

– أعتقد هذا. وآمل ألا أحذو حذوَ أُمِّي وأبي.

– تمانِي.

– وربما آخذُ العمَّة تيس بعيدًا معي.

– العمَّة تيس ليست في حاجةٍ لأن تعيشَ في بيتِ شخصٍ آخر.

– سآخذها معي أنَّى ذهبتُ. لن أمكثَ هنا، يا أبي.

– هل ستذهبين لتعيشي قُربَ والدتِك؟

– قرب والدتي؟ أين يُمكن أن يكون ذلك؟ في تشيستر؟ أم في يختٍ مبحرٍ إلى كُلِّ مكان؟

– أين إذن؟

– بعيدًا عن هنا، رفيقي ليس من مالطة، وأعتقد بأننا سَنبتَعِدُ عن هنا. الآن إنني أتضورُ جُوعًا وسأتناولُ بعضَ الطَّعامِ. أبوسعِ سيدتِك أن تطهوَ لنا وجبةً ملائمة؟

– تعلمين أنني لا آبه كثيرًا بالطعام.

– وبرلين، متى ستذهبُ إلى هناك؟

– مازلتُ بحاجةٍ لأن أُفكِّر، لكنَّ ذلك سيكون قريبًا.

– لا تَوَدُّ أن تموتَ أثناء ذلك، أليسَ كذلك؟

يبتسمان ثانيةً حتى إنَّهما يضحكان قليلاً.

– ما اسمُها قلتَ؟

– مونيك.

– لا، أعني المرأةَ التي في برلين.

– جوته.

– حين تصلُ إلى هناك اسألها إن كنتَ حصلتُ على أخٍ أمْ أُخت.

– لا أدري إن كنتُ سأراها.

– اتَّصِلْ بها، يا أبي، أو أرسلْ إليها إيميل. وهكذا بوسعِكما أن تلتقيا، حسنًا، ربَّما تَحْتَ تلك القناطر، أو في منتصف ميدان ألكسندر، مَشهدٌ رومانسي جميل، ألا تعتقد؟ كمشهدٍ من فيلم. ممثلٌ يلتقي صديقةً قديمة، ألن يكون ذلك مشهدًا جميلاً؟ ثمَّ على مَهَلٍ تصعدُ كلمةُ النِّهاية. والعَمَّة تيس تبكي مثلما تفعلُ حينما تشاهدُ "ذَهَبَ مع الريح".

– قد يكون. لكن ذلك لن يَحْدُث.

جالسًا في مؤخِّرَةِ تاكسي. يسير عبر بلومبيرج دام. السائقُ يستمعُ إلى أُغنيةٍ في المذياع. الشمسُ مشرقةٌ لكنَّها ليست حارَّة. ربيع. التاكسي يدور عند

ألت- بيزدورف، ألت- فريدر يكسفيلدت، طريق فرانك فيرتر ، وطريق كارل ماركس، ويتَّجِه نحو ميدانِ ألكسندر.

ثمَّةَ امرأةٌ شقراء بأناقةٍ قُدُمًا تمشي إلى اليسار. ينبضُ قَلبُ إريك شيري. يرى هذه المرأةَ الشقراءَ من الخَلفِ تَسيرُ قدمًا بأناقةٍ. تَحمِلُ حقيبتَها في يَدِها اليُمنى.

يُبطئُ التاكسي في الزِّحامِ مُتَّجِهًا صَوْبَ ميدانِ ألكسندر.

هذي المرأةُ الشقراءُ تمشي بمفردِها، محافظةً على استقامةِ مشيَتِها، بخطوةٍ لطيفةٍ، في هواءِ هذا الربيع، ربَّما كانت في طريقِها للتسوّق في كافو، أو ربَّما كانت تقابِلُ ابنَها في هذا الكافيتيريا حيث قامت بخدمةِ النَّاس، منذ سنين عِدَّة، والسيَّاحَ، السيَّاحَ القليلين، وكانت مفاجأةً لها أن تراه هنا.

ثمَّةَ امرأةٌ شقراء ثبَّتَ إريك شيري نظرَه عليها بينا يهتزُّ التاكسي للأمام مَرَّةً أُخرى.

يخفقُ قلبُه أسرعَ قليلاً، ثم أسرعَ قليلاً ثانيةً ثم أسرعَ وأسرعَ، حبَّاتُ عَرقٍ، تبدو على جبينه.

يتوقَّفُ التاكسي مَرةً أُخرى وبوسعِه رؤيتُها من صورتِها الجانبية، وهي تسيرُ بأسلوبِها الأنيق، وبرقةٍ تؤرجحُ حقيبتَها التي في يَدِها اليُمنى.

يطلبُ إلى السائق أن يتوقَّفَ، لكنَّ السائِقَ لا يَسمعُه، إنَّه يستمعُ إلى الراديو.

يطرقُ إريك فوقَ زجاجِ نافذةِ التاكسي لكنَّ طريق كارل ماركس وسيعٌ للغايةِ وصاخب، وهذي المرأةُ الشقراءُ تستمرُ في طريقِها، تواصِلُ السَّيرَ دونما أن تُعيرَ اهتمامًا.

يَطرُقُ إريك فوقَ الزجاجِ بشدّةٍ والآن ينظرُ السائِقُ نحوَه في مرآةِ التاكسي ويَرفَعُ صوتَه ويقودُ ويتوقَّفُ ثانيةً ويُحاولُ إريك أن يفتحَ البابَ، رغمَ أن السَّيَّارَةَ

على مَهَلٍ تتحرَّكُ قُدُمًا، ويُحَلُّ حِزامَ مَقعَدِه و يَفتَحَ البابَ، ويَتَوَقَّفُ التاكسي ويَخرجُ إريك منه، يَرفَعُ يدَه ليشيرَ للمرأةِ الشقراءِ التي تمشي قُدُمًا بخطوةٍ لطيفةٍ في أسلوبِها ذاك الأنيق، في خِفَّةٍ تؤرجِحُ الحقيبةَ بيدِها اليُمنى.

يحاولُ إريك أن يَمشيَ أسرعَ لكنَّ ساقَه تبدو قد ضعفت بينا يلتقطُ نَفَسًا عميقًا ويحاول أن ينادي، يحاولُ أن يناديَ على المرأةِ الشقراء، شَعَرَ كأنَّ صدرَه يكادُ أن ينفجرَ، وفجأةً شَعَرَ بأنَّ رأسَه يَثقُلُ ويسقطُ، يسقطُ إلى الأرضِ وعلى الأرضِ ظلَّت عيناه تتبعانِ كعبي حذائِها وصورةُ تلك المرأة الشقراء تُمعِنُ في الابتعاد، تمشي نحو ميدان ألكسندر، نحو الميدان، نحو المنتصف، الكافيتيريا ربَّما. ثم يُغمى عليه

– أعتقد أنَّنا تحدَّثنا كثيرًا اليومَ، يا أبي، ربَّما تحدَّثنا كثيرًا للغاية.

– خلال دقائقَ معدودة أفلَحنا في قول كُلِّ شيء، لم نقلْه من قبل يا ميلي.

– هذا حَقّ. قُمنا برحلةٍ في حياتِك،يا أبي.

– أأطلب صفحكِ ؟

– أبي لقد عشتَ حياةً فنان. وأنا أُحِبُّك، ليس بوسعي منعُ هذا. أتعرف؟ لكن ذلك بدا حقًّا كما لو كانَ المشهدَ الأخيرَ في أحدِ أفلامِ العمَّة تيس، وهي ليست أفلامي المفضَّلة. وعلى أيّ حال أحتاجُ أن أمضي لأُحضِرَ ابنتي سريعًا. ربَّما تأتي مسز شيري معك إلى برلين. بوسعِك قضاءُ شهر عسل جميل. ميدان ألكسندر. أوه لا، انتظرْ، أنت ذاهبٌ إلى هناك لتلتقيَ..ما اسمُها ثانيةً؟

– جوته–

– حقًّا، جوته. إذن مسز شيري عليها أن تمكثَ منتظرةً مثل مسز شيري الأُولى ومثل ليزا أيضًا. ومثل ميلدريد والعمَّة تيس. جميعُنا في انتظارِ عودتِك. كم جميل.

حينئذٍ سيأخذُنا ممثلُنا المشهورُ في أجازة، آخِرُ رجلاتِ إريك شيري مع كُلِّ النساء، أو تقريبًا النساء في حياة. وإلى أين ستأخذُنا يا أبي؟

– إلى أين تودِينَ الذهاب؟

– لا يَهُم، حتى رحلة إلى صقلية لا بأسَ، سرقوسة، ربما؟

حان الوقت لأن نتوقّف عن كوننا متفرجين. حان الوقت لأن نُصبحَ مناصرين، جميعُنا، مناصرون معًا. كونوا مناصرين في هذه الحركة. كونوا مناصرين كي نتّحدَ جميعًا من أجلِ التغيير. الآن وقتُ الاتحادِ من أجلِ التغيير، كي نصبحَ أنصارَ

التغيير. إننا نواجِهُ فرصةً تاريخية، فرصة تأتي مرَّةً واحدةً في حياةِ الشخص، كي نكتبَ فَصلاً جديدًا في تاريخ بلدِنا معًا. وهكذا أودُّ أن أشكرَ، أشكرَ كُلَّ هؤلاء الذين تقبَّلوا دعوتَنا كي ينضمَّ إلينا، وهؤلاء الذين سينضمون إلينا.

أشكرُكم لشجاعَتِكم التي أبديتموها في اتخاذِ هذه الخطوة.

شكرٌ خاصٌ لكُلِّ هؤلاء الذين اعتادوا العملَ ضِدَّنا مع الأحزابِ الأُخرى.

أعلمُ كم كانت صعبةً هذه الخطوةُ للعديدِ منكم، لكنني أعرف أيضًا أنَّكم الآن اتخذتُم هذه الخطوة، تشعرون أنَّ هذه الحركةَ هي بالفعلِ وطنُكم الطبيعي. نقف معًا كتفًا لكتف، نعمل لنَقودَ مسارًا مُختلفًا. أيًّا كان من التحَقَ بهذه الحَركةِ فقد وَجَدَ الأبوابَ مفتوحةً على اتساعِها.

لِنُعِدْ بلدَنا إلى الشَّعب.

جالسًا في مقعدِه الفوتي المعتاد، يشاهدُ إريك شيري الخُطبَةَ العاطفية لقائِدِ الحزبِ الجديد.

آلافٌ من الناس، آلافٌ من الأعلام، صياحٌ متواصلٌ وصراخٌ وتَصفيق.

وهو، القائدُ يقفُ هناك، في منتصفِ المسرح. مُرَحِّبًا بالحماسةِ بحماسةٍ كبيرةٍ من قِبَلِه.

مونيك، عيناها مفتوحتان على اتساعِهما مشرقتان، تُرسِلُ رسالةً إثرَ رسالةٍ على حائِطِها في الفيسبوك.

– ماذا تظنُ يا إريك؟

– أظن؟ عن أي شيء؟

– ماذا تعتقد؟

لا يزالُ إريك شيري يفكِّرُ بشأن المكالمةِ التليفونية التي تسلّمَها منذ أسبوعٍ من مركزِ قيادةِ الحزب.

الرجلُ الذي على الهاتِفِ قال بأنَّها كانت لحظةً حقيقة حيث يُمكن أن تتعافى البَلَدُ وتقفُ على قدميها.

قال الصوتُ الدَّمِثُ، صوتُ الرجل الذي درس علاقاتٍ عامّة في قاعة كلية: نعرفُ من أنت، ونَوَدُّ أن ندعوكَ لتنضمَ إلى الحركة.

لديك مساهمة كي تصنعَها، يَستَمِرُّ الصوتُ، ونحن نُصدِّقُ أن بإمكانِك مساعدة الحركة.

إنَّه لم يَعُدْ الحزبِ نفسه الذي أضَّلَ والدُك لعودتِه حينَ مُنع.

إنَّها حركةٌ كامِلَة من الشَّعب من مُختلفِ مساراتِ الحياة، بِقِصَصٍ مُختلفة.

إننا نَوَدُّ مساهمتك.

ردَّ إريك، أنت تفهمُ، أن تاريخي الشخصي مثيرٌ في كُلِّ وعي بالكلمة. وردَّ الصوتُ في نبرةٍ دَمثةٍ وحادَّةٍ في آن: بالطبعِ نفهم: لذا نَحُثُّكَ على المساهمة.

إنَّها لم تَعُدْ مسألة ثائر، لقد أصبحت مسألة البلدة كلِّها. إنني أتحدَّثُ إليك كعضوٍ في حركةٍ معتدلةٍ تقدمية، لا كحزب.

إنّا نطلبُ إليكَ أن تُصبحَ مُناصرًا.

لم يكُن في أي مكانٍ قُربَ المسرحِ القومي مُنذُ اليومَ الذي شاهدَ في النَّاسِ يقفون على المقاعِدِ بأقدامِهم لتحيتِه.

لقد مضت مدَّة.

يتوقّف التاكسي أمام بابِ المسرحِ المغلق.

هناك يجدُ أربعةَ أشخاصٍ في انتظارِه: الصوتُ القادِمُ من التليفون يحثُّه أن يفتحَ البابَ له ويسلِّمُ عليه وبالثقةِ التي تعلَّمَ بها في مدرسة الأعمال يشكرُه

لقَبُوله دعوةَ الحركة ويُقدِّمُ الثلاثةَ أشخاصِ الآخرين- مصورٌ له كاميرا ذاتُ عدسةٍ في حَجمِ التليسكوب، شابٌّ آخر يبتسم ويومئ في حياء، وامرأةٌ شابَّة لها حقيبةُ إكسسوارات ماكياج.

المرأةُ الشَّابّة تَلمَسُ وجهَه بفُرَشٍ خفيفةٍ عِدَّة، يستغرقُ الأمرُ دقيقتين.

الشَّابُّ الخجولُ يُعدِّلُ طياتِ سترتِه وياقةَ قميصِه والمنديلَ الصوفيَّ ذا اللون الخمري وذا الرسوم الذي حول رقبته.

لقد التقطوا حوالي خمسين صورةً، والمسرحُ القومي في الخَلفية.

حينئذٍ، الصوتُ القادمُ من الهاتِفِ، بنبرتِه الدَّمِثَة يدعو إريك إلى مشروبٍ في الكافيتيريا على طول الشارع من المسرح، قبل أن يَصلَ التاكسي ليُقِلَّه عائدًا إلى البيت، هناك يجدُ مجموعة صغيرةً من النَّاسِ الذين يتذكرون زياراتِه المسائية قبل التدريبِ على الغناء.

الحُجرةُ مغطاةٌ بصورِ مسرحيةٍ قديمة ومشاهدَ من مسرحياتٍ ماضية.

ثمةَ صورةٌ لإريك شيري، دون الثلاثين، يتحدَّثُ إلى جمجمةٍ، إريك شيري أصغرُ، واقفٌ نصفَ عارٍ مُحاطًا برؤوسِ الخيول، إريك شيري مع تانيا بارتولو بين ذراعيه تَحمِلُ نظرةَ معاناةٍ قويَّة، إريك شيري في قناعٍ أسود بأنفٍ ضخمٍ معقوف، ولا تُخطِؤها العين- إريك شيري بتاجٍ ملكيٍ فوقَ رأسِه، تَحرَّكَ على نحوٍ مرئي، وذراعاه مفتوحان على اتساعِهما في يوم إسدال الستار الأخير.

من بينِ هذه الصور المعلَّقة الكثير من البوسترات واسمُه، إريك شيري، يظهرُ على أكثرِ من نِصفِهم.

التقريرُ الصَّوتي في الحَركةِ لا يسترعي انتباهَه ذرَّةً واحدة.

مُذْ عادَ من برلين يَشعرُ بالضَّغطِ في صدره أكثر، والآن أينما نَظَرَ في المرآةِ ثَمَّ وجهٌ شاحبٌ يَعبَسُ أمامَه.

علَّمته برلين بأنَّه لن يعيشَ أطول.

بعد الصباحاتِ في ميدان ألكسندر، جالسًا قُبَالَةَ رواقِ كافو وحتى، ذلك المكتب في شارع كارل ليبنيكت، يعودُ إلى البيتِ حامِلاً ثِقَلاً لم يشعرْ به من قَبْلُ قَطّ.

لقد عاد من برلين شاعِرًا بالفراغِ والثِقَلِ ولاحَظَ ذلك ما إن سَقَطَ على مَقعَدِه في الطائرةِ في مَطارِ تيجيل في رحلتِه للعودة.

ما إن هبطَ في المطارِ المهجورِ تقريبًا ومشى عَبْرَ مَمَرٍ محجوزٍ لمسافري شنحن. متصلبتين بدت ساقاه.

في هذا المكان ما زالَ يَشعرُ أنَّه ليس في المكانِ الملائِم.

دائمًا ما تواتيه الفكرةِ نفسها في كُلِّ مرَّةٍ يَجِدُ فيها نَفْسَه داخِلاً إلى المطارِ من أحدِ طَرَفيه، ليخرجَ مِنَ الطَّرَفِ الآخَر.

بعد برلين شَعَرَ أنَّه لن يسافرَ إلى برلين ثانيةً. ما إن اجتاز الأمنَ حتى وجدَ ميلدريد ومونيك، كلاهما في انتظارِه بابتسامةٍ على وجهيهما.

وعانقاه لأنَّه، ترى، الرجل المريض عاد سالما.

مونيك وميلدريد، كلتاهما شابَّة وجميلة، من أحبَّتاه ومن أحبَّهما، كلتاهما إليه ينتمي، كلتاهما تَقِف إلى جواره.

حلَّ التَّعَبُ بعدما حدث كُلُّ هذا في برلين، بعدَ تِلكِ الأيَّام الطويلة بل والليالي الأطول التي بالكاد كان ينامُ خلالها.

لذا حين أبصرهما معًا تلوِّحان وتبسُمان، شَعَرَ كأنَّه يبكي.

حين عادَ إلى البيتِ أضحى كُلُّ شيء أسهلَ مَرَّةً أُخرى، كُلُّ شيء كان تامًّا كما لو أنَّه يُلائمُ حياةَ المِلكِ إريك.

لكنَّه قَبَضَ في قبضةِ يدِه الأشواكَ التي جَمَعَها من برلين: من ميدانِ ألكسندر، ومن مارزان هيليسدوف وشارع كارل ليبينكت، والمحطةِ الرئيسة، ومِن حجرته بفندق بارك إن، ومن أماكنَ أُخرى.

لم تكُ لديه رغبةٌ في أن يَعرِض هذه الأشواكَ لأيِّ شخصٍ آخَر، على الأقل ميلدريد أو مونيك.

مُتعبًا، سَمَحَ لهما بأن تعانِقاه، الابنةُ أولاً، ثمَّ الحبيبة.

في كُلِّ مَرَّةٍ تسألانِه كيفَ حالُك، كان يجيبهما بأنَّه بخير، رغمَ أنَّ وجهَه أفشى التَّعَبَ الذي أرادَ أن يُخفِيَه.

– أتريدُ أن ترتاحَ يا إريك؟

– يَجدُرُ بي أن أفعل. تركتُ الفندقَ مُبكّرًا وأشعرُ بالرغبةِ في النَّوم.

– اخلدْ إلى النوم إذن.

– كيف التقيتِ ميلدريد؟

– سنتحدثُ غدًا. هل شعَرتِ بملَلٍ على الإطلاق؟

– لا، أبدًا، على النقيضِ تمامًا.

– هل استمتعتَ بوقتِك؟

– أين؟ في برلين؟

– نعم.

– لقد تَغَيَّرت كثيرًا. لم يَعُدْ الحائِطُ هناك.

– هل ذهبتَ لرؤية الحائِط؟

– عرفتُ أنَّه لم يَعُدْ هناك لكنني بطريقةٍ أو بأُخرى توقّعتُ رؤيتَه.

– وماذا أيضًا؟

في تلك اللحظةِ حَدَثَ انقطاعٌ للتيار الكهربائي.

– ها نحن ثانيةً.

– ماذا سنفعلُ الآن؟

– هل لديك شمعةٌ في أيِّ مكانٍ يا إريك؟

– لا أعرف.

– ومن المفترض أنّنا أصبحنا أوربيين. ليس بوسعي الانتظارَ كي أقلِبَ صفحةً جديدة.

– وماذا تعتقدين يَحدُثُ لو أننا قلبنا صفحةً جديدةً، يا مون؟

– لقد قلبناها،ألم نفعلْ؟

– إنني متعبٌ من رؤيةِ الصفحاتِ المقلوبة، وحينئذٍ... آه لا عليك.

– لا يوجَدُ أيَّ إمدادٍ مائيٍ أيضًا.

•

لا يشعرُ إريك برغبةٍ في الاستماع إلى النغمات القديمة، التي راحت تتردّد أكثر وأكثر مؤخّرًا. حسنًا، وهكذا منذ زمنٍ طويل، قُلِبَت صفحةٌ جديدةٌ وحان الوقتُ لنقلبَ صفحةً أُخرى من أجلِ المستقبل، كُلُّ الصفحاتِ ربَّما ستُقلَبُ وهذا الكتابُ سيصلُ نهايتَه. لكنَّ مونيك لديها وجهةُ نظر.

إنهم يُحدِّقون في الظُّلمةِ التي من حولِهم.

– كيف كانت برلين؟

– جميلة. جديدة، مفعمة بالحياة، مفعمة بالحياة في واقعِ الأمر.

– فقد أحببتَها إذن؟

– نعم.

– عظيم. والبقية؟

– ليست هناك بقية. أُردتُ الذهابَ إلى برلين. وذهبتُ إلى برلين. تأكَّدتُ أن الحائِطَ لم يَعُدْ هناك بِحقّ، إنَّ النَّاس قد تغيَّرت، وإنَّ الشَّوارع قد تغيَّرت أيضًا، حتى الطقسَ بدا أنَّه تغيَّر، إنني لا أعرف.

– لكنَّك قضيتَ وقتًا طيبًا، أليسَ كذلك؟

– للغاية.

– وكيف قضيتَ الأيَّام؟

– تناولتُ إفطاري، وذهبتُ للتمشية قليلاً، ثمَّ ذهبتُ لزيارة بعضَ المتاحِف، ثُمَّ ذهبتُ لمشاهدةِ فيلمٍ سينمائي، لم أذهب إلى المسرح، نِمتُ مُبكرًا في المساء، نِمتُ كثيرًا في الحقيقة.

– هذا جيدٌ يا إريك.

– وقد أحضرتُ لكِ شيئًا، أودُّ أن يُعجبَك، لكنني سأحلُدُ للنومِ الآن.

ثمَّ كانت هذه المكالمةُ التليفونيةُ من الصوتِ الذي أمامَه الآن يحتسي الكابتشينو بتركيزٍ كبيرٍ ويُنَقِّبُ في كُلِّ التفاصيلِ في كيف أنَّ الحَرَكَةَ المعتدلَةَ التقدميةَ تحتاجُ إلى إريك، إريك خاصةً، في هذه اللحظةِ الحَرِجَةِ من حياةِ الأُمة.

بينا هو يَستَمِعُ إلى التقريرِ الشفاهي، ينظر إريك عَبْرَ الزُّجاجِ الأمامي لواجهةِ المسرَحِ القومي ويُدركُ كم ذا مَرَّ طَويلٌ من الوقت مُذْ تَحَمَّمَ بالأضواءِ، في التصفيقِ الحماسي للناسِ هناك على المقاعِدِ والبالكون المحيطة.

قبل هذه المكالمةِ الهاتفية والاجتماعِ هذا المساء، راحَ يرتابُ في أنَّه قد نُسي.

سَهلٌ. النجاحُ كان سَهلاً، أن يُحزَمَ بعيدًا في زاويةٍ ما في صُندوقِ عرضٍ زجاجي، كان ذلك سَهلاً.

لكنَّهم أخبروه كم احتاجت الحَرَكَةُ إليه، كم احتاجته الأُمَّة، هذه الأُمَّةُ التي تحتاجُ أن تُصبحَ واحدة.

هنالك هذه الصورةُ الفوتوغرافية: إريك شيري يقفُ أمامَ المسرحِ القومي.

مُسنًّا بَعْضَ الشيء، لكنَّه ما يزالُ يبدو يانِعًا كعادتِه. هاتيك العيون كبيرةً وجميلةً ما تزالُ، رغمَ العُمرِ، سِترةٌ زرقاءُ داكنةٌ وقميصٌ أبيضُ ومنديلٌ صوفيٌّ خمريُ اللون حَوْلَ جِيدِه.

يده اليُمنى تُشيرُ إلى الجميعِ الذين يتطلّعون إلى طريقِه، ويخبرُهم بأن يقتربوا، أكثرَ من الحركة، ومن الأُمَّة التي تحتاجُ إلى إعادةِ بناء.

في واجهةِ المسرح القومي، كُتِبَ بحروفٍ كبيرةٍ، هل عقيدةُ إريك شيري الجديدة: كنْ النصير! وفي الأسفل: إريك شيري. إريك شيري، ممثل.

هذه الصورةُ للمَلك إريك عُرِضَت في كُلِّ أنحاءِ البلدة، بِحجمٍ كبيرٍ، تذكاري، إريك ينظرُ إليكَ وأنت تقودُ السَّيَّارة إلى العمل، وأنتَ تقودُ إلى البيت، في طريقِك لسماعِ الأوبرا في المسرح القومي.

بالكاد التقطت مونيك صورةً لصورةِ إريك حين مَرّوا بها عَبْرَ لوحاتِ الإعلاناتِ الكبيرةِ عَبْرَ أنحاءِ الجزيرة.

– أين هذه الصورة؟

– هذه بالقربِ من الجامعة. تُوحي بشيء، أليسَ كذلك، أن توضَعَ لوحةٌ إعلاناتٍ لك قُربَ الجامعة.

– قُربَ المستشفى، تقصد.

– قُرب.

– لقد ألصقوا وجهي بالقربِ من المكان الذي سأنتهي فيه قَريبًا.

– أعُدتَ إلى هذا الكلام يا إريك؟ كنتَ في برلين بمفردِك، تَذْكُر؟ دونَ أن يهتمَ بِكَ أحد، وعُدتَ، هكذا. أتعرفُ كم تبدو جيدًا؟ انظرْ، لقد وضَعوا هذه في مكان جيد، في فلوريانا فحسبْ، مثلما تَدخُلُ إلى فاليتتا.

– أعرفُ أين تكونُ فلوريانا.

– نعم، لكنّي أعني أنَّها البقعةُ الأهم، أليس كذلك؟ حتى الذين في طريقِهم إلى المسرحِ سوفَ يرونَها.

– وهل تعتقدين أنَّ الذين في طريقِهم إلى المسرحِ سيأتَمِون كثيرًا؟

– بالطبع، سيأتَمِون! ألا تعتقدُ بأنَّ الناسَ لا يزالونَ يتذكرونَك؟

– مونيك، أنت تتركين عواطفَك تمضي بعيدًا معك.

– إريك، هل تعي، أم لا، أنَّ هذه لحظة هامّة؟ بالمناسبة، أردتُ أن أسألَك، هل التقطتَ أيَّ صورٍ في برلين؟

لم يلتقطْ صورةً واحدةً في برلين. حدَّقَ في النَّاس، على سَبيلِ المِثالِ المرأة الغجرية التي كانت تَسرقُ أكياسَ السُّكَّرِ من فوقِ المناضِدِ في الحانةِ والمقهى لتطعمَ الأطفالَ الثلاثةَ الذين يتلكئون عند عقبيها.

وإلى كُلٍّ شقراء بدت قريبةً من عُمرِهِ والتي خرجت من المقهى أو محطةِ السِّكةِ الحديدية.

وإلى السيَّاح أسفلَ بوابَةِ براندبرج يُصغونَ بشغفٍ لقصَّةِ الحائِطِ الرّمادي الذي وَقَفَ ذاتَ مَرَّةٍ فيما وراءَها.

حَدَّقَ في ضُبَّاط البوليس الذين يتنزهونَ تَحْتَ أشجارِ الليمون، تَحَسُّبًا لما قد يَحدُثُ رغمَ أنَّه ما من شيء حَدَثَ مِن قبل هناك.

وَقَفَ عند أركانِ الشَّارِعِ وحَدَّقَ بنفادِ صَبرٍ في ساعتِه، مُنتظِرًا، مُنتَظِرًا.

وهكذا حان الوقتُ. جالسًا، يَنقُرُ بقدمِه اليُمنى: إلى جوارِه هذي المرأة الشقراء، تُقارِبُه في العمر، رائحتُها عطرة، لكنَّ الرَّائحةَ مُضحِرَةٌ إلى حدٍّ ما.

ما إن دخل حتى قَدَّمَت نفسَها إليه كأستاذةٍ في الجامعة، لكنَّ إريك الذي لم يُعرْها التفَاتًا بسبب عطرِها، نَسِيَ في أيّ شيءٍ كانت أستاذيتُها ونَسِيَ اسمَها سَريعًا.

الصوتُ الدَّمِثُ مُرتَدِيًا سِترةً زرقاءَ داكنةً، يَتَبَسِمُ ويُحيي الحضورَ والمشاهدين ويُرحبُ بهم إلى برنامجٍ آخَر في هذه السلسلة الديمقراطية المتلفَزة.

اليومَ نُرحِبُ، من بين ضيوفِنا البارزين،بإريك شيري.

وصَلنا إلى نقطةٍ حَرجةٍ في تاريخِنا. ولِدِقَّةِ هذا السَّبب فأنا هنا معكم اليوم، كُلُّكُم أيها الطيبون يا مَن مثلي تؤمنون أنَّ هذا البلدَ يَحتاجُ إلى تغييرٍ جوهري (تصفيق)، دربٌ جديد سيقودُنا نحو آفاقٍ جديدة. إنني ابن الطَّبَقةِ العاملة. مُنعَ والدي منذ سنين عدة، من معتقداتِه السياسية (تصفيق) ولسوءِ الحَظِّ ماتَ رَجُلاً خائِبَ الأمَل.

لكنني لم آتِ إلى هنا اليومَ لفتح جراحٍ قديمة.

على النقيضِ من ذلك، فالرسالةُ التي أتيتُ لأنقلَها هي أنَّ هذه البلدةَ تحتاجُ تَغييرًا جَوهَريًا، وأنَّ هذا التغيير يحتاجُ لأن يبدأ بنا، كُلُّ واحدٍ منّا نحن المحتشدين هنا مقتنعٌ كما نحن أن انقساماتِنا، واختلافاتِنا، دامت لسنين عديدة (تصفيق).

لذا أنا هنا معكم اليوم.

لستُ متورطًا في مِيولٍ سياسيةٍ ولم أكن. لكنّي شعرتُ يا أصدقائي، أنَّ عليَّ أن أُساهم، مهما كانت مساهمتي متواضعة.

نعم يا أصدقائي، لأجلِ خاطرِنا، وخواطرِ أطفالِنا، وبلدِنا، نَحتاجُ لأن نقولَ نَعَمْ لإمكانيةِ قيادةِ دربٍ جديد.

إن التناغمَ لابُدَّ أن يسودَ بلدَنا مَرَّةً أُخرى، التناغمُ ما بينَ مواطني هذهِ الأرضِ الجميلة.

وبينا أنا في موضوعِ أرضِنا الجميلة، يا أصدقائي، أيُّها المواطنون، لنُصَلِ، نعم نصلي لإلهنا ليمنحَ هؤلاءَ الذين يحكمونَها الحكمةَ، نَعَمْ، الحكمة، الحكمة لهؤلاء الذين يحكمون، الحكمة، الحكمة!

وأن يمنحَ ربُّنا الثباتَ الضروريَ للعامِل.

لأنَّ العامِلَ يتطلبُ الثباتَ ليؤدي عملَه ويَدعَمَ الدُّرَّةَ بلدَنا.

لذا، نَعَمْ، إنني أُصلي من أجلِ الثبات، الثبات للعامل.

ثمَّ، وعلى كُلٍّ، ليغرِسَ الرَّبُ الوحدةَ، يا أصدقائي، الوحدةَ بينَ شَعبِ مالطة.

بين شَعبِ مالطة أصحابِ الإرادة، بين شَعبِ مالطة بأكملِه، دون استثناءٍ، دون تمييزٍ، يا أصدقائي، اغرسْ الوحدةَ يا سيدي بين شَعبِ مالطة.

لأننا معًا بوسعِنا النَّجاحَ في تحقيقِ الوحدةِ وأن نَسلُكَ دَربًا جديدًا.

وأن يَحِلَّ السَّلامُ عليكم جميعًا، السَّلامُ، السَّلام!

غاصَت الكلماتُ القليلةُ الأخيرة، غاصت في تصفيقِ الحَشدِ الذي تجمَّعَ أمام إريك شيري، بالعاطفةِ التي جعلتهم جميعًا يقفون على أقدامِهم، يشعرونَ بفرحةٍ قُصوى كونَهم جزءًا من شيء مهمٍّ للغاية، هامٍّ للغاية بحيث ما من كلمةٍ تصفه.

هذه الأضواءُ، رائحةُ الماكياج، الذي يذوبُ إثرَ حرارةِ الجو، هذي، نهرٌ من العرق عبر جبينيه وأسفل وجنتيه إلى أسفل ذقنه، هكذا، كان ذلك مثلما كان

منذ سنين، حينَ أمسَكَ جُمجُمَةً بيدِه اليُمنى أو حين وَقَفَ في مُنتصَفِ المسرحِ وعيناه مغلقتان، قبل إسدالِ السِّتار فحسبْ:

شَعبٌ طيبة، مواطنيَ، انظروا إلى أوديب.

لقد حَلَّ اللُّغزَ الشَّهير بدهائِه، امتلكَ القُوى، وكان بوسعِه التَّغَلُّبَ على كُلِّ القوى.

من ذا بوسعِه أن يَمسِكَ دَهشَتَه دونما حَسَد؟

يا لِبحرِ الرُّعبِ الذي غَمَرَه الآن!

الآن ونحن ننظرُ إلى الوقتِ وننتظرُ اليومَ النهائي، نَحسَبُ أنَّهما من رَجلٍ سعيدٍ حتى يموت، حرًّا من الأَلَمِ في النِّهاية.

تصفيقٌ عالٍ يُصيبُ بالصَّمَمِ.

هناك، في منتصفِ المسرحِ الملكُ إريك واقفٌ وتحرَّكَ وفي نَفْسِ الوقتِ غيرُ متأكدٍ من حركتِه التالية.

شقيقتُه هناك تنظر إليه وتُصفِّق، يُضيءُ وجهُها لدى الاعتقادِ بأنَّه أخيرًا، أخيرًا، عادَ الكبشُ الأسودُ إلى القطيعِ، حيثُ دائِمًا مكانُه.

ومونيك إلى حوارِها واقفةً تُصَفِّقُ أيضًا وعلى وجهِها ابتسامَة.

يَجلِسُ الملِكُ إلى الوراءِ على عَرشِه مُحاطًا بالبقية.

حتى قائدُ الحزب، والحَرَكَةِ يَقِفُ لِيُصَفِّقَ، هو أيضًا يبدو أنَّه قد تأثَّرَ بالخطبة التي سوف تُسمَعُ مرارًا وتكرارًا في نَشرةِ الأخبار، في المذياعِ والتلفاز، في جميعِ الوسائِط.

ينظرُ إريك من حولِه في الوجوهِ التي تكادُ تَقولُ شَيئًا، لكنَّها لا تدري ما تقولُ: تَظَلُّ صامتةً بعد ما قالَه هو.

ثمَّ يدعوه مُقدِّمُ البرنامجِ لأن يَجلِسَ حيثُ إنَّهم يأتونَ ببرنامجِ المساءِ إلى نهايتِه.

وما إن يبدأ الشَّكلُ النهائي حتى يقتربَ القائِدُ من إريك ويَشكُرُه من أعماقِ قلبِه على هذه الخُطبَةِ المُثيرة.

والآن قد أظلمت. مصباحٌ أصفر شحيح. وصمت. ومن خِلالِ انعكاسِ الصُّورة في اللَّوحِ الزجاجي المقابِل، بوسعِه القول أن هناكَ شَاشةً فوقَ رأسِه والتي بَدَت كأمواجٍ تدورُ للأعلى وللأسفل، وضوءٌ أحمر يرفرفُ وأحيانًا يَتَغَيَّر.

يُمكنُه أن يَشعُرَ بشيء مصنوعٍ مِنَ البلاستيك يُغطّي أنفَه وفَمَه. قناعٌ. لابد أنَّه أكسجين. بوسعِه حتى سماع صفير الأكسجين قادمًا من الأسطوانَة.

على يسارِه، امرأةٌ في مَقعَدِ الفوتي، تبدو نائمةً.

مونيك أو ميلدريد. صَمتٌ. ثمَّ انقطعَ التصفيقُ فجأةً، يبدو أن المصابيحَ قد أُطفئت أيضًا.

يتمنى لو أنَّه يتحرَّكُ قليلاً.

– إريك.

تقفُ امرأةٌ إلى جوارِه، تَحجِبُ الضَّوءَ الأصفرَ المعتِم.

سمراء، امرأةٌ سمراء. أو بالأحرى شَكلُ المرأة يحجِبُ الضوء. ليس بوسعه رؤيةَ وجهِها، أو لونِ شَعرِها. لكنَّها امرأة.

– من أنتِ؟

– مونيك. كيف تشعر، يا قلبي؟

– أأنتِ ميلدرد؟

– ميلدريد بالخارج. هل أتصلُ بها؟

– أنتِ مونيك؟

– ألستَ تعرفني؟

– إنَّها مظلمة. أضيئي المصباح.

– لا يمكنني إضاءَة المِصباح. أتعرفُ أينَ نَحن؟

– مارزان؟

– إريك، أبوسعك أن تسمعني؟

– هل هذه مارزان؟

– لا. أحضرناك إلى المستشفى. لكنَّك بِخيرٍ الآن، أليسَ كذلك، يا قلبي، هه؟

– اعتقدتُ أنني في مكانٍ ما آخَر.

– سأُنادي المُمَرِّضةَ لتأتي وتُلقي نظرةً عليك، حسنًا؟ لا تتحرَّك،يا إريك.

صمتٌ، ثمَّ يُفرِملُ سائقُ التاكسي يتوقفُ ويندفعُ خارِجًا منه. تواصِلُ المرأةُ سيرَها في طريقِها دونَ أن تلحظَ الرَّجُلَ الراقدَ على الأرضَ على بُعدِ أربعِ خطواتٍ من خلفِها.

السائقُ يَتَفَحَّصُه ثمَّ يجلسُ القرفصاء.

يواصِلُ إريك إشارتَه إلى المرأةِ التي توارت الآن، اتجهت على الأغلبِ إلى ركنٍ ما، أو دخلت في مكانٍ ما.

– لا شيء. إنني بخير.

– سآخذك إلى عيادةٍ، إنه أفضل، لا؟ هل لديك تأمين؟

– لا، لا، لا أُمانعُ العيادة! لم يحدث شيء. انتهى الأمر.

– لكن يا سيدي هلّا أخبرتني ما الذي دهاك كي تَخرُجَ من السَّيَّارة هكذا؟ كان يُمكن أن أقتلك.

– تلك المرأةُ التي كانت تعبر من هنا...

– امرأة؟ أيُّ امرأة، يا سيدي؟ هناك أُناسٌ عديدون يسيرون. أليس من الأفضلِ أن آخذك إلى عيادة؟ أو ربما أُعيدك إلى الفندق؟

– ميدان ألكسندر.

– كما تشاء.

ثمَّ أضاءت الأضواءُ الحجرةَ ودخلت ممرضةٌ وبصحبتِها بروف سافونا. بروف سافونا ترتدي ملابِسَ باللون الأخضر. تقتربُ.

– سيد شيري. كيف تشعرُ؟

– أأنا في المستشفى؟

– نعم، أنت في المستشفى. أصابَتك إغماءةٌ وكان لابدَّ من وضعِك تحتَ الملاحظَة. لقد عانيتَ من أزمةٍ خفيفة.

– كانت لديَّ أزمة؟

تقتربُ بروف سافونا أكثر، تحاولُ سمَّاعتُها تَفَحُّصَ المشكلة.

يفوحُ إبطاها برائحةٍ مُنعشَةٍ لعطرٍ وصابون.

– ستضطرُ إلى أن تمكثَ هنا قليلاً. لقد وضعتَ نفسك تحت ضغطٍ، أليس كذلك؟

– أبدًا.

– سمعتُ أنَّك كنتَ في برلين. كيف قضيتَ وقتك في برلين؟

– شعرتُ بعدم الثقةِ قليلاً ما، في برلين أيضًا. بدا أن قلبي كان ينبضُ بسرعة للغاية.

– مع مَنْ ذهبت؟

– كنتُ مع...

– كنتَ بمفردِك، يا سيد شيري. يبدو أن لا تَستَمِع. وإلى أينَ ذهبتَ وأنتَ هناك؟ هل مَشيتَ كثيرًا؟

– قليلاً. ذهبتُ للبحث عن جوته.

– جوته؟

– جوته هايم.

ارتخ قليلاً.

– لكنني في مستشفى، أليس كذلك؟

– نعم، كنتُ في التليفزيون وكانَ عليهم أن يُحضروك إلى هنا على وَجهِ السُّرعة.

لقد ضايقتَ نفسَك كثيرًا. علينا الآن أن نلاحِظَك جيدًا.

– إذن متى أعودُ إلى البيت؟

– سنرى. ارتخ قليلاً. أطفالُك بالخارج. إنَّهم أطفالُك، أليسَ كذلك؟

– إحداهن.

– عليكَ أن تنامَ قليلاً الآن. لقد تَحسَّنَت حالتُك بالفِعل. لكنْ عليك أن تَمكُثَ هنا حتى نُخبرَك. سأُخبِرُ أطفالَك أن يذهبوا للبيتِ ويرتاحوا قليلاً أيضًا وسيعودون غدًا لرؤيتِك. أهذا جيد يا سيد شيري؟

يُدرِكُ الآن أنّه مُحاطٌ بالآلاتِ التي تُومِضُ بالأرقامِ الغريبةِ بألوانٍ مُختلفة: الأخضرُ السَّاطع، الأصفرُ السَّاطِع، البرتقاليُ والأبيض.

تومِضُ، أصواتٌ إليكترونية حادّة.

مِثلُ الأضواءِ في ميدان ألكسندر بَعْدَ الظلام. النَّاسُ بانتظارِ التِرام. تَحَمَّمَ البُرجُ الشَّاهِقُ بالضَّوءِ الأبيض.

الساعةُ العالمية. كافو يبدو كبنايةٍ ذهبية. ربَّما كانت هي، على كُلٍّ، على مسافةِ عشرين مترًا، تَمشي بذلك الأُسلوبِ الأنيقِ الذي كانت عليه، تؤرجِحُ حقيبتَها بلطف.

ربَّما كانت في طريقِها إلى عملِها. أو ربَّما تقاعَدَت وتَستَمتِعُ بحياتِها في ألمانيا الجديدة، في برلين دونما حائِط، دونما رجال في بزَّاتٍ رُمادية.

تغادِرُ بروف سافونا الحجرةَ وتفحَصُ المَمَرِّضَةُ الأنابيبَ، يأخذُ الوريدُ شَكلاً آخَرَ في الشَّاشَةِ الكبيرة. ثمَّ تنظرُ إليه وهو يرمُقُها ويَمنحُها ابتسامةً صغيرة.

– أعتقدُ بأنني عطشان.

تَمُدُّ الممرضةُ ذراعاها صوبَ الزُّجاجةِ البلاستيكية التي على الخزانةِ التي إلى جوارِ الفِراش تَضَعُ الماصّة الورديةَ فيها، تزيلُ القناعَ وتَضَعُ الماصّة ما بينَ شفتين لا لونَ لهما.

– إنني أُمسِكُ برأسِك، لا تَقْلَقْ. اسحبْها ببطء.

تدفَّقَ نصفُ الماءِ على الوسادة.

– هل تريدُ المزيد؟

– أتعتقدين أنَّها كانت هي، على الرصيف؟ اعتقدتُ أنَّها تُشبِهها، من الخَلف. لم أرَ وجهَها على نَحوٍ ملائِم. في الصَّباح ذهبتُ إلى شارِعِها. لقد تغيَّرَ بعضَ الشيء وقد تُهتُ تقريبًا واعتقدتُ أنني لن أجدَ بنايَتَها. مشيتُ ومشيتُ ولم أستطعْ أن أجدَها ثُمَّ وجدتُها.

– إذن فقد وجدتَها، هذا جيد، أليسَ كذلك؟ لِمَ لا تحاول أن تنامَ قليلاً، هه؟ ثمّ الآن وأطفالُك سيكونون هنا غدًا وستشعرُ بتحسنٍ، أليس كذلك حبي؟

– لكنِّي لم أجدها. كان لها اسمٌ آخر في الرقم الذي تسكنُ فيه.

لقد كان اسمها أنكي روث.

– إذن هل وجدتَها؟

– لا، لم تكن أنك روث التي أبحثُ عنها.

– ألم تكُ هي؟

– لا. كانت جوته هايم.

– سنجدُها أيضًا. ثمَّ قليلاً الآن، حبيبي. أواثقٌ أنَّكَ لا تريدُ مَزيدًا من الماء؟

– متى؟

تنظرُ المُمَرِّضَةُ مَرَّةً أُخرى إلى الشَّاشة وتغادر.

كان يومًا مُشمِسًا. كانت الشَّمسُ حارقةً تقريبًا.

تاكسي إلى شارع كوزموناوتن.

الشَّارعُ الذي يبدو أنه يسيرُ إلى الأبد. بناياتٌ كُبرى لم تَعُدْ رُماديَّةً، لقد طُليت بلونٍ كريمي خَفيف، وليسَ الأبيضَ الساطع.

مشى ومشى تحت الشمس.

إنَّه على وَشَكِ أن يستدير. على وَشَكِ أن ييأس.

يبدو أن قلبَه سيقفزُ من صَدرِه وهناك ضَغطُ الخيبة.

ولكن حينئذٍ، هناك، يبصِرُ البنايةَ التي بها الشَّقَة. هناك يرى البنايةَ ويَتَطَلَّعُ نحو الطابقِ الثامن.

كان ذلك من هناك، من تلك النافذةِ، حين نَظَرَ مِنْ هذه الشَّقةِ الصَّغيرة، ذاتَ ليلة.

لم يكُن ثَمَّةَ ألمٌ في قلبِه تلكَ الليلة.

اقتَرَبَ من صندوقِ البريدِ الملصَق عليه أسماءٌ وأرقام: باول بومان، كارولين& جيرد لويز، ريتا كول، هورست فينكل، هورست& ماريّا بوير، فرانز برون، جوستاف& مارتينا أدلير، نينا شولتز، ألبرت & جيسا مور، ماريّا& أرن جوتليب، بريجيت& مارتين كوتش، هيلما تروجوت.

مَسَحَت عيناه الأرقامَ مَرَّةً أُخرى، ومرَّت على الأسماءِ إلى جوارِ الأرقام.

ربما أحدُهم يتذكرُها. ربَّما أمكَنَه ضغط الزِّر الأوَّل ويَسألُ عنها، ربَّما يعرفون مَنْ هي، ربَّما سيتذكرونها، ربَّما سيعرفون أين هي، أين ذهبت، أين تعيش، ما الذي حدث لها.

نظر إلى الأرقامِ نفسِها التي اعتادَ أن يكتبَها على المظاريفِ ورأى اسمَ المرأة: أنك روث. لا جوته هايم، أنك روث.

يضغطُ زِرًّا. صَمْتٌ. يَضغَطُ الزِّرَّ أكثرَ. ثمَّ تتحدّثُ امرأةٌ إليه. بالأحرى صوتٌ حلقي لامرأة.

– جوته؟

صمت.

– جوته هايم؟

صمت. ضغطة. صمت. يضغطُ الزِّرَّ. صمت. يضغطُ الزِّرَّ ثانيةً.

وتتحدَّثُ المرأةِ نفسُها ثانيةً، الصوت الحَلقي نفسُه.

– جوته هايم؟

بعد فترةِ توقّفٍ قليلةٍ تقولُ المرأةُ بأنَّها ليست جوته هايم لكن أنك روث.

وتقولُ بأنَّها لا تعرفُ جوته هايم ولم تسمع قطّ بجوته هايم وليس هناك جوته هايم في هذه البناية.

ليس هناك جوته هايم.

يقولُ إريك بأنَّه يبحثُ عن جوته هايم أكيدةٍ اعتادت العيشَ في تلك الشَّقَّة بالذات.

يودُّ لو تحدَّثَ إليها.

وقفةٌ قصيرة ثمَّ يأتي صوتُ أنك روث، يبدو صوتًا حَلقيًا أكثرَ قليلاً، ويدعوه إلى الطابقِ الأعلى، قلبُه الآن يخفقُ وتبدو شفتاه مرتعدتين أيضًا. المصعدُ في الجهة المقابلة. يتذكَّرُ المصعد. يتذكَّرُ نفسَه داخلاً إلى المصعَدِ مع هذه الشَّابَّة الشَّقراء التي التقاها في الصباح.

يَضغَطُ الزِّرَّ رقم ثمانية. يصعدُ المِصعَدَ ويتغيَّرُ الرَّقمُ الأحمر يزدادُ رَقمًا رَقمًا. إلى أن يَرتَعِدَ فجأةً ليتعثَّرَ في رقم ثمانية.

يُفتحُ بابُ المصعد وتنتقلُ عينُ إريك إلى حيث تقفُ امرأةٌ، أصغر قليلاً منه سنًّا، ذاتُ شعرٍ أبيض قصيرٍ مقصوص ونظارتين داكنتين غامضتين، وبين أصابِعِها سيجارةٌ، منتظرةٌ في المدخل.

– هاللو إنك روث.

– اسمي إريك شيري، جئتُ من مكان ناءٍ. كنتُ في هذه الشَّقة منذ سنين عديدة.

تتفحصُه المرأةُ دون أن تتحرَّك.

– أفي شقَّتي تعني؟

– نعم هذه. أعتقد.

دون أن يقصد، يميلُ إريك شيري برأسِه ليتفحَّصَ مَدخَلَ الصَّالة.

– أُدخل، أُدخل. إنَّها ليست كبيرة.

– أعرفُ، أتذكَّرُ أنَّها لم تكُن شقَّةً كبيرة.

– أُدخل.

هنا، نعم هنا، قضى ليلةً. ليلةً واحدةً على أريكةٍ فراش. اعتادَ المطبَخُ أن يكون ألومونيوم برتقالي اللون، لكنَّه مصنوعٌ من الخَشَبِ الآن.

ثَمَّةَ شاشةٌ تليفزيونية، في حُجرةٍ معيشةٍ صغيرة، مُعلَّقةٌ تُذيعُ معلوماتٍ عن مشترياتٍ رخيصة.

– إذن فقد كنتَ هنا، أليس كذلك؟

– نعم، هذه هي الشَّقة، هذه هي. نعم، كنتُ ها هنا.

– لابُدَّ أن ذلك كان منذ وقتٍ طويلٍ مضى.

– عفوًا؟

– منذ وقتٍ طويلٍ مضى.

– قبل أن يَسقطَ الحائِط.

– بالطبع. يا مسز روث، إن لم تُمانعي أن أسألَك، هل استلمتِ أيَّةَ خطاباتٍ هنا، وُجِّهت إلى جوته هايم؟

تبحثُ أنك روث عن مكانٍ تُطفئ فيه سيجارتَها، تذهبُ إلى المطبَخِ وتَجِدُ مِنفَضَةَ سجائِرِها.

– أعثُرُ على بريدٍ لا قيمةَ له كُلَّ يومٍ هنا. أنت تَعرِفُ، الإعلانات، الإشعارات، هذا النوع من النفايات.

– نعم، لكن ماذا عن خطابات، خطاباتٍ في مظروف؟

– ومن أين أتت هذه الخطابات؟

– من مالطة.

– مالطة؟

– نعم، مالطة. مالطة ..

– أعرفُ، كنتُ هناك في أجازةٍ منذ سنوات. ابنتي وحفيدتي وأنا. اجلس، قهوة؟

–لا، أشكرك.

– لا أعرفُ أيَّ أحدٍ من مالطة. لا أعرفُ لِمَ سيرسلُ إليَّ شخصٌ من مالطة خطابات.

– لا، لا، الخطاباتُ التي أتحدَّثُ عنها لم تكُن مُرسَلةً إليكِ لكن إلى جوته هايم، التي اعتادت العيشَ هنا.

– اجلس. إذن. قلتَ جوته هايم؟

– نعم، جوته هايم. كان لها شَعرٌ أشقرُ طويل. في مثل عمري أو ربما أصغرَ قليلاً.

– عشتُ ها هنا فترةً طويلةً لكني لا أعرفُ عن جوته هايم. هل عرفتَها جيدًا؟

– عرفتُها.

– جيدًا؟

– عرفتُها.

– حسنًا. عرفتَها لكن لم تعرفْ أنَّها لم تَعُدْ تعيش هنا.

– إذن لم تلتقِ جوته هايم قط.

تُشعل أنك روث سيجارةً أُخرى.

– لا، آسفة. ربما لم تكُن هذه الشقَّة هي التي زُرتَها.

– لا، لا، أنا متأكِّدٌ أنَّها هذه.

ينظرُ إريك للشَّقة بكامِلِها ثانيةً. هذا دون شكٍ هو المكان.

– أنا واثقٌ أنني كنتُ هنا. بوسعي أن أصِفَ تصميمَ الحُجراتِ لكِ.

– سيدي جميع هذه الوحدات السكنية بُنيت بنفسِ الأسلوب. ليسَ ثمَةَ اختلافٌ كبير بين واحدةٍ وأُخرى. الأثاثُ سيكون مُختلفًا، لكنَّ البقية، التصميم هو نفسه في كُلٍّ واحدة. كُلُّ شيء تمَّ بالأسلوبِ نفسه في تلك الأيَّام: الجميعُ متساوون والجميعُ واحد.

– حسنٌ، لكن ماذا عن الخطابات، أعني الخطاباتِ المختومةَ في مظروف، من مالطة، هل تسلّمتِ أيَّ خطاب؟ ربما تتذكَّرين؟

– لا، لا، لم أتسلَّم أيَّ خطابات. ليس لديَّ من أحد، يا سيدي، وما من أحدٍ سيكتبُ إليّ. إنني أتسلَّمُ إعلاناتٍ وفواتير. لا شيء آخر.

– أحقًّا لم تتسلمي أيَّةَ خطاب؟

– إنَّ لديَّ ابنة لكنَّها تهاتفني مرتين في الأسبوع، لا حاجةَ للكتابة. ليس لي من أحدٍ آخَر. مثلما قلتُ، كُلُّ ما حصلتُ عليه في البريدِ نفايات.

– لا شيء آخر؟

– حسنًا، هذه جوته هايم التي ذكرتَ، لو أنَّها اعتادت أن تعيشَ هنا! فأنا أتصور أنَّ خطاباتِها أُرسِلَت إلى عنوانِها الجديد. بوسعي أن أؤكِّدَ لك أنَّه ما من خطاباتٍ لم تكن لي وصلت إلى هنا. ومثلما قلتُ، ما من أحدٍ يكتبُ إليَّ خطاباتٍ أبدًا. أحظى فحسب بإعلاناتٍ وفواتير. أواثقٌ أنت أنَّها كانت هذه الشقَّة؟

– نعم، أنا متأكِّد. انظري، اعتاد المِطبَخُ أن يكون هناك، حيثُ هو الآن، لكنَّه مصنوعٌ من الألمونيوم البرتقالي.

– برتقالي.

– نعم، برتقالي.

– في زمنٍ ما كان البرتقالي هو الشائع.

وهنا بالتحديد، حيث أجلسُ، ثَمَّةَ أريكةٌ كانت تتحول إلى فِراش.

– منذ كم من الوقتِ كنتَ هنا؟

– 1980.

مائلةً قُبالةَ كاونتر المطبَخ، تُمدُّ أنك روث ذراعَها وتنفضُ الرمادَ عن سيجارتِها. تنظرُ إلى إريك، تُسعلُ مرتين، تستنشقُ الدُّخانَ ثم تَزفُرُه.

– سيدي، أتدري كم تغيَّرت الأشياءُ منذ عام 1980؟ لن أُدهشَ لو أنَّ هذه السَّيدة غادرت، كان ذلك منذ وقتٍ طويل.

– إذن فلم تسمعي قَطُّ بجوته هايم مذ انتقلتِ، صحيح؟

– تغيَّرت ألمانيا كثيرًا منذ 1980. على أيَّةِ حال نحن أيضًا تغيَّرنا ليس بوسعي إخبارَك. الكثيرُ من الناس انتقلوا. بَعضُهم خدموا أنفسَهم جَيدًا، بَعضُهم الآخَرُ تُرِكوا.

كبار السِّن المتقاعدون مثلنا، جميعنا لم نؤدِّ على نحوٍ جيد. خذني أنا كمثال. لم أحصلْ على وظيفةٍ جيدة، اعتدتُ العملَ في ..

– اغفري لي أن أسألَك ثانيةً، لكنْ بشأنِ هذه الخطابات...

– ما من خطاباتٍ وَصَلَت إلى هنا من الخارج.

– الأسبوعُ الماضي أو الأسبوعُ الذي قَبلَه أرسلتُ خِطابًا آخَرَ إلى عنوانِك، يا مدام.

– حقًّا؟ ربما وصلَ إلى جوته هايم. لم أتسلمْه قَطّ.

– لكن جوته هايم اعتادَت العَيشَ هنا.

– لكنني أنا الذي أعيشُ هنا، كما ترى. الشَّخصُ الوحيد الذي عاشَ معي هنا هي ابنتي. وابنتي لم تَعِشْ هنا طيلةَ الخَمس عشرة سنةً الماضية، وليس اسمُها جوته هايم أيضًا. كيف عرفتَ جوته هايم؟

– التقيتُها في ميدان ألكسندر. اعتادت أن تَعمَل نادلةً .

– وكانت جميلةً. ذاتَ شَعرٍ أشقرَ طويل.

– بالضبط! أتعتقدين أنَّك تتذكرينَها؟

– لا. كان هناك كثيرٌ من النساء ذواتِ شَعرٍ أشقرَ طَويلٍ في تلك الأيَّام.

– هذا حقّ.

– ثمَّ جاءت بِكَ إلى هنا بعد العَمَل.

– نعم، جئنا إلى هنا وكان من المفترَضِ أن نلتقي في اليوم التالي لكن...

– لكنَّكما لم تفعلا. إنني أتساءَلُ لماذا؟ وهكذا كتبَ إليها لكنَّها لم تَرُدّ.

– هذا صحيح.

– وجئتَ للبحثِ عنها.

– صحيح.

– لقد تركتَ قدرًا كبيرًا من الزمن يَمُر، أليس كذلك؟

– في الواقع قد وعدتُّها أن أعودَ لكن... لكنني لم أعُدْ قَطّ.

– يا له من شيء يدعو للرثاءِ. ربَّما أمكنَك العثورَ عليها، أمتأكِّدٌ أنَّك لا تريدُ قهوة؟

السماءُ زرقاءُ للغاية، ما مِنْ سَحابةٍ والجو حارٌّ تقريبًا.لكن إريك يمشي مُنكَّسَ الرأس، في ثباتٍ يُحدِّقُ في الرصيفِ الطويلِ الذي يقودُه إلى ممراتٍ عديدة، ممَرٍ إثرَ ممَر.

ثمَّ يَستَقِلُّ الباص ويبدو له أنَّه يمشي في هذا الشَّارعِ للمرَّةِ الأخيرة.

ربَّما كانت مُحقَّةً ميلدريد. من يدري سواءً يوجدُ شابٌّ، في مكانٍ ما هناك، في العالمِ الوسيع، يَحمِلُ سَمتَه، أو امرأةٌ شقراء شابَّة؟ ربَّما لهذا السَّبَبِ مَضَت خطاباتُه دونما رد.

واصلت أنك روث قولَها أنَّ ما من خطاباتٍ وَصَلَت من مالطة.

قالت بأنَّها تَوَدُّ لو أنَّها ذهبت مُجدَّدًا إلى مالطة بعضَ الوقتِ في أجازةٍ لأنَّها استمتعت بالطَّقسِ هناك.

وكرَّرت قولها أنَّها لم تعرفْ مَنْ كانت جوته هايم.

مثل ألكساندرا فَحَسبْ. في اليوم الذي ماتَ فيه والدُها قالت بأنَّها أرادت الذهابَ إلى مالطة لأجلِ الشَّمسِ والبَحر.

وقال فالنتينا أنَّها تَوَدُّ لو عادت في وقتٍ ما. ونيللا أيضًا.

وقد انتظر أن تأتي إحداهُن.

لكنَّه وحيدًا تُرِك.

ليس وحيدًا تمامًا، حيث كان هناك هؤلاء الذين لم يتزحزحوا من جوارِه. ميلدريد،على سبيلِ المثال،وشقيقته، والآن مونيك.

مضى زمنٌ طويل مذ استقلَّ الباص بمفردِه. زمنٌ طويلٌ للغاية. الآن نيللا أيضًا. لقد كتبت عِدَّةَ مَرَّاتٍ بعد أن أذاعت الأنباءَ ودائِمًا ما انتهت خطاباتُها بعبارةٍ إلى أن أراكَ ثانيةً.

عند هذه النقطة نسيَ من منهن توقَّفت عن الكتابة أولاً.

لقد نسيَ حتى العنوانَ ومن المحتمل أنَّه نسيَ وجهَها أيضًا.

أبقى عينيه مغمضتين في الباص.

أحيانًا ما فَتَحَهما قليلاً ليعرِفَ أين هو.

ميدان ألكسندر، مُزدحِمًا بالناس الذين يلتقطون الصور إلى جوار الساعة العالمية، كان ميدان ألكسندر.

في حُجرَتِه، في فندق بارك إن، ينظرُ خارجَ النَّافِذَةِ بينا قلبُه يعزفُ الإيقاعَ الغريبَ الذي اتَّخَذَه كي يخفقَ مُؤخَّرًا.

يضعُ حبَّةً بيضاءَ صغيرةً تحتَ لسانِه ويَجلِسُ في مَقعدٍ فوقِ مُواجِهًا الخارجَ بعينين مُغلقتين، مُنتظرًا صباحَ الغَدِ إلى الفَجر، مُنتظرًا الموعدَ الغريبَ الذي أفلحَ في ترتيبِه قَبْلَ أن يلحق برحلة عودتِه.

على الأغلبِ أنَّ الفجرَ يُشرِقُ. بوسعِه الآن رؤيةُ نافذةٍ تَرشَحُ من خلالِها الأضواءُ البنفسجيةُ الباهتة.

صمتٌ، ازدادَ الضَّغطُ في صَدرِه. لقد شَعَرَ بالشُّعور ذاته الذي اعتادَ أن يَحُسَّ به وهو يتَّجِذُ خطواتٍ قليلةً من خَلفِ السِّتارِ إلى منطقةِ ما وراء الكواليس ثُمَّ إلى حُجرةِ الملابس، حين أمكنَه أخيرًا أن يخلعَ ملابِسَه المسرحية ويَمسَحَ مكياجَه.

خطواتٌ قليلة خارجَ البَابِ. يبدو كما لو أنَّ مجموعةً كبيرةً من النَّاسِ تمشي.

يغمِضُ عينيه ويستريح.

يصيرُ الضوءُ الآنَ أجملَ وأنقى.

يستشعرُ أنَّ شخصًا ما قادم، يقتربُ منه. يديرُ رأسَه ويرى مُمَرِّضًا شابًّا.

– صباح الخير سيدي. أأنتَ بخير؟ كيف تشعرُ؟

– أفضل.

– اتصلت ابنتُك لتسألَ عنك. إنَّها منتظرةٌ على الخط. أتريدُ شيئًا من البيت؟

– متى أُغادِرُ هذا المكان.

– إنَّها البروف من يُقرِّرُ ذلك. كيف تشعر؟

– أفضل.

– ممتاز. أهناك شيءٌ تحتاجُه من البيت؟

– لا، لكنْ هل ستأتي هي إلى هنا؟

– سيُلقي الطبيبُ الكشفَ عليكَ مِنْ بعد ساعةٍ من الآن، حَسَنًا؟

– لا، إنني أقصد ابنتي. هل ابنتي ستأتي؟

– بالطبعِ ستأتي. لكنّا لا نسمحُ لأيّ شخصٍ بالدُّخول في هذا الوقت.

– لأنني أُريدُ التحدُّثَ إليها.

– ستأتي مؤخَّرًا، يزورُ الناسُ حول وقتِ الظهيرة، ستكون هنا حينئذٍ.

– إذن كم الساعة الآن؟

– السابعة والنصف.

إنَّه يومٌ جميل. على الأقل يبدو كذلك، طبقًا للضوءِ الذي ينسابُ من النَّافِذة.

يرتدي ثيابَه في عَجَلَةٍ ويَهبِطُ لتناولِ الإفطار. يَشعُرُ أنَّه أفضلُ اليومَ أكثرَ من البارحة.

يتناولُ قطعتين من الخبزِ المحمَّصِ مع زبدٍ قليلِ الدُّهن، بعضَ الذُّرة، كوبَ شاي، وعصيرَ برتقال.

ينظرُ إلى خريطةِ برلين وأماكنَ قام بتحديدِها.

ثمةَ علامةٌ حمراءُ حدَّدَها منذ ليلتين.

إنَّه يحملُ كرَّاسةً صغيرةً صفحاتُها فارغةٌ وقلم رصاص في جيبِ سِترتِه.

بعد ما يَقْرُبُ من ساعةٍ، لَفَظَه التاكسي أمامَ مبنى كبير.

يسألُ سائِقَ التاكسي أن يلتقطَه، من نفس البقعةِ خلال ساعتين، قبيل أن يَتَرَجَّل.

ساعتان لابد كافيتان. ما إن يدخلُ إلى هناك حتى يسألَه ضابطٌ عن بِطاقةِ الهوية.

يُخرِجُ إريك شيري جوازَ سَفَرِه الأحمرِ الداكنِ ويدونون تفاصيلَه.

يُوَقِّعُ على المستندات ويَتِمُّ إرشادُه إلى المكان.

حجرةٌ ضخمة، ذاتُ نوافذَ وسيعةٍ ومصباحٍ أبيض كجناحِ المستشفى حيثُ عليه أن ينتظرَ حوالي الساعة والنِّصفِ إلى أن يتمكنَ من رؤيةِ البروف سافونا.

يكادُ البياضُ يُغشي بَصَرَه. صَمتٌ مُطبِق. يَمشي مُباشرةً نحو مَكتبٍ حيث تَجلِسُ امرأةٌ تقولُ صباحَ الخير.

يمنحُها اسمَه وخطابًا لم يُرِه لأحدٍ آخَر.

تكتبُ اسمَه على الكمبيوتر أمامَها.

– آسفةٌ أن أُخبِرُك أننا ليس بوسعِنا مساعدتَك. أعني أنّنا بحثنَا عن اسمِك لكن لم يظهرْ في أي مكان.

– أمتأكِّدةٌ أنتِ؟

– اسمُك ليس في أيٍّ من الملفات التي فَهرَسناها. نُحاولُ أن نَجِدَ أسماءً تُشبِه اسمَك، أيضًا، لقد اعتقدنا حتى إننا أخطأنا تهجئتَه حيث إنَّك لستَ من هنا لكنَّه لم يظهرْ بعد.

– ماذا يعني هذا؟

– أمِنَ المحتَمَلِ أن يكون فُقِدَ؟

– كُلُّ شيء ممكن. لكنْ في الوقتِ الذي أوضحتَ فيه أنَّك كنتَ في برلين كانت التسجيلاتُ تَتِمُّ بمنتهى الدِّقَة.

ليس هناك حالاتٌ عديدة من الملفات المفقودة. بوسعي أن أُخبِرَك بثقةٍ تامّة أن ستاسي[1] ليس لديها ملفٌ عنك.

– ماذا عن جوته هايم؟ هل تَتَبَّعتُم هذا الاسم؟

– هنالك مشكلةٌ أُخرى، يا سيدي. أنظمةُ الأرشيفَ لا تسمحُ لنا بإفشاءِ أيَّة معلوماتٍ عن طَرَفٍ ثالثٍ إن لم يكن لورثِه في حالةِ الموت. هل تَمُتُّ بصلةٍ لهذه الشخصية؟

---

1 جهاز أمن الدولة النازي (المترجم).

– انظري، يا مدام، قابلتُ جوته هايم في برلين الشرقية 1980. مارس1980. لم أسمع عنها شيئًا منذ ذلك الحين.

– العَديدُ من النَّاسِ فَشَلوا في الاتِّصالِ بمن يقابلونَهم.

– مُحقَّةٌ أنتِ. أنا الآن أكتبُ إلى جوته هايم هذه منذ سنين عديدة ولم أتسلمْ رَدًّا منها.

– وهناك العديدُ من النَّاسِ أيضًا لا يردّون على الخطاباتِ التي تَصِلُهم.

– مُحقَّةٌ أنتِ ثانيةً.لكنَّ خطاباتي لم تَرجِعْ أيضًا. بالأمسِ ذهبتُ شَخصيًّا إلى العنوانِ الذي اعتادت جوته هايم العيشَ فيه واكتشفتُ أنَّ شَخصًا آخَرَ يعيشُ هناك.

– سيدي، إننا نتحدَّثُ عن قُرابَة خَمسةٍ وثلاثين عامًا. يُغيِّرُ النَّاسُ أماكنَ إقامتِهم.

– حقًّا. لكنْ لم يَرُدْ الشَّخصُ الذي يعيشُ بَدلاً منها هناك، رسائِلي إليّ؟

– لابدّ أنهم مزّقوها.

– أو ربَّما حُجزت من قِبَلِ الستاسي.

– لقد بحثنا أيضًا في قائِمةِ الخطاباتِ غيرِ المتسلَّمَة.

– و؟

– واسمك لم يظهر هنا في أيّ مكان. ولا يبدو حتى أنَّهم يحتفظون بأيِّ خطاباتٍ أُرسِلَت إلى برلين من مالطة. ممّا يعني أنَّ الخطاباتِ التي أرسلتَها لابد وأنَّها قد وصلت إلى الشَّخصِ الذي أرسلتَها إليه.

– لكنني أرسلتُ خطابًا إلى العنوان نفسه منذ أسابيع قليلة ولا يبدو أيضًا أنَّه وَصَلَ، أو أنَّ السيدة التي تَقطُنُ هناك الآن ... وقد تحدثتُ إلى هذا الشخص بالأمس.. كانت ستخبرني، أليس كذلك؟

– سيدي من الممكن أن الشخصيةَ التي كنتَ تكتبُ إليها قامت ببعض الترتيباتِ مع مكتب البريد لإرسال خطاباتِها إليها على عنوانها الجديد.

في هذه الحالة ليس بإمكانِنا مساعدتَك. أخشى أنَّه حتى مكتب البريد لا يُمكِنُه مساعدتَك بسبب قواعدِ الخصوصية.

– لكن ألا تستطيعُ على الأقلِّ أن تُخبرني إذا ما كان اسمُ جوته هايم يظهر حتى في أيِّ مكانٍ في أرشيفِك؟ أرجوكِ حاولي أن تتفهّمي موقفي، إنني مريضٌ وقريبًا سأموتُ وأوَدُّ أن أجِدَ هذه المرأةَ قبل أن أُغادر إلى الأبد. لقد جئتُ من بلدةٍ أُخرى خصِّيصًا لأجدَها وأنا مقتنعٌ بأنَّه في مكانٍ ما يَجِبُ أن تكونَ هناك مستنداتٌ عنها وعني.

– لكن يا سيدي، سامحني على سؤالي، ما الذي يَجعَلُك تُصَدِّقُ بأنَّ هناك مَلفًّا عنك؟

حين أتيتَ إلى برلين عام 1980، أكنتَ هنا في عملٍ أمْ مَهَمَّةٍ دبلوماسية؟

–لا.

– ماذا كان الغرضُ من زيارتِك إذن؟

– كنتُ في أجازة.

– ومس هايم، كيف تَظهرُ في قصَّتِك؟ أعني هل عرفتَها قبل أن تأتي؟

– لا،لا، قابلتُها حين كنتُ هنا.

– حسنًا، إن هذا يَعتَمِدُ على المدَّةِ التي كنتما فيها على عِلاقَة. كم من الوقتِ عَرَفَ كُلٌّ منكما الآخر؟

لقد كانت ليلةً وحيدةً في برلين انقسمت إلى اثنتين. كان مارس. كان جالسًا في مَقهىً ورأى هذه المرأةَ التي شَعَرَ بالانجذابِ إليها بَعْدَ دقائق.

رآها تَرمُقُ طريقَه مرتين وهكذا انتظر، احتسى فنجانين متعاقبين مِنَ القَهوة. كان مارس، وكان ميدان ألكسندر باردًا ورماديًا وحزينًا.

ثمَّ انتزعَ بعضًا من شجاعةٍ وسألَها عن اسمِها.

وهكذا بدأت الرحلةُ إلى مرزان، إلى شقَّةٍ في الطابقِ الثامن، إلى الأريكةِ الفِراش، إلى امرأةٍ قد يراها لآخرِ مَرَّةٍ وهو يُهرَعُ عَبْرَ ميدانِ ألكسندر لتقومَ بالرحلةِ نفسها التي قامت بها الليلةَ الفائتة، هذه المرَّةَ فحسب، كانت تَقومُ بها بمفردها، دونه.

– سيدي، إنني أعي رغبتَك لكنْ ليس هناك مَلَفٌ عنك هنا. رغم أن الستاسي كانت فعَّالةً على نحوٍ مدهش، من الصَّعبِ التصديقَ أنَّ لديهم ملفاتٍ عن كل سائحٍ زارَ البلد. وإذا ما كنتُ أعي على وجهٍ صحيح أيضًا، فإنَّك رأيتَ هذه الشخصيةَ مَرَّةً واحدة.

– نعم، لكن بعد ذلك واصلنا الكتابة.. أعني واصلتُ الكتابة. ولا أدري أين ذهبت رسائلي.

– من المؤكَّد أنَّهم ليسوا في أرشيفك. لم تحصل الستاسي على خطاباتِك، إنَّهم لم يدونوا عنوانَك قَطّ.

– مما يعني أنَّهم لم يرتابوا في أنَّ شَخصًا من بلدٍ غيرِ شيوعي قد يَكتُبُ بانتظامٍ لشخصٍ في برلين؟

– من الواضحِ لا.

– لكن قد يكون هناك مَلَفٌ باسمِ جوته هاتم وقد تكونُ رسائلي هناك بَدَلاً من اسمي.

– جوته هاتم لا تَمُتُّ لك بصلة، لا يُمكننا أن نَهَبَك معلوماتٍ عنها. لماذا تؤمنُ بأنَّ الستاسي قد تَدَخَّلَت؟

جالسٌ على بعد منضدتين منه رجلٌ في سِترةٍ رمادية. هو لا يعيرُه اهتمامًا. إنَّه يأبَه فَحَسبْ حين تُهرع جوته هاتم عَبْرَ ميدان ألكساندر مع امرأةٍ شابَّةٍ أُخرى ويحاولُ أن يُسرعَ في مِشيَتِه ليلحقَ بها.

– سيدي لم يكونوا ضبَّاطَ الستاسي فَحَسبْ الذين يرتدون الرمادي. لستُ أحاولُ إخبارَك بأنَّ الرَّجُلَ الذي رآك لم يُكُن ضَابِطًا من الستاسي. إنني أقولُ فحسب بأن اسمك لا يبدو في سجلاتِنا.

– لكن خطاباتي..

– هذا شيء ليس بوسعِنا مساعدَتَك بشأنِه، يا سيدي. بوسعِك مراجعةَ مكتبِ البريد لكن، كما أقول، لا يمكنُهم مَنحَ معلوماتٍ عن عناوين. أأنت متأكِّدٌ أنَّ خطاباتِك بالفعل غادرت مالطة!

القلبُ، لاحَظَ في تلكِ اللحظةِ أن القلبَ يؤلِمُه ثانيةً. في الواقِع، كان جبينه متعرق وقد بذل مجهودًا لينطقَ بهذه الجملةِ الأخيرة، وربَّما كان هذا المجهودُ هو الذي جعلَه يرفعُ مِنْ صَوتِه لأنَ المرأةَ التي أمامَه أشارت إليه بأن يُخفِضَ من صوتِه.

صامتٌ، هذا المبنى الشَّاهق، هذي الرُّدهةُ الضخمةُ حيث يختفي قليلٌ من الناس وراءَ المكاتب، صامتةٌ، كُلُّ شيء صامتٌ مثلما كان ميدان ألكسندر في ذلك اليوم.

– مدام، لا أريدُ أن يكونَ هناك سُوءُ فهم. هذه فرصتي الأخيرةُ لأجدَ هذه الشخصية. لن تَسمَحَ لي حالتيَ الصحيَّةُ بالعودةِ إلى ألمانيا، هذا مؤكَّد. لقد جئتُ إلى هنا على الرَّغمِ من نصيحةِ أطبائي، الذين ما كانوا ليَسمحوا لي بالسَّفَرِ. كُلُّ ما أطلبُه قليلاً من الفَهمِ من جانبِك، قليلاً من المساعدةِ. تشاهِدُه عيونُ المرأةِ التي تبدو ذاتَ لونٍ رُمادي خَفيف، دونَ أن تُبديَ شيئًا نحوَه.

إنَّهم يُسجِّلونَ الرَّعشَةَ الخفيفةَ في الشِّفة، الجَبهَةُ التي أضْحَت أكثرَ رطوبةً والآن، فجأةً، الدمعةُ تَصعَدُ. إنَّهم يَرونَ رَجلاً تائِهًا، ليس يَعرِفُ ما يَفعَلُه، يشاهدونَه بينما هو يَفُكُّ زِرًّا آخَرَ من أزرار قميصِه.

ثمَّ يلتفتون إلى شاشَة كمبيوتر.

انظر يا سيدي، سأصنعُ استثناءً وأطلبُ إليك ألّا تخبرَ أحدًا. ليس بإمكاني مَنحَكَ معلوماتٍ عن شخصٍ ثالث. لكنني سأُريحُ عقلك وأقولُ لك بأنَّ أحدًا لم يتجَسَّسْ عليك قَطّ، في حالةِ ما إذا كنتَ قلقًا بهذا الشأن.

وقد بحثنا عن اسمِ جوته هايم في سجلاتِنا أيضًا. بَحَثنا قائمةَ النَّاسِ الذين عملوا مِنْ أجلِ الستاسي، الذين تعاونوا مع الستاسي وعَبْرَ قائمةِ الذين تَتَبَّعَهم الستاسي أيضًا.

إنني أقومُ باستثناءٍ خطيرٍ في هذه الحالةِ الخاصّة.

لا يظهرُ اسمُ جوته هايم في قائمتي. هذا الاسمُ لم يُعثَرْ عليه في المستنداتِ المختَزَنَة هنا.

– بمعنى؟

– بمعنى أن جوته هايم لم يكُن لديها ما تفعلُه مع الستاسي لا كمتعاونةٍ ولا حتى كضحية.

لا تُوجَدُ جوته هايم.

يمشي إريك شيري عبر منتصفِ ميدان ألكسندر، قَضى بقيةَ اليومِ ماشيًا. مشى تحت صفوفِ أشجارِ الليمون، مشى نحوَ القصرِ الدامعِ دَومًا الذي كان محطةً للقطار، مشى عَبْرَ مَدخَلٍ ضخم، مشى عَبْرَ متاهةٍ رماديةٍ كثيرةِ الممراتِ تَتَرَدَّدُ فيها الصرخاتُ الصامتةُ لهؤلاءِ الذين أُحرِقوا بالغاز، مشى في أي مكان وكُلِّ مكان وعَرَفَ أنَّه مَرَّ بأُناسٍ عديدين لم يلحظُهم، أو يسمعْهم.

عند نقطةٍ معينة، كادَ أن يَخلعَ سِترَتَه لأن قميصَه الأبيضَ عَلَقَ به رغمَ أنَّ الشَّمسَ كانت مُحببةً ولم تكُ حارةً.

مشى كما لو أنَّه في طريقِه إلى البيت، التَفَت حولَه دونَ أن يُعيرَ أيَّ التفاتةٍ لأسماءِ الشَّوارع، دونَ النَّظرِ إلى الخريطةِ التي حَمَلَها معه. وحينئذٍ، فَجأةً، كان

هنا، في مَيدان ألكسندر، والآنَ السَّماءُ تُمطِرُ، والنَّاسُ الذين أضحوا مرئيين أخيرًا، فتحوا مظلاتِهم.

ليس لديه مَظلَّة، لكن ما أهميةُ هذا؟ لم يَعُدْ شيء يَهُم. كُلُّ شيءٍ كان سَهلاً لكنَّه عند تلك النقطةِ صارَ أصعب. لكنِ الآن حتى التنفسَ أضحى شاقًّا.

ساقاه تؤلماه لكنَّه عَرَفَ بأنَّه مشى كثيرًا، كثيرًا للغاية. سيعودُ إلى حُجرَتِه، يرمي نفسَه في المقعَدِ الفوتي وهو يَنظُرُ خارجًا نحو الميدان، أو يُغمِضُ عينيه لينام. اعتاد أن يسألَ نفسَه عمَّا إذا كان واجَه أيَّ مَصاعبَ في حياتِه، عمَّا إذا كان مُمكنًا أنَّ تكونَ الأشياءُ سَهلةً للغايةِ بالنسبةِ له دومًا.

وهنا كانت الإجابة. لقد جاءت الإجابةُ في الواقِعِ من هذي العيونِ ذاتِ اللَّونِ الرَّمادي الخفيف، تلك الشفاهُ التي تنطقُ الجملةَ التي تَقولُ بأنَّه لم يحلمْ أن يَسمَعَها، جوته هايم لا توجد.

إنَّه يرى المرأةَ الغَجَرِيَّة معَ أطفالِها، في ظِلِّها يمشون، يأخذونَ أكياسَ السُّكَّرِ مِنْ مناضِدِ المقهى، يوزعونَها فيما بينهم ويفتحونَها ويَغمِسونَ ألسنتَهم فيها ثُمَّ يلتهمونَها.

يسمعُ صوتًا يقولُ: إذا لم يتبقَ شيء، تُوجَدُ حقيبةٌ صغيرةٌ من الحلوى، اقذفْ واحدةً في كُلِّ واحدة فحسب،ولا تتأخَّر وإلّا سَتَبرُد.

سيُصابُ بالبَرد، وشَعرُه مبَلَّلٌ بالمطَر، سيرتدي سِترةً فوقَ قميصٍ رقيق.

سيُصابُ بالبردِ في الميدان.

يبتسمُ ويَشعرُ بقبلتِها ويَحُسُّ بأنَّها تَمُدُّ ذراعَها لتتحسَّسَ عُلبَةَ سجائِرِها. يومِضُ عودُ الثِّقابِ قبالَةَ وجهِها وفي الظَّلامِ يُسمعُ صوتُها تَزفُرُ الدُّخانَ بينا هو يُداعِبُ كتفَها البدينة العارية.

بينما يَدخُلُ إلى الفندق يستديرُ ليُلقيَ نَظرةً أُخرى على الميدان حيث ماريون تتحدَّثُ إلى السيد ماجري، تَحمِلُ ماريون صندوقًا من الكانوللي[1] وتَحضُرُ بيللا في الطرف الآخر، تؤرجِحُ مؤخِّرَتَها بينا يَخرجُ الرِّجالُ من الكازينو في الممشى الأمامي ليملأوا عيونَهم منها والبعضُ منهم زيرُ نساءٍ لكنَّها تواصِلُ المسير، وكانت عيناها غَيرَ واضحتي الرؤيةِ لحاجتِها إلى النَّوم.

تَنزِعُ ثيابَها، تَجلِسُ في مَقعدِ الفوتي قَبْلَ أن يُغمِضَ عينيه، يَرى سِترةً كبيرةَ الحجم فوق ليزا الصلعاءِ التي تَقِفُ عند بابِه الأمامي وتانيا بارتولو تدنو وثملاً ما يزالُ وجهُها بالمكياج.

يُغمِضُ الآن عينيه لينالَ قِسطًا من الرَّاحة، لأن الليلَ انتهى تقريبًا وفالنتينا تقولُ بأنَّه يَجدُرُ به أن يَخلُدَ للنوم وهي تَترُكُ له قطعةً من الوَرَقِ كَتَبَت عليها رَقمَ هاتف نيللا، نيللا التي تنتظرُه في الطابقِ الأسفَلِ في سيارتِها الفيات أونو الحمراء.

لكنَّه يهبِطُ إليها. إنَّه يظلُّ هنا مُنتظرًا المرأةَ الشَّابَّة ذاتَ زهورِ الأُقحوانِ في شَعرِها الطويل، وحين تأتي تَبسُمُ له وتقول بأنَّ اسمَها ألكساندرا.

عيناه الآن مثقلتان للغاية، سَقَطَ جفناه ووزنُهما ثقيلٌ حتى إنَّه ليس بوسعِه أن يفتَحَهما.

- بابا.. بابا!

ستكونُ هذه ميلدريد.

ما من أحدٍ يناديه بابا، عدا ميلدريد. يَودُّ لو يَفتحُ عينيه كي يراها. إنَّه حقًّا يودُّ لو استطاعَ، لكنَّه ليس بإمكانِه.

- بابا كيف تَشعُرُ؟

---

1 فطائرُ تُصنعُ في صقلية تحوي الحُمُّص (المترجم).

لكنَّه لا يستطيعُ حتى تحريكَ شفتيه. يَودُّ بحقٍ لو يُخبِرُ ميلدريد. يُخبِرُها، أنّه حتى في أرشيف الستاسي، ما مِنْ أثَرٍ لها. يَودُّ لو يُخبِرُها بما أخبرته هاتان العينان ذواتا اللون الرَّمادي الخفيف، جوته هايم ليست موجودة.

لكن ليس بوسعِه تحريكُ شفتيه أو عينيه أو فمِه. لحاجتِه للنوم. مشى كثيرًا، كثيرًا للغاية. قالت أن بروف سافونا فعلت، لتأخذَ الأمرَ ببساطة، امشِ قليلاً لكنْ ليس مثلما مشى.

لقد مشى والآن متعبٌ هو، كليًّةً. والآن يحتاج إلى أن ينامَ رغم أنَّه يرغبُ لو أنَّه استطاعَ أن يفتحَ عينيه وفمَه ويُخبِرُ ميلدريد.

– ألا تستطيعُ أن تحدثني يا أبي؟ مونيك هنا. أتريدُ أن تقولَ لها أهلاً؟

مونيك هنا، العمَّة تيس أيضًا. قلْ لهم أهلاً،يا أبي.

– آه، نعم، مونيك. مونيك أيضًا يجب أن تعلمَ أن جوته هايم ليست موجودة.

وبالمناسبة، تيسي، شقيقتي العزيزة، لقد عُدْتُ الآن، أتَرَين؟ عليَّ أن أزورَها في وقتٍ ما، سنحتسي القهوةَ ونتسامر عن الأُم والأب. لدينا الكثير لنتحدَّثَ عنه، لاسيما عن الأب.

لكنني أود أن أتحدَّثَ عن الأُمِّ أيضًا.

امرأةٌ مسكينة، لم تكُن محلَّ الاهتمام، دائمًا ما كانت محصورةً في مطبَخِها، ولم تُعرها من الاهتمامِ الكثير، هل فعلنا؟ كان ذلك مثل كُلِّ شيء في البيت يدور في فَلَكِ الأب.

سنتحدَّثُ عنها أيضًا، تيس المسكينة، إنَّها تستحقُّ الكثيرَ من الاهتمام، أليس كذلك؟ سأزورُك في وقتٍ ما يا تيس.

لا تُكلِّفي نفسك، حسنًا، فنجان من القهوة فَحَسبْ، لأنَّه ما من أحدٍ يصنع القهوة مثلك يا تيس.

وسنتسامَرُ عن الذين اعتادوا العيش في شارعنا.

تذكرين ماريون معلمةَ الابتدائي؟ هذا صحيح، تلك التي كانت في الحركة الكاثوليكية، وبيللا، هل تصورتِ أين ذهبت بيللا أثناء الليل؟ تعرفين أنَّك قد ظَلَلْتِ بريئةً، يا تيس.

هي اعتادت أن تكونَ في فاليتا، ترين. الآن بي حاجةٌ إلى قِسطٍ من النوم.

تيس، لكن غدًا، أو بعد غد، على الأقل، سأتوقف عند بيتِنا.

– إريك، كيف حالك يا قلبي؟

ستكون مونيك. إنَّها الوحيدة التي تناديه بكلمة "يا قلبي" مونيك الناعسة قليلاً فحسب، هذا كُلُّ ما هنالك.

– إريك، هل تعرفني، يا قلبي؟

– مونيك هنا يا أبي، إنَّها تُحادِثُك. أتسمعُها؟

– إريك. إريك. أبوسعِك أن تُحادِثنا؟ أنا أُحِبُّك يا إريك، هل تعرف ذلك؟ هل تعرف؟

ميلدريد هنا وتيس وأنا. نحن واقفون إلى جانِبِك، إريك.

راقِدًا الآن، منهكَ القوى. المصابيحُ معتمة. عيناي مغلقتان. لا أستطيعُ الحركة. الباقي صامتون. أسمعُ وقعَ خطواتٍ إلى جواري، بالقُربِ مِنِّي. يرفع هوراتيو صوتَه، الآن قلبٌ نبيلٌ ينشق حُزنًا. طابت ليلتُك، أيُّها الأميرُ الحبيب، وجموعٌ من الملائكة تغني لك كي تستريح.

وبعد فترةٍ قصيرة، تلاشَت الأضواءُ كي تُظلِم. بقيةُ المسرَحِ في صَمت. حتى يبدأ التصفيقُ والأضواءُ السَّاطعةُ تعودُ ثانيةً.

أنظرُ نحو الجمهورِ يُصَفِّقُ على المقاعِدِ وأفتحُ ذراعيَّ على اتساعِهما وأنحني.

مات إريك شيري إثرَ أزمةٍ قلبيةٍ في الأوَّل من سبتمبر 2013.

أُقيمت مراسمُ جنازته بعد يومين في كنيسة سان ماري أتّار، ودُفنَ في مقبرة العائلة في مقبرة أدولوراتا.

في اليوم الذي أُعلنَ فيه موتُه، صَنَعَ شخصٌ ما صفحةً على الفيس بوك.

www.facebook.com/farewellerikxerri والتي امتلأت سريعًا بالمنشوراتِ ورسائِلِ التعازي لأقاربِه، وشهاداتٍ عن حياتِه المسرحية.

أصدرت وزارةُ الثقافة بيانًا نيابةً عن الأُمَّة تعبِّرُ فيه عن حزنِها لخسارتِها أحد أعظم الفنانين في تاريخ المسرح في البلد.

حَضَرَ الجَنازةَ جمهورٌ عظيم، وبوجهٍ خاصٍ، الممثلون والفنانون ورئيسُ الوزراء أيضًا كان ضمن الحضور، مع أعضاءِ البرلمان.

أذاعت بعضُ القنواتِ التليفزيونية الإخبارية خاصَّةً والوثائقية عن حياتِه العملية.

تعيشُ ألكساندرا والكوت شيري في تشيستر، إنجلترا وتقضي كثيرًا من الوقتِ كُلَّ عام في بالما دي مايوركا مع شريكِ حياتِها.

في يوم جنازةِ إريك شيري كانت على متن يَخْتٍ وأُبلِغَت بوفاتِه بعدَ أسبوع.

تترأسُ مونيك جات شركةَ استيرادٍ خاصَّةً للعطورِ ومستحضراتِ التجميلِ الباهِظة.

في اليوم التالي لجنازةِ إريك شيري أقامَت مقابلةً تليفزيونية في تليفزيون الدولة، حيث تحدَّثت عن شهرِه الأخير.

هي تَعمَلُ الآن على كتابة سيرة ذاتية لشيري.

تزوَّجت ميلديريد سافريديس شيري رجلَ أعمالٍ قبرصي بعد وفاةِ والدِها بأربعةِ أشهر.

عدا ابنتها إيلا فإن لها ابنٌ من زواجِها من ديميتريس سافريديس.

يعيشون الآن في ليماسول. وكل عامٍ تقضي أيامًا قلائِلَ في مالطة مع عمّتِها وفي تشيستر مع أُمِّها ألكساندرا.

تيريزا وسيفي وتيسي شيري، ظَلَلْنَ دونما زواجٍ وما زلنَ يعشنَ في المنزل الذي يخصُّ والدتَها ووالدَها.

كُلُّ أسبوعين تزور مقبرةَ العائلة كي تُشعلَ شمعةً وتضعُ باقةً من الورد.

دُفنت ليزا أوفرجارد في مقبرةِ عائلتِها، والتي تَقَعُ في نَفْسِ تقسيم المقبرةِ التي دُفنَ فيها إريك شيري.

بعد وفاتِها، وُجدت بعض الخطابات والكروت البريدية، أُرسِلت إليها بواسطةِ إريك شيري، والتي مرَّرَتها ابنتُها لورا إلى عائلةِ المِمَثِّلِ بعد وفاتِه.

ماتت فالنتينا روسو في حادثٍ مروري وهي في طريقِها إلى قريةٍ خارجَ ميلان على المقعد رقم 12 في ميني باص.

كَشَفَ التحقيقُ الذي أعقبَ الحادثَ عن تَلَفٍ في فَرامِلِ المركبةِ التي تدحرجت واصطدمت بحاجز.

رغمَ أنَّ جميعَ الرُّكابِ بما فيهم السائق نُقلوا إلى المستشفى، كانت هي الوحيدةَ التي فقدت حياتَها.

واصَلَت نيللا سانتاجاتا العَيشَ قُربَ سيراكوزا تَعمَلُ كمحاسبةٍ مع شركة تأمين.

ليس من الواضحِ أنَّها عَلِمَت بموت إريك شيري.

ذهبت تانيا بارتولو بعد حياةٍ عمليةٍ طويلةٍ في المسرَحِ وسلسلةٍ من قِصَصِ الحُبِّ الفاشلة، ذهبت للعيش في شَقَّةٍ صَغيرةٍ بدونِ جهازِ تلفاز.

آخِرُ أعمالِها المسرحيةِ انتهى في مسرحيةِ "بيتُ بيرناردا ألبا" والتي لَعِبَت فيها دورَ بيرناردا.

تقضي تانيا أيامَها على الانترنت تَتَسَامَرُ مع أُناسٍ عشوائيين، وتحيا حياةً ناسكة.

كانت آخِرَ مَرَّةٍ رأت فيها إريك شيري في لوحةِ إعلاناتٍ في طريقِها إلى المستشفى، التي تزورُها مَرَّةً كُلَّ شهرين لعلاجِ العَين.

بعد حياةٍ عمليةٍ طويلةٍ كمعلمةٍ في مدرسةٍ ابتدائية في قَرية، تقاعدت ماريون بيساني، في نُزُلِها في سنِّ السِّتين.

وظلَّت نشطةً في أبرشيتِها وحوالي الأسبوعِ قبل موتِها كانت مسؤولةً عن توزيعِ القراءاتِ أثناءَ القُدَّاسِ في كنيسةِ الأبرشية.

تُوفِّيَت في مستشفى ماتير دي، بعد فترةِ مَرَضٍ قصيرة.

لبيللا فالزون طفلان من رجلين مختلفين.

مات الأكبر في سنِّ التاسعةِ عشرة في حادثٍ مروري.

بعد أن أُوقفت عن العمل في فاليتا، قَضَت بعضَ الوقتِ كعاملةِ نظافةٍ في مَدرَسَةٍ كنسية. توفيت بيللا عام 2003.

جوزيف هايم

إيمانويل ميفسود

ترجمة: الحسين خضيري

لم يفكِّرْ في شيء إلا في أنَّه نجح, حتى هنا, في أن يَجدَ امرأةً, ودون أدنى جَهْدٍ أفلحَ في أن يَلِجَ إلى بيتِها, فراشِها وحياتِها.

ما لم يعرفْه وهو تحت الغطاءِ أنَّه مثلما كان سَهلاً أن يَلِجَ إلى هناك, فإنَّه كان سَهلاً أن يَجدَ نفسَه في الخارج.

بعدَ أقلٍ من يوم, كُلُّ شيء كان سَهلاً قدرَ الاستطاعة.

لقد تَقَبَّلَ جسدَ ليزا الجديدَ كما لو أنَّه عَرَفَه منذ وقتٍ طويل.

ليس ثمّةَ صدماتٌ أوقعَ من الصدماتِ الأُولى, عدا متعةِ لمسات الجَسَدِ العاري, في الواقعِ أكثرَ مِنْ واحدة, أكثر من اثنين.

ISBN 978 9 77428 116 7

تصميم الغلاف
عبد الرحمن الصواف

IL-KUNSILL NAZZJONALI TAL-KTIEB